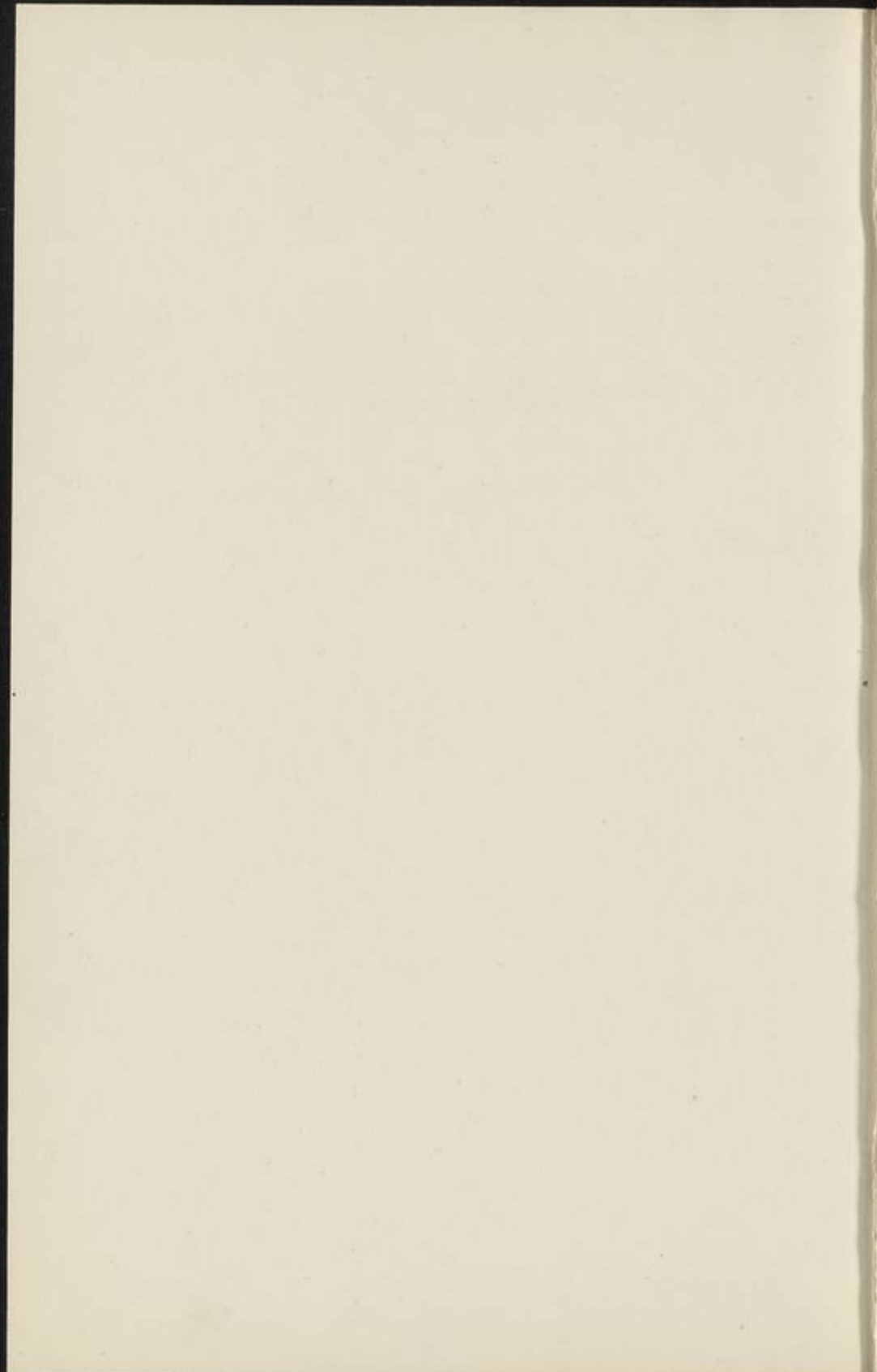
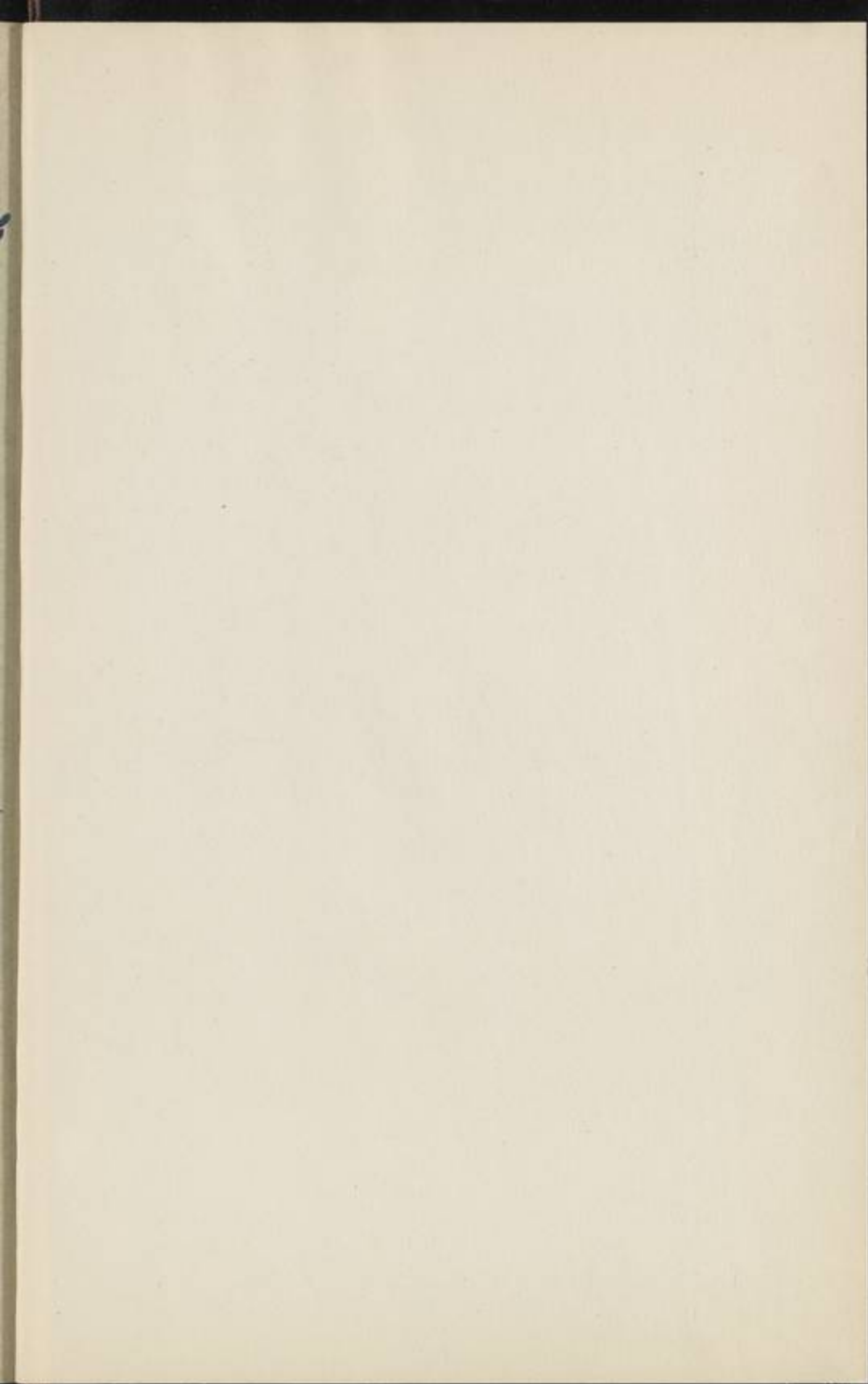


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



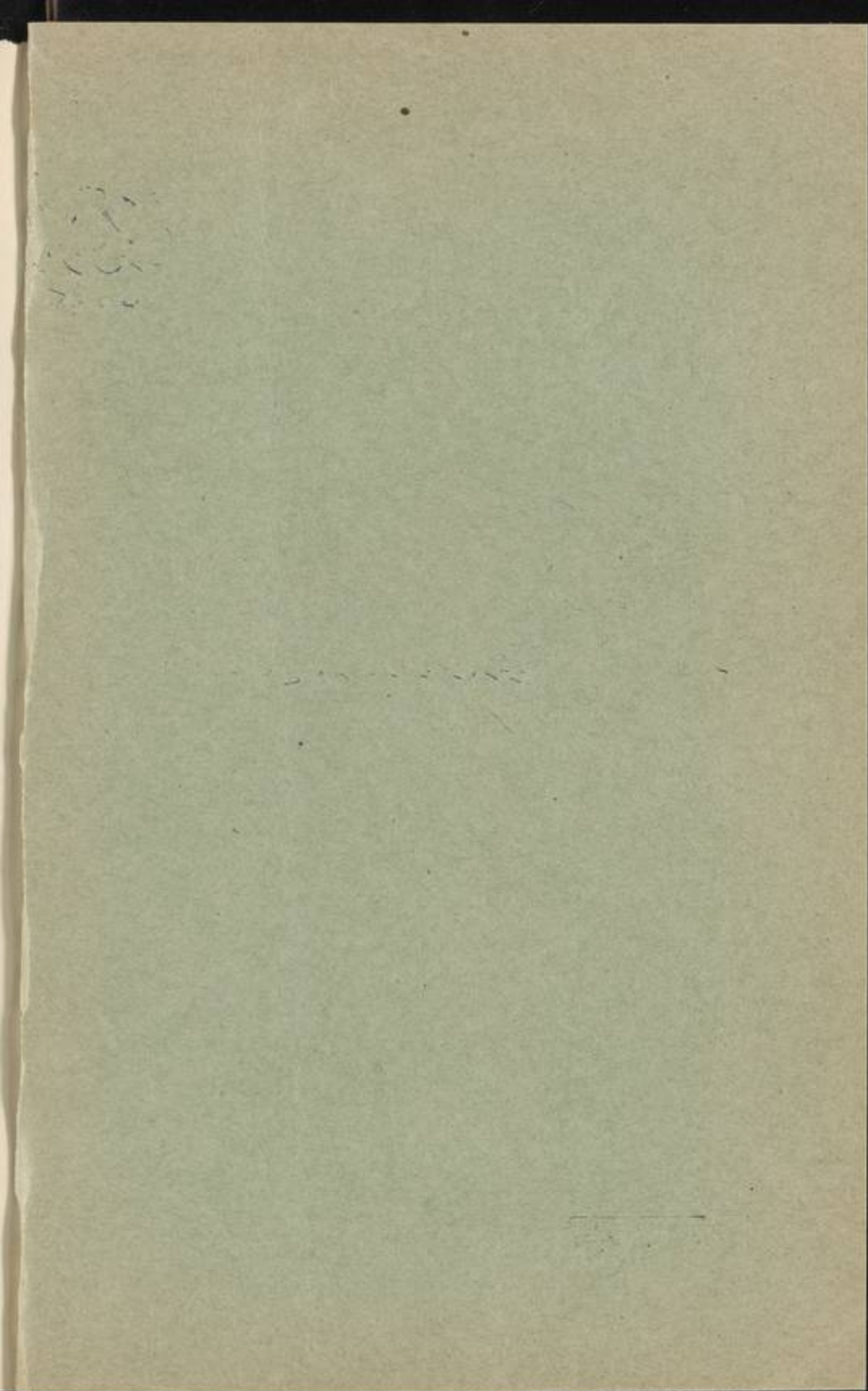




محمد كامل حسين
بكلية الآداب

في الأدب المصري للإسلامي

من الفتح الإسلامي إلى دخول الفاطميين



محمد بن الحسين

في الأدب المصري للإسلامي

من الفتح الإسلامي إلى دخول الفاطميين

893.79

H9561

20921C

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

ظل الأدب المصرى الإسلامى غامضاً مجهولاً لا يعنى به أحد ورغب عنه مؤرخو الآداب والآداباء اعتقاداً منهم أن ما خلفته مصر الإسلامية من أدب غث لا قيمة له، وأن مصر حرمت من وجوه الكتاب وفحول الشعراء، ولم تساهم فى الحياة الأدبية العربية بقدر ما ساهم به غيرها من الأقطار الإسلامية. وبهذه العقيدة أهملت دراسة الحياة الأدبية فى مصر الإسلامية.

حتى كان الجيل الحاضر الذى أخذ فيه المصريون يعنون بمخلفات سلفهم، واجتمعت كلمتهم على البحث والتنقيب عن مدينة مصر فى مختلف عصورها؛ ونادى الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب بإنشاء كرسى للأدب المصرى الإسلامى بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول؛ للعمل على كشف دقاتن الأدب المصرى الذى لم يدرس إلى الآن. سمعت من الأستاذ الجليل هذا النداء عام ١٩٣٠ فلبيت نداءه وقبلت مشورته، وتملكتنى فكرتان: الأولى أنى مصرى وعلى واجبات نحو بلادى وهى أن أعمل على ما يعزها ويرفع من شأنها، والثانية أن هذا الموضوع لم يبحث إلى الآن بحثاً علمياً دقيقاً. فسعيت لهذا البحث تدفعنى رغبة شديدة فى تحقيقه وسرعان ما وجدت نفسى أمام حياة أدبية مزدهرة لا تقل كثيراً عن

حياة الأقطار الأخرى؛ ولسوء حظ مصر فقد جل معالم هذه الحياة ولم يبق منها إلا النزر اليسير .

ووجدت ظاهرة غريبة هي أن كثيراً من أدباء المسلمين ومؤرخيهم عنوا بمصر عناية خاصة؛ فالصولي وضع كتاباً في شعراء مصر (١) والواقدي وابن إسحق الأموي وغيرهما كتبوا في «فتوح مصر»، وزار المسعودي مصر فوصفها في كتابه «مروج الذهب» و«التنبيه والإشراف» كما عنى كثير من المصريين بتاريخ بلدهم ووضعوا مجلدات عنها دون غيرها وقد رجع المسعودي إلى بعضها مثل «فتوح مصر لابن عبد الحكم» و«كتاب الأجواد لمحمد بن زكريا الغلابي»، وعمار بن وسيمة المصري وعيسى بن لهيعة المصري (٢) وغيرهم . وإذا بحثنا عن سبب عناية المسلمين بمصر وجدنا أن أكبر دافع لهم على ذلك ورود هذه الآيات القرآنية الكريمة التي أنزلت عن مصر وهذه الأحاديث النبوية الشريفة التي ورد فيها ذكر مصر والمصريين، ثم لما روى عن مصر وملكها وثوراتها وعجائبها؛ كل هذه جعلت المسلمين يتطلعون إلى مصر وأن يكتبوا عنها ما كتبوا .

وكانت مصر من الناحية العلمية مورداً للجمهور والمحدثين وعلماؤهم الفقهاء وفقهاء الشافعي ومالك على الأخص؛ وعن محدثي مصر روى البخاري ومسلم والنسائي وغيرهم، وعن نخبة مصر أخذ علماء المغرب . فالحياة العقلية في مصر كانت قوية عظيمة النشاط والتأرجح مما يضطرني إلى أن أقول إن دراسة الأدب المصري الإسلامي تحتاج إلى جهود متضافرة

(١) معجم الأدباء لياقوت، ج ٢، ص ٥ (طبعة مرجوليوت)

(٢) مروج الذهب للمسعودي، ج ١، ص ٤ (طبعة بولاق)

حتى ينجلي ما غمض منه ؛ وهذا العصر الذى أورخه فى هذا البحث - من الفتح الاسلامى إلى دخول الفاطميين - شديد الظلمة عليه ستار كشيء من الغموض والايهام شأنه فى ذلك شأن كل بلد فى دور الانقلاب والتطور من حال إلى حال ، ولعل مصر لم تشهد انتقالا وتطوراً كهذا الذى شاهده فى هذا العصر ؛ فبعد أن كانت مسيحية الدين أصبحت اسلامية ، أضف إلى ذلك ما كان من دخول عناصر كثيرة من العرب تمصرت وسكان من مصر تعربوا ؛ وكون الجميع شعباً واحداً هو الشعب المصرى الإسلامى الذى سنتحدث عن علومه وآدابه .

أتممت هذا البحث فى عام ١٩٣٤ وتقدمت به إلى كلية الآداب بجامعة فواد الأول فنهجت درجة الماجستير « بمرتبة الشرف » عام ١٩٣٥ ، ثم بدا لى أن أحذف بعض فصول منه وأن أضيف إليه فصولاً أخرى ، وأن أغير بعض آراء اضطررت إلى تغييرها بعد قراءة مصادر أخرى لم أكن اطلعت عليها . فهذا الكتاب يختلف الآن تمام الاختلاف عن البحث القديم ، وأرجو أن أكون وفقت فى هذا البحث .

(وبعد) فأرى حقاً على أن أسجل جزيل شكرى لحضرات أساتذتى الأجلاء : الدكتور طه حسين بك ، واحمد امين ، وعبد الحميد العبادى ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، وامين الخولى . فقد قرأوا هذا البحث واستعنت بأرائهم فى كثير من المشكلات التى واجهتني فأنا مدين لهم بذلك .

محمد كامل حسين

الباب الأول

تطور الآداب واللغة في مصر

١ - الآداب بمصر قبيل الفتح الإسلامي

اضمحلت مدرسة الاسكندرية في عصر الرومان ، لفساد الحكومة بمصر ، وللاضطهاد الذي لحقها من الرومانيين لاسيما بعد أن انتشرت الديانة المسيحية في البلاد ، ثم لظهور مدارس أخرى في سوريا ورومه وغيرهما مما جعل رجال العلم يهربون من الظلم الذي لحق كل المصريين فخسرت مدرسة الاسكندرية بعض عناصرها الأساسية ، ثم إن كثرة الجدل بين المسيحيين والوثنيين جعل كل فريق يفتصر لدينه ويعمل على رفع شأنه ، فقد هال المدرسة الوثنية ما رآته من سرعة انتشار الدين المسيحي في مصر فجدد ذلك روح النشاط عندها ، فكانت خزائن الوثنيين بالاسكندرية في ذلك الوقت تحوى نسخاً من مؤلفات اليونانيين والمصريين ، ومع ذلك سعوا إلى تضخيم عدد كتبهم بالنسخ والتأليف ، فخصص قسم من النساخ لكتابة ما يميله عليهم المؤلفون ونسخ فريق آخر ما أمكن العثور عليه من كتب القدماء^(١) . ولكن لم تدم هذه الحال طويلا إذ ظل الدين المسيحي والوثني يكيد كل لصاحبه ، فهدم معابده ومدارسه وحرق كتبه وعبث بها حتى إذا كان عام

(١) تاريخ الأمة القبطية (طبعة مصر سنة ١٩٠٠) ص ٥٨ وما بعدها

إحدى وتسعين وثلثمائة للبلاد انقضت المسيحيون بقيادة ثيوفيلس على السرايوم حيث جامعة الاسكندرية ومكتبتها فحطموا كل شيء في طريقهم لأنهم كانوا يرون أن المدرسة وما بها من كتب مظهر من مظاهر الوثنية، فأداهم تعصبهم الديني إلى هدم المدرسة والعبث بكتبها .

واتجهت مدرسة الاسكندرية الى اتجاه آخر أى إلى العلوم العقلية فكانت الاسكندرية خير ميدان للأبحاث الفلسفية والدينية فتأثرت الفلسفة بالدين والدين بالفلسفة ، واضطر رجال الدين المسيحي إلى أن يستعينوا بالفلسفة والمنطق في جدالهم الطائفي وجدالهم مع الوثنيين ، كما اختلطت الديانة اليهودية بالتعاليم اليونانية فأدى ذلك لمزج إلى ظهور نوع جديد من الفلسفة ازداد بانتشار المسيحية فاستخرجوا العقائد الدينية والنظم الفلسفية التي بلغت الذروة في مذاهب الغنوسية والأفلاطونية الحديثة ويهودية فيلون^(١)

وسرعان ما انتشرت تعاليم مدرسة الاسكندرية الحديثة ورحل علماءها إلى أقطار الامبراطورية الرومانية يدعون إلى مبادئها كما هاجر إلى الاسكندرية عدد من المسيحيين الذين شغفوا بما فيها من دروس الفلسفة إذ كانت الاسكندرية أكبر موطن للفلاسفة والمفكرين^(٢) ومصر وإن كان زمامها بيد الرومان ، فإننا نجد لغة العلم والمتعلمين بها هي اللغة اليونانية التي استطاعت أن تحيا وتحفظ لنفسها بالمكانة الأولى

(١) فجر الاسلام للاستاذ أحمد أمين ص ١٠١ (الطبعة الأولى)

Milne: A History of Egypt Under Roman Rule. (London.1913) p.15 (٢)

في مصر ، وسارت جنباً إلى جنب بجوار اللغة المصرية ، بل نرى اللغة اليونانية تؤثر في اللغة المصرية تأثيراً قوياً يظهر في استعمال المصريين للحروف اليونانية والألفاظ اليونانية السكثيرة التي نجدها في اللغة القبطية . كذلك كانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية بمصر^(١) ، وتقول مدام بوتشر إن والي الروماني كان يصدر نشرات للأهالي يصف فيها حكمه للبلاد وهذه النشرات كانت تكتب باليونانية ، كما كان الولاة الرومانيون يفخمون أنفسهم ويعظمونها بأن يضيفوا لقباً يونانياً إلى أسمائهم^(٢) وهذا دليل واضح على أن اللغة اللاتينية والآداب اللاتينية لم تنتشر بين المصريين في حين أن الآداب اليونانية واللغة اليونانية كانت قوية منتشرة بين المثقفين في البلاد ، حتى اضطر والي الروماني إلى أن يصطنع كتباً يحدقون اليونانية . وكان لبعض هؤلاء الكتاب مؤلفات باليونانية أمثال لوسيانوس صاحب محاورات الموتى^(٣) كما كان بمصر شعراء ينشدون أشعارهم باليونانية بل نراهم قد حاولوا السير في أشعارهم على نهج شعراء اليونان ، فمنهم من حاكي هو ميروس وقال شعراً على نمط الاللياذة ، كما وضع اخيلوس تاتيوس وهو من شعراء مصر في القرن الرابع الميلادي عدة روايات خيالية ممتعة^(٤) ، ومن شعراء مصر في القرن الخامس الميلادي سيروس الايخيمي فقد شغف بالشعر وإنشاده

Quatremère : Recherches sur la Langue et la Litterature de (١)

l'Egypt "Paris 1808" p. 5

Butcher : The Story of the Church of Egypt "London 1897" (٢)

V. I. P. 356

(٣) تاريخ الامة القبطية ص ٨٠

(٤) * * * * * ص ٢٣٤

وكان صديقاً لا يدوشيا زوج الامبراطور ثيودوسيوس الثاني وتقلب في مناصب الدولة إلى أن صار قائد الجيش المصرى ولكنه اعتزل العمل ورغب في خدمة الدين المسيحى فعين أسقفاً لإحدى الكنائس (١). وفي القرن السادس الميلادى ظهر شاعر مصرى من طيبة يدعى كريستودورس ولا تزال قصائده مسطورة في الكتاب الخامس من منتخبات الأشعار اليونانية . ويقال إن هذا الشاعر وجد صعوبات جمة في نسخ أشعاره وترتيبها (٢). ومن اشتهر بالعلوم بمصر في ذلك الوقت عالم مصرى اسمه ديسقوريدس وضع كتاباً في علم النبات وحلاه بكثير من الصور والنقوش ولا يزال هذا الكتاب محفوظاً في مكتبة فيينا إلى الآن (٣)

بجانب هذه الآداب اليونانية كان مصر آداب سريانية إذ كان نهضة الفرس في القرن السابع الميلادى وغزوهم لبلاد الشام أثر في ازدياد ذخيرة الاسكندرية وزيادة الآداب السريانية بها ، فقد هاجر كثير من علماء السريان إلى مصر حيث نشروا آدابهم ، ونقلوا إلى مصر كتبهم وتعاليمهم ، وكان نظام الرهبنة قائماً في مصر ، وفي كل دير مكتبته وتلاميذه يعكفون على الدرس والتحصيل ، فنقلت هذه الآداب السريانية إلى الأديرة لاسيما في دير السريان بوادى النطرون ، كما كانت تدرس علوم الطب في القرنين السادس والسابع باللغة السريانية . وفي القرن السابع قام بولس اسقف بلا بترجمة نسخة الترجمة السبعينية من

(١) بيوتشر ، ج ٢ ، ص ٩

(٢) بيوتشر ، ج ٢ ، ص ٧٩

(٣) بيوتشر ، ج ٢ ، ص ٥

الكتاب المقدس إلى اللغة السريانية وظلت هذه الترجمة في وادي
النظرون حوالى ألف سنة وهي الآن بالمتحف البريطانى (١) وكتب
اهرن القس Aaron مقالاته الطبية التي يجمعها كتاب «كناش في الطب»
باللغة السريانية؛ وترجم هذا الكتاب إلى العربية ماسرجويه بأمر الخليفة
عمر بن عبد العزيز فكان هذا الكتاب من المراجع الهامة للعرب في علم
الطب. كذلك كانت تدرس الآداب السريانية بالاسكندرية والأديرة
المختلفة التي امتلأت بها صحارى مصر. ويحدثنا المؤرخون عن الطيب
سرجيوس من رجال القرن السادس الميلادى فقد أتقن العلوم والآداب
السريانية كغيره من الأطباء (٢).

لم تقتصر الآداب في مصر قبل الفتح على الآداب اليونانية والسريانية
فحسب، بل نجد رجال الدين المسيحي بمصر يكتبون مقالاتهم الدينية
باللغة القبطية التي صارت لغة الدين في مصر وبطل استعمال اللغة
اليونانية في الكنائس والمجتمعات على نحو ما سنذكر بعد فقد ارتقت
اللغة القبطية وصار مسيحيو مصر يصلون في كنائسهم بلغتهم، وقام
جماعة من الرهبان بترجمة ونسخ كثير من الكتب والأسفار؛ منها
ترجمة العهد الجديد إلى ثلاث اللهجات القبطية وترجموا جميع
الطقوس الدينية كما كتبوا تراجم البطارقة والشهداء وألفوا كتباً في
التاريخ العام (٣) ولم يبق لنا من هذا كله إلا النزر اليسير. ولعل أهم هذه

(١) تاريخ الأمة القبطية طبع مصر سنة ١٩٠٠ من ٦٧

(٢) Butler : The Arab conquest of Egypt p. 93

(٣) تاريخ الامة القبطية لبيوتشر ، ج ٢ ، ص ١٧

الكتب كتاب تاريخ وضعه يوحنا النيقوسى كتبه فى أواخر القرن السابع الميلادى فقد شاهد هذا الرجل الفتح العربى وكتب عنه، ويعتبر كتابه من أقوم المصادر التاريخية عن دخول العرب مصر. ولم يبق من هذا الكتاب إلا الترجمة الحبشية لجزء منه .

ومع ذلك كله لم تسكن الحركة الأدبية القبطية على درجة كبيرة من الرقى . يقول الاستاذ بتلر ولا يستطيع الأقباط أن يفخروا بشعراء مجيدين أو مؤرخين معروفين أو فلاسفة أو أحد من رجال العلم فجعل آدابهم دينية لقله ما كان لديهم من بيان وعلم ، مما سبب إهمال لغتهم وعدم انتشارها فى العالم ، مع أنه لا تكاد توجد لغة أقدم من لغتهم أو أغرب منها أو ذات تاريخ أعجب من تاريخها ،^(١)

وهذا صحيح إلى حد ما إذ أن المصريين عنوا بالدين فقط ، ويخيل إلى أن العقيدة الدينية بمصر تمشى فى عروق المصريين منذ القدم فأثار قدماء المصريين التى نراها الآن ماهى إلا مظهر من مظاهر دياناتهم المختلفة فهم لم يبنوا الأهرام والمعابد ، ولم يضعوا الحلى والأواني فى القبور ولم ينقشوا القبور بهذه النقوش الزاهية ، بل هم لم يتقنوا السحر والطب والتنجيم وغيرها من العلوم إلا من أجل الدين . فدينية قدماء المصريين مدنية فنية ولكنها دينية قبل كل شئ بخلاف الحضارة اليونانية القديمة التى كانت أدبية فلسفية ، وفى مصر التقت الحضارتان فامتزجتا وظل المصريون يميلون إلى الدين وما يتعلق به وتركوا العلوم الفلسفية إلى من وقد على بلادهم ، ثم ان المذهب اليعقوبى لم يواجه

من المعضلات الدينية ما واجهه المذهب النسطوري في آسيا مثلاً، لهذا نرى النساطرة ينقلون الكتب الفلسفية والعلمية والدينية إلى السريانية ولا نجد هذه الترجمة عند اليعاقبة المصريين، فلا غرابة إذا وجدنا المدرسة الفلسفية الوثنية بالاسكندرية تتقهقر ويزول أمرها في القرن الخامس الميلادي في حين قويت المدرسة اللاهوتية .

فتح العرب مصر سنة ٢٠ هجرية (على خلاف في هذا التاريخ) فضعفت الآداب اليونانية واللغة اليونانية وظلت الآداب القبطية واللغة القبطية حتى إذا كان القرن العاشر الميلادي أي الرابع الهجري نجد الأسقف سويرس بن المقفع، وكان من رجال الدين في هذا القرن يقول « استعنت بمن أعلم استحقاقهم من الأخوة المسيحيين وسألتهم نقل ما وجدناه منها (أي من سير الآباء المسيحيين) بالقلم القبطي واليوناني إلى القلم العربي الذي هو الآن معروف عند أهل الزمان بأقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من أكثرهم » (١) ولكن لم تمح اللغة القبطية واللغة اليونانية دفعة واحدة بل قل استعمالها وحلت محلها اللغة العربية والآداب العربية — ويدلنا على أن هذه الآداب اليونانية والقبطية ظلت إلى ما بعد الفتح ما حدثنا به ابن النديم في كلامه عن خالد بن يزيد بن معاوية قال : « وأمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانية ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة واللسان من اليوناني والقبطي إلى العربي وهذا أول نقل كان في الاسلام من لغة إلى لغة » (٢) كما كان في كل كنيسة كتاب باللغة

(١) سير الآباء البطارقة لابن المقفع طبع بيروت ص ٦

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٣٣٨ (طبع المطبعة الرحمانية)

القبطية في حياة الآباء يقرؤه القسس كل صباح ولا يسمح لأى انسان أن يقتنيه وقد ترجم إلى العربية أمثال هذه الكتب وكذلك القصص التي في آخرها (١)

استطاعت اللغة العربية والآداب العربية أن تغزو مصر كما غزاها العرب ، وأن تستقر بمصر كما استقر بها العرب ، واضطر المصريون إلى أن يحدقوا العربية فلم يمحض إلا وقت يسير حتى رأينا الآباء البطارقة يؤلفون كتبهم بالعربية مثل ابن البطريق رئيس الكنيسة في الاسكندرية في القرن العاشر الميلادى صاحب « نظم الجوهر » في التاريخ العام ، وسويرس بن المقفع صاحب « سير الآباء البطارقة » وغيرهما .

أما مدرسة اللاهوت بالاسكندرية مبعث الآداب والعلوم في العالم فظلت تخرج العلماء وإليها كان يفد العلماء بعد الفتح ، ففي سنة ثمانين وستائة ميلادية رحل إليها يعقوب الرهاوى لاتمام دراسة الآداب اليونانية والسريانية ، ويقول بتلر « ومن الثابت أن الاسكندرية كانت مركز الثقافة والآداب في العالم في هذا الوقت (أى زمن الفتح) ومع ان أكثر العلوم بها كانت دينية نجد انجها وعناية بالآداب القديمة إذ كتبت موضوعات كثيرة عن الأخلاق المسيحية المبنية على الأفلاطونية الحديثة ، (٢) . ولكن أصاب مدرسة الاسكندرية شيء من الضعف منذ أوائل أيام العرب ، وفاقتها مدارس انطاكية وحران وجند يسابور وغيرها مع استمرار دراسة الآداب القديمة والآداب الدينية بأديرة مصر ومدرسة الاسكندرية ولست أدري كيف يقول

Butler : The ancient Coptic Churches of Egypt p. 259 (١)

Butler : The Arab Conquest of Egypt p. 96. (٢)

ابن أنى أصيبه، وظلت مدرسة الاسكندرية مركز التدريس في الشرق إلى أواخر القرن الأول حتى نقله عمر بن عبد العزيز إلى مدرسة انطاكية،^(١).

فإننا نعلم ان مدرسة الاسكندرية ظلت بعد الفتح العربي طويلا واتصل بها المسلمون في العهد الأموى فاضطفت الاسكندرية في ترجم كتاباً لخالد بن يزيد، وابن ابجر الطبيب الاسكندري يعتمد عليه عمر بن عبد العزيز في صناعة الطب، وعند ما مرضت جارية للرشيذ أرسل في طلب طبيب مصرى هو بليطان بطريق الاسكندرية وفي أيام احمد بن طولون نجد سعيد بن توفيل يطينه^(٢) كما كان لمدرسة الاسكندرية أثر في العرب لاسيما في علم الطب الذى ظهر عند العرب مشبعاً بتعاليم الاسكندريين فظلت هذه العوامل شديدة الأثر في ما أخرج في الطب من المؤلفات العربية . كما كانت مؤلفات بولس الايجينى Paul of Aeginae - وكان في الاسكندرية أيام الفتح العربى - مما يعتمد عليها طوال العصر العربى كذلك كانت مدرسة الاسكندرية النواة التى استمد منها العرب علم الكيمياء أو كما يقول كتاب العرب علم الصنعة فكل من تحدث عن هذا العلم يذكر مصر ومآثرها على من اشتغل به ، ويكفى أن نذكر ما جاء في الفهرست « قال ابن اسحق : والكتب المؤلفة في هذا الشأن (أى الصنعة) أكثر وأعظم من أن تحصى ، لأن المؤلفين لها تنحلوها عنهم . ولاهل مصر في هذا الأمر مصنفون وعلماء ، وأصل الكلام في

(١) عيون الانباء ، ج ١ ص ١١٦

(٢) ضحى الاسلام للاستاذ أحمد أمين ، ج ١ ص ٢٦٢

الصنعة من ثم أخذوها،^(١) وظل هذا العلم بمصر طويلاً بعد الفتح وشغف به كثير من المسلمين. وقد رأينا كيف اعتمد خالد بن يزيد على بعض المصريين ليترجموا له كتب الصنعة كما قيل إن ذا النون المصري كان له أثر في الصنعة وأنه ألف كتاب الثقة في الصنعة^(٢)

ولا ندرى تماماً مبلغ هذا القول من الصحة فإن عثمان بن سويد الإخميمي وضع كتاباً سماه «صرف التوهم عن ذى النون المصري»^(٣) ولكن الكتاب فقد، ولا أعلم أكان هذا المؤلف وضع كتابه في الرد على من قال إن ذا النون اشتغل بهذه العلوم أم لا.

ومع ذلك نقول إن مدرسة الاسكندرية ضعف أمرها أيام العرب وقلت شهرتها وأخذت الآداب اليونانية والقبطية تنقر. فالآداب بمصر قبل الفتح كانت قليلة مصطبغة بالصبغة الدينية بحكم ذلك النزاع الطائفي الذي كان بين المسيحيين وسيطرت المذاهب الطائفية على عقول الناس وتفكيرهم، بل تحكمت في أخلاقهم وسلوكهم، وهذا الانقسام في الرأي والعقيدة كان من العوامل التي ساعدت العرب على فتح مصر.

مكتبة الاسكندرية

ذكر بعض المؤرخين أمثال عبد اللطيف البغدادي في كتاب الافادة والاعتبار^(٤) والقفطي في إخبار العلماء بأخبار الحكماء وابن العبري، وتبعهم المرحوم جورجى زيدان: أن عمرو بن العاص

(١) الفهرست لابن النديم ص ٥٠٧

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٥٠٤

(٣) الفهرست ص ٥٠٥

(٤) الافادة والاعتبار ص ٢٨

قد أحرق مكتبة الاسكندرية بأمر الخليفة عمر بن الخطاب وقد ناقش ذلك كثير من العلماء وارتابوا في هذا الأمر ، ومن يرجع إلى كتاب الأستاذ بتلر الذي ترجمه إلى العربية الأستاذ محمد فريد أبو حديد يجد فصلاً خاصاً بهذا الموضوع ، وفيه نفي بتلر نسبة إحراق مكتبة الاسكندرية لعمر بن العاص وأظن أنه لا داعي لنقل ما كتبه المؤرخون أمثال جيبون وغوستاف لوبون وغيرهما إذ كادوا يجمعون على أن هذه خرافة .

٢ - قبائل العرب بمصر

اتصلت مصر ببلاد العرب قبل الإسلام اتصالاً تجارياً^(١) ، إذ نقل العرب غلات بلادهم إلى البلاد الأخرى وكانت القوافل أول ما تنزل في البلاد الرومانية تنزل في أيلة ، وهي المعروفة اليوم بالعقبة^(٢) . والمؤرخون يحدثوننا عن كثير من العرب حضروا إلى مصر قبل الإسلام ويندكرون منهم عمرو بن العاص — وكذلك سافر المصريون إلى البلاد العربية إما لأسباب تجارية أو لأسباب علمية كالذي قيل إن التاجر المصري قزمان الذي أولع بالسياحة سافر في القرن السادس الميلادي إلى بلاد العرب ومنها إلى بلاد الهند ووضع مؤلفاً لأحوال هذه البلاد التي زارها^(٣) .

(١) محاضرات الأستاذ نلبنو في تاريخ بلاد العرب الجنوبية .

(٢) فجر الإسلام ، الطبعة الأولى ، ص ١٦ .

(٣) Butler : The Arab Conquest A Egypt, P. 102

ولما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم ، أرسل من قبله حاطب بن أبي بلتعة رسولا إلى المقوقس عظيم القبط في مصر يدعوهُ إلى الإسلام فأكرم المقوقس الرسول وأرسل معه هدية إلى النبي عليه الصلاة والسلام تقبلها شاكرًا وأوصى بالقبط خيرا ، وروى عنه أنه قال : « استوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما » قال ابن كثير « والمراد بالرحم أنهم أخوال اسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، أمه هاجر القبطية وهو والد عرب الحجاز الذين منهم النبي عليه الصلاة والسلام وأخوال إبراهيم ابن رسول الله وأمهم مارية القبطية من سناكورة انصنا » (١) . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص « أهل مصر أكرم الأعاجم كلها ، وأسمجهم يدا ، وأفضلهم عنصرا ، وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقريش خاصة » (٢) وكان بين الأقباط من صحب رسول الله (صلعم) كجبر بن عبد الله القبطي ، وروى السيوطي عن سعيد بن عفير أنه قال « والقبط تفخر بأن منهم من صحب النبي (صلعم) » (٣) . وجاء ذكر مصر في القرآن الكريم مرارا فلا غرو إذن أن نرى العرب يعرفون شيئا عن مصر ، فراحوا يتحدثون عنها ، ويخترعون الأحاديث الكثيرة عن عجائبها ، كما طمع العرب في ثروة مصر ؛ لهذا بعد أن تم لهم فتح الشام ، جاء عمرو بن العاص إلى مصر ومعه عرب من قبائل مختلفة يقال إن أكثرهم من عك ولخم ، ويقال أيضاً إن عددهم لم يزد عن أربعة آلاف نفس ، ثم اتبعه الزبير

(١) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٩ (طبعة دار الكتب المصرية)

(٢) شرحه

(٣) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ١٠٩ .

ابن العوام بمدد قدر باثني عشر الفا، فلما تم لهم فتح مصر وبنى مسجد
الفسطاط أمر عمرو وجنوده أن يختطوا حول المسجد الجامع كل بحسب
قبيلته؛ فمن القبائل التي اختطت بالفسطاط وأقامت بها: مهرة وتجب
ولخم وغسان وغافق^(١)، ومن بني غافق بطن يعرفون بالقرافة سكنوا
سفح المقطم ثم تركوا أماكنهم وتفرقوا في البلاد المصرية، وصار
مكاتبهم مقبرة المسلمين فسميت المقبرة في مصر بالقرافة نسبة إلى هؤلاء
القوم^(٢).

وكان مع عمرو وجماعة العتقاء، وهم جماع من القبائل عرفوا بالصعاليك
كانوا يقطعون الطريق أيام النبي صلى الله عليه وسلم فبعث في طلبهم
وأتى بهم أسرى، فاعتقهم وكان بينهم كثير من طوائف الأزد وفهم^(٣)
كذلك شهد فتح مصر واختط بالفسطاط قوم من الفرس هم أبناء
جندب اذان عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام، وأسلموا ورجبوا في
الجهاد فنفروا مع عمرو بن العاص إلى مصر^(٤). كما كان في جيش الفتح
جماعة من الشام عرفوا في مصر بالحمراء لنزول الروم بينهم، ولكنهم
عرب من بلي (قضاة) وفهم وعدوان وبعض الأزد، وكانوا يسكنون
قيسارية وما حولها، ورجبوا في الإسلام قبل واقعة اليرموك وساروا
مع عمرو إلى مصر، وسموا بالحمراء لأن العرب اعتادوا أن يسموا
الموالي من الروم بهذا الاسم^(٥).

(١) خطط المفريزي، ج ٢، ص ٧٦ وما بعدها

(٢) ابن خلكان، ج ١، ص ٣٣٨

(٣) خطط المفريزي، ج ٢، ص ٨٨

(٤) خطط المفريزي، ج ٢، ص ٧٨

(٥) خطط المفريزي، ج ٢، ص ٧٩

واشترك في الفتح أيضا عدد من قبائل مختلفة : من قریش والأنصار
وخزاعة ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وليث عرفوا في مصر
باسم أهل الراية ، ونسبت الخطة إليهم لأنهم جماعة لم يكن لكل بطن
منهم من العدد ما ينفرد من الديوان^(١)

أما همدان فلم يقبلوا أن يسكنوا في الفسطاط ، واختاروا الجيزة لهم
مقراً ، وحاول عمرو أن يرجعهم إلى الفسطاط فلم يستطع ، فاضطر إلى أن
يخاطب الخليفة في شأنهم فكتب الخليفة إليه « كيف رضيت أن تفرق
أصحابك ولم يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون
بينك وبينهم بحر لا تدرى ما يفاجوهم ، فلعلك لا تقدر على غيائهم
حين ينزل بهم ما تكره ، فاجمعهم إليك ، فإن أبوا إليك وأعجبهم
موضعهم فإن عليه من في المسلمين حصنا ، فبني لهم عمرو بن العاص
الحصن بالجيزة ، وسكن مع همدان نافع وذو صبح وطائفة من الحجر
وبرزوا إلى أرض الحرث والزرع^(٢)

وبعد أن تم فتح مصر نرى الخليفة عمر يكتب إلى عامل الشام
أن يسير ثلث من بالشام من قضاة إلى مصر ، فنظر الوالي فإذا « بلي »
تعادل ثلث قضاة فسيرهم إليها ، فانتشروا في البلاد سيما حول اخميم
وما يليها ، وتفرقت بلي بأرض مصر ثم اتفقت هي وجهينة فصار لها
من الشرق من عقبة قاو الخراب إلى عيذاب (القصير)^(٣)

وكان عمر بن الخطاب يبعث كل عام غازية من أهل المدينة - ابط

(١) خطط المقرئى ، ج ٢ ص ٧٦

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ، ج ١ ، ص ٨١

(٣) البيان والاعراب للمقرئى ، ص ٣٧ - ٣٨

(٤) حسن المحاضرة ص ٩٧

بالاسكندرية، وقسم عمرو بن العاص من معه، فكان يرسل ربيع الناس
يقيمون ستة أشهر في رباط الاسكندرية، والرابع في السواحل والنصف
يقيمون معه. ولم يختط العرب بالاسكندرية كما اختطوا في القسطنطينية،
بل كان بها أخاند، من أخذ منزلاً نزل فيه هو وبنو أبيه (١) فلما
استقامت لهم البلاد قطع عمرو بن العاص من أصحابه لرباط الاسكندرية
ربيع الناس وكانت نخم أعز من في ناحية الاسكندرية

أخذ العرب يفدون على مصر أفواجا حتى غصت بهم البلاد، وكان
بين القبائل فضاء من القبيل إلى القبيل، فلما كثرت الأمداد في زمان
عثمان بن عفان وما بعد ذلك، وكثر الناس وسع كل قوم لبني أبيهم حتى
كثرت البنيان والتأم (٢). ولما ولى معاوية بن أبي سفيان زياد بن أبيه على
البصرة، غرب جماعة من الأزدي إلى مصر عام ثلاث وخمسين هجرية (٣)
فتزل منهم نحو مائة وثلاثين. كما كتب معاوية إلى علقمة القطيفي عامل
الاسكندرية «إني قد أمددتك بعشرة آلاف من أهل الشام وبخمس
آلاف من أهل المدينة» فكان في الاسكندرية سبعة وعشرون ألفاً (٤)
كما كان بمصر في خلافة معاوية أربعون ألفاً (٥). وفي إمارة الوليد
ابن رفاعة على مصر عام تسع ومائة (٦) نزل بنو سليم (وهم من قيس)
— ولم يكن بأرض مصر أحد من قيس قبل ذلك إلا من كان من عدوان

(١) خطط المقرئ، ج ١، ص ٢٦٩

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم، ص ١٢٨

(٣) خطط المقرئ، ج ٢، ص ٧٨

(٤) حسن المحاضرة، ج ١، ص ٩٨

(٥) خطط المقرئ، ج ١، ص ١٥١

(٦) البيان والاعراب المقرئ، ص ٣١

الذين أنزلهم عبد الله بن الحبحاب والى الخراج فى خلافة هشام بن عبد الملك - وكان عدد بنى سليم ثلاثة آلاف رجل ، فأنزلهم الحوف الشرقى وأمرهم بالزراع فاشترىوا إبلا ، وكانوا يحملون الطعام إلى القلزم فأثروا ، ولما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية ، فأقاموا سنة فأتاهم ألف وخمسمائة بيت من قيس ، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد صار بمصر ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم زيدوا إلى خمسة آلاف ومائتين . ولكثرة القيسية بمصر وتجمعهم فى الحوف وثراتهم العظيم كانوا مصدر فتن وقلقل ، وكثيراً ما حاربوا الولاية . وكان يجاورهم فى الحوف جماعة من صلاح وطارق وهم من جذام ، ولذلك قامت الحروب الكثيرة بين القيسية واليمية شأنهم فى ذلك شأن هاتين الطائفتين فى كل الأقطار الإسلامية .

وسكن بنو عقبة وهم من جذام أيضاً ما بين ابلة وحوف مصر^(١) كما ذهب قوم من جذام ولحم إلى الاسكندرية^(٢) ، وكانت لهم هناك أيام معلومة ووقائع مشهورة سياتى فى فتن ابن الجروى . وكان كل أمير يتولى مصر يأتى إليها ومعه عدد من الجند العرب كى يقوى بهم وينصروه على الفتن التى فى البلاد ، فقد قيل إن حوثة الباهلى سار إلى مصر فى آلاف من العرب^(٣) ولا أدرى تماماً من أى القبائل كان هؤلاء القوم ، وأكبر الظن أنهم من القيسية عشيرة الوالى .

وبصعيد مصر أولاد السكنز ، أصلهم من ربيعة وكانوا ينزلون اليمامة

(١) البيان والاعراب للمقرئى ، ص ٣١

(٢) البيان والاعراب للمقرئى ، ص ٣٥

(٣) خطط المقرئى ، ج ١ ، ص ٢١١

فقدموا أرض مصر في خلافة المتوكل أعوام نيف وأربعين ومائتين في عدد كثير ، وانتشروا في البلاد فنزل طائفة منهم بأعلى الصعيد وسكنوا بيوت الشعرفي برارها الجنوبية وأوديتها ، وكانت قبائل البجة تشن الغارات على القرى الشرقية في كل حين ، وخرّبوا كثيراً من أملاك الأهالي ، فقام الربيعون في منعهم حتى كفوهم ، ولم يلبثوا أن تزوجوا منهم وصارت لهم مرافق في بلاد البجة واستولوا على مناجم الذهب بها فكثرت بذلك أموالهم^(١) . وانتقلت بطون من قریش إلى الأشمونين وكان بينهم بنو جعفر بن أبي طالب المعروف بالطيار ، وبنو مسلمة بن عبد الملك بن مروان وتحالفوا جميعاً وعاشوا سالمين ، والجعافرة اليوم ينسبون إلى جعفر هذا .

ويقول المقرئزي « وجهينة أكثر عرب مصر^(٢) » وهؤلاء كانوا يسكنون حول أسيوط وما بعدها ، ووقع بينهم وبين بطون بلي واقع أدى إلى دوام الفتنة بينهما . وفي الفيوم نزل بنو كلاب^(٣) ومن منية غمر إلى زفيتا سكن سعود جذام ، وأكثرهم مشايخ البلاد وخفراؤها ولهم مزارع وفسادهم كثير^(٤) .

وانتقلت طوائف من فزارة إلى الغربية وقلوب^(٥) . وفي الدقهلية سكن عرب ينتسبون إلى قریش^(٦) . وسكن حول تيس ودمياط قوم

(١) البيان والاعراب للمقرئزي ، ص ٤٨

(٢) البيان والاعراب للمقرئزي ، ص ٣٨

(٣) البيان والاعراب للمقرئزي ، ص ٣٦

(٤) البيان والاعراب للمقرئزي ، ص ٣١

(٥) البيان والاعراب للمقرئزي ، ص ٦٢

(٦) البيان والاعراب للمقرئزي ، ص ٦٢

ينتسبون إلى نصر بن معاوية وهم من هوازن ، وكان لهم شوكة شديدة بأرض مصر ، وكثروا حتى ملأوا أسفل الأرض وغلبوا عليها حتى قويت عليهم قبيلة من البربر تعرف بلوامة تزعم أنها من قيس فأجلت بنى نصر وأسكنتها الجدار ، فصاروا أهل قرى في مكان عرف بهم وسط النيل وهي جزيرة بنى نصر^(١) . ثم تعاقب على مصر طوائف من العرب في العصور التي تلت عصرنا الذي نؤرخه ولعل أكثرها ما كان في القرن الخامس الهجري ، إذ أرسل الوزير الناصر اليازورى عام اثنين وأربعين وأربعمائة فاستدعى سنابس من فلسطين وأقطعهم البحيرة التي كانت منازل بنى قره ، فعظم أمرهم أيام الفاطميين ولسكنهم تفرقوا في الغربية وذلوا بعد واقعة ديروط عام إحدى وخمسين وستمائة أيام عز الدين التركمانى ، وكان يجاورهم فرقة من كنانة بن خزيمه وفرقة من بنى عدى بن كعب رهط عمر بن الخطاب ، ونزل العمريون في البرلس والسكنانيون بقرب دمياط .

مما تقدم نستطيع أن نقول إن أكثر عرب مصر من اليمنيين وقد اختطوا دورهم في الفسطاط وغيرها ، ورابط بعضهم في المدن الكبيرة التي هي ثغور مصر والتي كان يخشى عليها من مهاجمة الأعداء . وكان بمصر عدة من الثغور المعدة للرباط في سبيل الله تعالى وهي البراس ورشيد والاسكندرية وذات الحمام والبحيرة واخنا ودمياط وشطا وتيس والاشتوم والفرما والواردة والعريش واسوان وقوص والواحات ، فيغزى من هذه الثغور الروم والفرننج والبربر والنوبة والحبشة والسودان^(٢) . كما كان لبعض

(١) خطط المبريزى ، ج ١ ، ص ٣٦٥

(٢) خطط المبريزى ، ج ١ ، ص ٤٣

العرب أقطاعات بمصر كالذى قيل إن عمر بن الخطاب أقطع ابن سندر
منية الأصبع فحاز منها لنفسه ألف فدان ، فلم تزل له حتى مات ،
فاشترها الأصبع بن عبدالعزيز بن مروان (١)

وكان للعرب أيام خاصة فى الربيع ينتقلون فيها من مراتبهم يجوسون
خلال قرى الريف ، فقد جاء فى خطبة لعمر بن العاص و حتى لكم
على بركة الله إلى ريفكم فنالوا من خيرها ولبنه وخرافه وصيده ، وأربعوا
خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها ، فانها جنتكم من عدوكم وبها
مغانمكم وأنفالكم ، واستوصوا بمن جاورتوه من القبط خيرا
— إلى أن قال — فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم ، فاذا يديس العود وسخن
العمود وكثر الذباب وحمض اللبن وانقطع الورد من الشجر فحى إلى
فسطاطكم على بركة الله (٢) ،

فان صح نسبة هذا القول إلى عمرو فاننا نتبين أن العرب كانوا
يخرجون من رباطهم ، ويتصلون بالمصريين فى قراهم ومدنهم ، ويتحادثون
اليهم ويتساومون ، فمن المصريين من أعجب بالعرب ودينهم فاعتنقه ،
ومنهم من اضطر إلى اعتناقه اضطرارا لعجزه عن دفع الجزية ، أو لأغراض
أخرى . وكان عمرو يعين القرى التى تذهب اليها كل قبيلة فكان
يكتب لكل قوم بريعهم ولبنهم إلى حيث أحبوا (٣) . إذن فى ابتداء
الفتح كانت إقامة العرب فى الفسطاط والثغور ، ولم يكن لهم مقام بالقرى ،
وكان القبط متمكنين فى بلادهم لا يتدخل فى شئونهم عربى ، على أن

(١) خطط القريزى ، ج ١ ، ص ١٥٥

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٧٣

(٣) الخطط ج ٤ ص ٢٨

المسلمين في المائة الثانية انتشروا في قرى مصر ونواحيها ، وما برح القبط يشورون على المسلمين ، إلى أن جاء المأمون سنة سبع عشرة ومائتين فأسرف في تأديبهم حتى أخضعهم له ، وغلب العرب على أماكن المصريين في القرى ، وحولوا بعض الكنائس إلى مساجد ، فاضطر المصريون إلى أن يتعلموا لغة الفاتحين ، وإلى أن يتعنى أكثرهم دين الإسلام ولما كثرت عدد العرب بمصر طمعوا في ازدياد ثروتهم ، فعمدوا إلى الزراعة والتجارة ، حتى إذا كان أيام المعتصم فأمر بإسقاط جميع العرب من الديوان ، فاضطر عرب مصر إلى أن يجتهدوا في جمع المال وصاروا كالمصريين سواء بسواء ، وزاد اختلاط العرب بالمصريين وتزوج العرب من نساء مصريات ، فلم يمض إلا زمن قليل حتى رأينا في مصر شعبا اسلاميا عربيا ، (١) وقد دفعهم تعصبهم للإسلام إلى الثورة لبناء كنيسة ، فقد قيل إنه في سنة ست وعشرين وثلاثمائة هدمت قطعة من كنيسة أبي شنودة فبذل النصارى للاخشيد مالا ليطاق عمارتها ، فلم يقبل إلا بعد استفتاء الفقهاء ، فأقتى أحدهم وهو محمد بن علي بأن لهم أن يرموها ويعمروها ، وعرف ذلك عنه فحملت الرعية إلى داره النار وأرادوا قتله فاستتر وندم على فتياه (٢)

Lane Poole : History of Egypt in the Middle Ages p. 15. (١)

(٢) المغرب لابن سعيد ، ص ٣٢

٣ - الصراع بين اللغات

اليونانية - القبطية - العربية

انتشرت اللغة اليونانية في مصر منذ أيام البطالسة فكانت الدروس تلقى بها في المدارس^(١) ولكن الشعب المصري كان منصرفا بعض الشيء عن هذه الدروس اليونانية، وأحجم كثير من المصريين لا سيما سكان الوجه القبلي عن تلقي هذه اللغة الأجنبية، فلم تنتشر اليونانية في الصعيد أو في القرى المصرية بمقدار انتشارها في الوجه البحري أو المدن الكبرى. وفي عهد الرومان استمرت اللغة اليونانية اللغة الرسمية في مصر. وقد ذكرنا كيف كان الوالي الروماني يصدر نشرات للمصريين باللغة اليونانية يصف فيها حكمه للبلاد، وكيف كان الولاة يفخمون ويعظمون بلقب يوناني يضاف إلى أسمائهم^(٢) فكانت اللغة اليونانية هي لغة الثقافة والحكم، بينما احتفظت اللغة المصرية بمكانتها بين الشعب فلم تغلب اليونانية عليها حتى أن القس أورجانوس Origen قال « إذا أراد يوناني أن يعلم المصريين شيئا من القانون فخير له أن يتعلم لغة المصريين حتى يستطيع أن يتفاهم معهم، أما إذا خاطبهم باليونانية فلا فائدة من حديثه، مما يدل على أن اللغة اليونانية لم تكن منتشرة بين جميع المصريين. فبينما كان القديس بولس يجيد اللغتين اليونانية والمصرية

Quatremère : Recherches sur la Langue et la Litterature de (١)
l'Egypte P. 5.

(٢) تاريخ الأمة القبطية، ص ١٢٤

كان القديس أنطونيوس لا يعرف غير اللغة المصرية وبها كتب كل أبحاثه الدينية . ولما وفد افرام (فم الذهب) إلى مصر لزيارة الانبا بشوا Anba Bishoi لم يستطع الرجلان أن يتفاهما إلا بمساعدة مترجم لأن كلا منهما لم يعرف إلا لغة بلاده (١) .

ونجد اللغتين اليونانية والمصرية منقوشتين على بعض الأحجار ومكتوبتين على أوراق الردى ، ويرجع تاريخ هذه الأحجار وتلك الأوراق إلى العصر الرومانى مما يثبت أن اللغة اليونانية كانت تسير مع اللغة المصرية وما يؤيد ذلك أيضاً أن التعاليم الدينية التى كانت تلقى فى الكنائس أو تنشر بين الناس كانت تقرأ أولاً باللغة اليونانية ثم تشرح باللغة المصرية ؛ وأهل الصعيد أنفسهم الذين كانوا بعيدين عن مصدر اللغة اليونانية كانوا يرتلون صلواتهم باللغة اليونانية بينما كانوا يتحدثون المصرية .

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن اللغة اليونانية كان لها أثرها فى مصر ، ونلمح أثر هذه اللغة فى اللغة المصرية نفسها التى تعرف باللغة القبطية فالحروف القبطية هى نفس الحروف اليونانية تقريباً ونجد كثيراً من الألفاظ اليونانية دخيلة فى اللغة القبطية .

أما اللغة القبطية فلم تكن لهجة واحدة بل اختلفت لهجاتها باختلاف الأقاليم المصرية . نقل كاترمير عن اثناس بطريق قوص وتعلم أن اللغة القبطية مقسومة إلى ثلاثة أقلام منها القبطى المصرى الذى هو الصعيدى ومنها القبطى البحرى المعروف بالبحيرة والقبطى

Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt V. 2. p. 251. (١)

الأشموقي المستعمل ببلاد الأشمونيين — كما تعلم — وإنما المستعمل الآن القبطي البحيري والقبطي الصعيدى والأصل فيها لغة واحدة^(١)، نلمح من هذه الجملة أن اللهجة الصعيدية هي أقل اللهجات القبطية تأثراً باللغة اليونانية لبعدها عن مراكز اللغة اليونانية وأنها أقرب اللهجات إلى اللغة المصرية القديمة حتى عبر عنها بالقبطى المصرى، أما اللهجة البحريرية فهي لهجة الوجه البحرى وهي أكثر اللهجات تأثراً باليونانية لقربها من بلاد اليونان ومن الاسكندرية حيث الجامعة ومقر الحكم ولا ندرى شيئاً عن اللهجة الاشمونية .

ولما شعر المصريون بالاضطهاد الدينى اشتد كره المصريين لكل ما هو أجنبي، ونظروا الى الأجانب نظرتهم إلى عنصر من عناصر الوثنية فمنع المصريون اللغة اليونانية من الكنائس واستبدلوها باللغة القبطية^(٢) وكان ذلك فى القرن السادس الميلادى، ولكن اللغة اليونانية ظلت مستعملة متداولة فى الكنيسة الملكانية، أما الكنيسة اليعقوبية المصرية فقد أمرت بتحريم اللغة اليونانية فأضعف ذلك من شأن اللغة اليونانية بعض الشيء .

وبينا كانت الكنيسة اليعقوبية فى خصام عنيف مع الكنيسة الملكانية تغير نظام العالم السياسى فجأة وأصاب مصر ما أصاب كثيراً من البلدان الأخرى؛ فقد خرج العرب من بلادهم لغزو فارس والشام ومصر فوقفت الطائفة اليعقوبية تساعد المسلمين وتؤازرهم ضد الرومان

Quatremère : p. 20. (١)

(٢) تاريخ الأمة القبطية، ج ٢، ص ٨٨

وقد أراد المصريون بمساعدة العرب أن يتخلصوا من أعدائهم الرومانيين، وأن يحجوا من البلاد الكنيسة الرومانية، فهدم المصريون كنائس خصومهم وحاولوا منع استعمال اللغة اليونانية بمصر ولكنهم لم يبلغوا مرادهم .

شعر المصريون في أوائل الحكم العربي بشيء من الحرية التي طالما تمنوها وعملوا من أجلها وظهرت هذه الحرية في استخدامهم في الأعمال الحكومية التي كانوا يعيدون عنها، وهنا أرى أن أشير إلى موضوع تحدث عنه مؤرخو العرب القدماء والمحدثون، تلك هي مسألة نقل الدواوين من اللغات الأجنبية إلى العربية، فجميع من تحدثوا عن هذا الموضوع ذكروا أن الدواوين كانت تكتب في مصر باللغة القبطية وفي الشام باليونانية، من ذلك ما قاله الكندي « حتى إذا كانت ولاية عبد الله ابن عبد الملك بن مروان فأمر بالدواوين فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية، وصرّف عبد الله اشتماس عن الدواوين وجعل عليها ابن يربوع الفزاري من أهل حمص وذلك في سنة سبع وثمانين هجرية^(١) فالنص صريح هنا أن اللغة القبطية كانت لغة الدواوين، وهذا يخالف ما ذكرناه سابقاً من أن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية؛ ثم إن المؤرخين قد اتفقوا على أن لغة الدواوين في الشام كانت اليونانية، ومصر والشام كانتا من أملاك الإمبراطورية البيزنطية فكيف تكون اللغة الرسمية في الشام تختلف عن اللغة الرسمية في مصر؟ وقد حفظت لنا أوراق من البردي يرجع تاريخها إلى عهد الوليد بن

(١) الولاية للكندي، ص ٥٨

عبد الملك كتبت باليونانية والعربية وهي وثائق صدرت من الوالى نفسه ، ونجد بعض الوثائق المحفوظة بدار الكتب المصرية قد كتبت باللغة اليونانية فقط ولا نجد بينها وثائق كتبت باللغة العربية والقبطية أو القبطية فقط^(١) مما يدل على أن لغة الدواوين فى مصر والشام كانت اليونانية وليست القبطية كما وهم مؤرخو العرب ، وقد يكون هذا الوهم نشأ من أن بعض موظفى الدواوين كان من الأقباط فظن المؤرخون أن اللغة القبطية كانت اللغة الرسمية فى البلاد .

ومهما يكن من شىء فان اللغة القبطية كانت لغة يؤلف بها الكتب فالمورخ يوحنا النيقوسى كتب تاريخه فى أيام ولاية عبد العزيز بن مروان بعضه باللغة اليونانية وبعضه الآخر بالقبطية^(٢)

بعد الفتح العربى كانت اللغة العربية فى أول الأمر فى حيز محدود فى مصر يتكلمها العرب ومن جاورهم من المصريين الذين اضطروا بحكم الجوار إلى أن يختلطوا بالفاتحين وأن يعرفوا لغتهم ، ثم أدخلت بعض الاصطلاحات العربية فى الدواوين ، فاضطر المصريون إلى أن يعرفوا لغة العرب تقرباً إليهم وتحقيقاً لمصالحهم ، فنرى التسييس بنيامين قد أجاد اللغة العربية حتى أنه شرح الإنجيل بالعربية للأصمغ بن عبد العزيز بن مروان^(٣) ، كما كان لا انتشار الدين الإسلامى فى مصر أثر كبير فى نشر اللغة العربية بين المصريين إذ اضطروا من أسلم منهم إلى أن يتعلم

(١) أوراق البردى للاستاذ جرومان طبع دارالكتب المصرية فى مواضع متفرقة

(٢) تاريخ الأمة القبطية ، ج ٢ ، ص ١٦٧

(٣) Quatremère : p. 23.

اللغة العربية حتى يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى أن يفهم دروس الفقه .

وقد ذكرنا أن العرب كانوا يخرجون من رباطهم في الربيع ويتصلون بالمصريين في الريف فكان ذلك من أسباب انتشار اللغة العربية بين الشعب ، حتى جاء الوقت الذي ترك فيه المصريون اللغة القبطية وأهملوا شأنها حتى في مسائلهم الشخصية واتبعوا المسلمين في كل شيء ، وها هي أوراق البردي التي حفظت في دار الكتب المصرية وغيرها من المكتبات والمتاحف تؤيد ذلك فمثلاً نجد في القطعة رقم ١١ التي ذكرها الأستاذ جروهمان في كتابه نرى عقد بيع بين مصرية ومسلم كتب باللغة العربية ووجد فيه ثلاثة أسطر باللغة القبطية هي شهادة بعض المصريين على هذا العقد ، كما نلاحظ على هذا العقد أن الكتّاب استعمل بعض اصطلاحات مصرية خالصة ، فالمصريون هم الذين يحدون الجهات بالبحرى والقبلى^(١) مما يدل على تأثر اللغة العربية بالاصطلاحات المصرية . ثم يدلنا على ضعف اللغة القبطية وسيرها في طريق الاضمحلال أن القديس شنودة كتب مؤلفاته باللغة القبطية واللهجة الصعيدية - ثم اضطر إلى أن يكتبها مرة أخرى باللغة العربية حتى يتسنى الأقباط أن يقرأوها ، وبعد أن كانت مراسم الكنيسة تقرأ باليونانية وتشرح بالقبطية ثم صارت بالقبطية فقط قرأوها بالقبطية وشرحوها بالعربية وفي القرن العاشر

(١) يقول المفريزى في خطه ، ج ١ ، ص ٢٣ : إلا أن أهل مصر يستعملون في تحديد بدلا من الجهة الجنوبية لفظة القبلى فيقولون الحد القبلى ينتهى إلى كذا ، ولا يقولون الجنوبي وكذلك يقولون الحد البحرى ويريدون بالحد البحرى الحد الشمالى

الميلادى كان المصرى المنقف يفخر بأنه يعرف اللغة القبطية^(١) وحدث أنه فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ظهر نشاط غريب بين الأقباط إذ أرادوا أن يعتزوا بقوميتهم ويحافظوا على لغتهم فجمعوا الكتب القبطية فى دير القديس مكاريوس (St. Macarius) ولكن فشلت حركتهم فى القرن الحادى عشر لأن اللغة القبطية كانت تتفقر أمام اللغة العربية، وازداد الحاح الناس فى ترجمة الكتب الدينية من اللغة القبطية إلى اللغة العربية^(٢) وبعد القرن العاشر الميلادى كان رجال الدين المسيحى يقرأون صلواتهم باللغة القبطية بينما كانت كتبهم الدينية باللغة العربية، وفى زيارة المسعودى لمصر سأل كثير من المصريين عن معنى كلمة فرعون فى لغتهم فلم يظفر بجواب. ومع ذلك كله فإننا نجد اللغة القبطية كانت معروفة فى مصر إلى عهد قريب فالمقرئى ذكر فى خططه « ودرنكه أهلها من النصارى يعرفون اللغة القبطية فيتحدث صغيرهم وكبيرهم بها ويفسرونها بالعربية^(٣) » وقال فى موضع آخر « ودير مواس خارج أسيوط من قبلها بنى على اسم توما الرسول والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطية البحرية ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية^(٤) » ونستطيع أن نقول إن كثيراً من العرب عرفوا اللغة القبطية

Quatremère : p. 39. (١)

Hugh : The Monasteries of Wadi'n Natrûn (New Yourk) (٢)

V. I. p. 26.

(٣) المقرئى ، ج ٤ ، ص ٤٣٦

(٤) المقرئى ، ج ٤ ، ص ١١٧

وتخاطبوا بها فقد قيل إن البطريق يوسف عند ما حوكم سنة ٨٥٠ م
خاطب رعيته باللغة القبطية بحضور عدد كبير من العرب ، وفهم العرب
كل ما قاله وحدثوا به القاضي^(١) . وذكر ابن حجر في أخبار القاضي
خير بن نعيم « وكان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطبهم بها ، وكذلك
شهادة الشهود منهم ويحكم بشهادتهم » ،^(٢) وقال الكندي في خبر
خروج العلويين بالفسطاط سنة ١٤٥ هـ إن ابن حديج وقف على الباب
الذي ناحية بيت المال فكلم خالد بن سعيد وهو فوق ظهر المسجد
كلمة قبطية^(٣) . فهذا كله يدلنا على أن بعض العرب بمصر تعلموا اللغة
القبطية وتخاطبوا بها .

والآن إذا فحصنا اللغة التي يتحدث بها المصريون فإننا نجد بها كثيراً
من الألفاظ القبطية فلفظ « كان ماني » و« شونة » و« أرض شراقي »
و« أردب » وغيرها هذه كلها ليست عربية بل هي مصرية وكان
القدماء يستعملون كلمة « القباطى » وهي نوع من النسيج كان يرسل من
مصر إلى بلاد العرب ، واستعمل الكندي كلمة مواجيز بمعنى أما كن
فقال « كانت مواجيز مصر يعمرها أهل الديوان »^(٤) ، واستعمل ابن
الداية لفظ « تليس » بمعنى الحقيمة الكبيرة^(٥) ، ولا يزال المصريون
يستعملون هذه الكلمة بنفس المعنى القديم . ويسمى المصريون الى

(١) كاترمير ص ٣٤ ، وبتلر في كتابه تاريخ الكنيسة القبطية ص ٢٥١

(٢) رفع الإصر عن قضاة مصر نسخة خطية بدار السكتب المصرية

(٣) الولاية والقضاة ، ص ١١٣

(٤) شرحه ، ص ٤١٨

(٥) المكافأة لابن الداية ، ص ٨٢

الآن الرياح الجنوبية بريح المريس و « إم ريس » بالقبطية معناها
جهة الجنوب .

ونجد اختلافاً في اللهجات المصرية فلهجة الصعيد تختلف عن
لهجة أهل القاهرة ، ولهجة أهل مديرية الشرقية غير لهجة أهل رشيد أو
أهل الاسكندرية ، وقد علل الدكتور جورجى بك صبحى ذلك بأن
اختلاف اللهجات الآن في جهات مصر المختلفة كان بتأثر هذه الجهات
باللهجة المصرية القديمة (١) . وقد يكون هذا السبب صحيحاً وليكني
أستطيع أن أضيف إلى ذلك أسباباً أخرى منها اختلاف اللهجات
العربية التى أتى بها العرب ، ثم تأثر المصريين فى عصورهم المختلفة بالأمم
الأوروبية الأمر الذى جعل لهجات البلاد تختلف اختلافاً واضحاً .

(١) محاضرة الدكتور جورجى بك صبحى عن الثقافة القبطية بقاعة بورت فى

الباب الثاني

في الحياة العقلية

الفصل الأول

المدارس الدينية

« أصبحت مصر منذ دخول العرب إليها مركزاً علمياً في المملكة الإسلامية كما هي مركز سياسي ، (١) ، وقد ذكرنا كيف كان العرب الذين وفدوا على مصر في شبه معزل عن المصريين وعلومهم ، ولذلك لم يهتم عرب مصر في القرن الأول إلا بالدين الإسلامي ، فاتخذوا من جامع القسطنطينية مكاناً للدروس والمناقشات الدينية ، ولسنا في معرض الحديث عن هذه العلوم التي كانت تلقى في مسجد القسطنطينية ، ولكننا مضطرون إلى الإلمام بها ، لأن دراسة الآداب تضطرنا إلى تتبع تطور الحياة العقلية ، ورتقى النثر الفني لا يتأتى إلا من هذه الدراسات العميقة ، والمناقشات العلمية العنيفة ، التي تقوم على جهد في الفكر وذخيرة من العلم ، كما أن ألوان الحياة العقلية وأنواع العلوم التي كانت تدرس تعيننا على معرفة نوع هذه الكتابات المختلفة وفنون الشعر وتطورها جيلاً بعد جيل .

(١) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ٢٢٨ (الطبعة الأولى)

علم القراءات

ففى مسجد القسطنطينية ، نرى أول ما درس به كانت علوم الدين من تفسير للقرآن الكريم، ورواية قراءاته، ورواية الحديث الشريف، وكان للصحابة الذين شهدوا فتح مصر أثر بارز فى هذه العلوم الدينية، إذ هم الذين تولوا أمر التدريس فى المسجد الجامع ، وأول من أقرأ القرآن بمصر هو أبو أمية عبيد بن مخمر المغافرى (١)، وكل القراءات بمصر رواية عن نافع ، نقلها عنه إلى مصر عثمان بن سعيد المصرى المعروف بورش وكان مصريا صميا فهو عثمان بن سعيد بن عدى بن غزوان بن داود بن سابق ، كان أصل أجداده من الأقباط ، ثم اعتنقوا الدين الإسلامى . ولد ورش بمصر سنة ١١٠ هـ ، واشتغل بقراءة القرآن وتعلم العربية ، ورحل إلى المدينة فقرأ بها على نافع سنة ١٥٥ هـ (٢) ، ثم عاد إلى مصر ، وإليه انتهت رئاسة الإقراء فيها وتوفى سنة ١٩٧ هـ (٣) وساعده فى نقل رواية نافع زميل له معاصر ، هو سقلاب بن شينة أبو سعيد المصرى (٤) ، ولكن المقرئى قال إن أباميسرة عبد الرحمن ابن ميسره مولى الملامس الحضرمى كان أول الناس إقراء بمصر بحرف نافع قبل الحسين ومائة من الهجرة ، وتوفى سنة ثمان وثمانين ومائة من الهجرة ، ولكن المعروف أن أثر ورش فى القراءة أقوى من أثر أى مقرئ آخر . ويحدثنا السيوطى أن عمر بن عبد العزيز أرسل نافعا

(١) خطط المقرئى ، ج ٤ ، ص ١٤٣

(٢) معجم الأدياء ، ج ٥ ، ص ٣٣

(٣) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٧٧

(٤) شرحه

إلى مصر ليعلم المصريين ، فأقام نافع بمصر مدة طويلة^(١). ومهما يكن من شيء فإن مدرسة نافع قد قوى أمرها في مصر، وتعدد تلاميذ ورش ، فمنهم أبو يعقوب الأزرق يوسف بن عمرو بن يسار المصري الذي لزم ورشا مدة طويلة ، وأتقن عنه الأداء ، وخلفه في الإقراء ، ولكنه انفرد عن ورش بتغليظ اللام وترقيق الراء ، وكان له أثر كبير في مصر والمغرب ، حتى أن المصريين والبربر ما كانوا يعرفون إذذاك غير ورش وأبي يعقوب هذا^(٢) ، وقد توفي أبو يعقوب حوالي سنة أربعين ومائتين من الهجرة .

وأخذ الأندلسيون قراءة نافع عن عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم المصري المتوفى سنة إحدى وثلاثين ومائتين هجرية^(٣) .

من ذلك كله نستطيع أن ندرك أن المصريين كان لهم أثر واضح في القراءات ، وعن المصريين أخذ القراء في الأندلس والمغرب ، كما كان للمصريين رأى خاص يختلف بعض الشيء عن قراءة نافع ، كالذى ذكرناه عن قراءة أبي يعقوب المصري في تغليظ اللامات وترقيق الراءات .

الحديث :

وفي الحديث نجد الصحابة الذين وفدوا على مصر يكثر من روايته ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص أكثر الصحابة رواية

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٢

(٢) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٧٨

(٣) شرحه

للحديث ، فقد كان من نجباء الصحابة ، ومن المكثرين لروايته (١) ولأهل مصر عنه أكثر من مائة حديث (٢) ، فقد كان عبد الله يعرف الكتابة ، وكان يكتب كل ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستطاع بذلك أن يحفظ عدداً من الأحاديث كما سمعها من الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكثيراً ما كان يرجع إلى أوراقه عندما يسأل في أمر لا يستطيع أن يجيب عنه . روى ابن عبد الحكم أن عبد الله قال « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نكتب ما يقول لا أو نعم » (٣) كما كان لغيره من الصحابة أثر بارز في رواية الحديث وقد أفرد ابن عبد الحكم في آخر كتابه « فتوح مصر » فصلاً خاصاً بالأحاديث النبوية التي رواها المصريون ، وكذلك نجد في كتاب السيوطي « در السجادة فيمن دخل مصر من الصحابة » ذكر هؤلاء الصحابة وما روه من الأحاديث ، واعتمد أصحاب الكتب الستة في الأحاديث على رواية كثير من المصريين ، فسعيد بن عفير ويحيى بن بكير وعبد الله بن صالح ، وغيرهم كانوا من شيوخ البخاري وكان أحمد ابن يونس ويحيى بن يحيى التميمي وغيرهما من شيوخ مسلم وأبي داود ولا داعي للإفاضة هنا عن كل المحدثين المصريين .

عبد الله بن وهب والمدرسة المالكية

ولكن لا بد أن نقف عند رجل مصرى يعد من أوائل جامعي الحديث ، ذلك هو عبد الله بن وهب المصري صاحب كتاب

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٢٤

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٧١

« الجامع في الحديث » . وقد عثر على معظم هذا الكتاب حديثاً في مدينة ادفو ، ويعتد من أقدم المخطوطات العربية في جميع مكاتب ومتاحف العالم ، إن لم يكن أقدمها جميعاً ، وهذه النسخة مكتوبة على ورق البردى الذي عرفت به مصر منذ القدم ، ويرجع تاريخ كتابتها إلى القرن الثالث الهجري . أما مؤلفه ، فهو أبو محمد عبد الله بن وهب ابن مسلم القرشي بالولاء (١) . وقد شهد ابن وهب هذا العصر الذي ابتدئ فيه تدوين الحديث والفقہ والتفسير ، فقد كان العلماء قبل ذلك العصر يتكلمون عما حفظوه ، وقد يدونون ما سمعوه في صحف مبعثرة متفرقة ولم تكن لهم كتابات مرتبة . ولكن جاء بعض الأئمة والمجتهدين ودونوا ما رأوه وما رووه ، فكتب مالك كتابه الموطأ بالمدينة وكتب الأوزاعي مذهبه بالشام ، وصنف ابن اسحق في المغازي ، وكتب ابن وهب في مصر كتابه « الجامع في الحديث » فهو بذلك من أول الذين جمعوا الحديث ، والغريب أن هذا الرجل على ما هو عليه من فضل وعلم ليس معروفاً عند كثير من المؤرخين والكتاب وذلك في أغلب الظن لأن « جامع » كان مفقوداً ، وقد يكون هذا الكتاب هو الأثر الوحيد الذي يدلنا على فضل هذا الرجل ، ولعل رأى العلماء والمؤرخين في هذا المحدث يتغير بعد أن كشف عن جز. من كتابه ، كما نرجو أن تعمل الهيئات العلمية على طبع هذا الكتاب .

ولد ابن وهب بمصر في ذى القعدة من سنة أربعين أو خمس وعشرين ومائة من الهجرة ، وكان كغيره من متعلمي هذا العصر ، يرحل في طلب

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٤٩

العلم إلى الحجاز والعراق، فوفد على المدينة سنة ثمان وأربعين ومائة هـ،
وهناك أخذ عن مالك، وما زال يقيم معه، حيناً، ويفترق حيناً آخر،
إلى أن توفي مالك سنة ١٩٧ هـ، ويقول ابن خلكان إن مالكا كان
يكتب إلى ابن وهب «إلى عبد الله بن وهب المقتى ولم يكن يفعل هذا
مع غيره»^(١)، فهذا يدل على أن مالكا كان يعترف بفضل ابن وهب
ومنزلة قلبه بالمقتى، ويروي ابن خلكان أيضاً قصة عنه فيقول
«كتب الخليفة أبو جعفر المنصور إلى عبد الله بن وهب في قضاء
مصر، فخبأ نفسه، ولزم بيته، فاطلع عليه أسد بن سعد وهو يتوضأ
في صحن داره، فقال له «ألا تخرج إلى الناس فتقضى بينهم بكتاب
الله وسنة رسوله» فرفع له رأسه، وقال «إلى هنا انتهى عقلك !! أما
علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء، وأن القضاة يحشرون مع
السلطين»^(٢). فإن صحت هذه الرواية فهي تحدثنا عن عقيدة ابن
وهب وإيمانه، وقيل إن سبب موته أنه قرىء عليه كتاب الأهوال
من «جامعه»، فأخذته شىء كالغشى، فحمل إلى داره، فلم يزل كذلك
إلى أن قضى نحبه، في شعبان سنة سبع وتسعين ومائة من الهجرة^(٣).

أخذ ابن وهب أكثر مادة كتابه عن مصدرين هما: مالك بن أنس
وعبد الله بن لهيعة المصري، وليس لنا أن نتحدث عن الإمام مالك لأنه
لم يكن مصرياً في شيء، وإن كان مذهبه قد دخل مصر وكثر تلاميذه
الذين كانوا يدرسون مذهبه في المسجد الجامع، وكان ابن وهب من

(١) ابن خلكان، ج ١، ص ٢٤٩

(٢) شرحه

(٣) شرحه

أجل تلاميذه في مصر ، وعنه أخذ كثير من المصريين ، حتى أن السيوطي حين عقد فصلاً عن كان بمصر من الفقهاء المالكية ، كان يذكر ابن وهب كأستاذ لمعظم هؤلاء الفقهاء ، مثل عبد الحكم بن عبد الله الذي كان أكبر أولاد ابن عبد الحكم وأفقهم ، وأجل أصحاب ابن وهب ^(١) ، ولم يكن ابن وهب وحده هو أستاذ المدرسة المالكية في مصر ، بل نجد كثيراً غيره ، أمثال : أشهب بن عبد العزيز العامري فقيه ديار مصر ، وكانت إليه الرياسة بها ، وبلغ من العلم درجة كبيرة ، حتى قال الشافعي « ما أخرجت مصر أفضه من أشهب لولا طيش فيه » ^(٢) ، وكان ثقة في روايته ، حتى قيل إن أشهب ما كان يزيد في سماعه حرفاً واحداً ^(٣) ، وكان أساس المدرسة المالكية هو رواية الموطأ وهذا الكتاب كغيره من الكتب الإسلامية التي ألفت في هذا العصر يقوم على الرواية ، ولكن ابن وهب لم يشأ أن يقبل الروايات كما هي في الموطأ ، بل كان يدقق في اختيار الأحاديث ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل المحدثين جميعاً يثقون به .

أما المصدر الثاني الذي أخذ عنه ابن وهب أكثر مادة كتابه ، فهو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الحضرمي الغافقي ^(٤) ولد سنة ست وتسعين هجرية من أصل عربي ، وكان والده لهيعة من مشاهير التابعين الذين رووا الحديث بمصر ^(٥) ، ونشأ ابنه عبد الله

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٥٤

(٢) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٦

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٧٥

(٤) أنظر النووي ، ج ١ ، ص ٣٦٤ والسمعاني ، ص ٤٠٥

(٥) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٤٥

محباً للحديث ، جامعاً له ، فكان يرحل في طلبه^(١) ، وكان ابن لهيعة يكنى
أبا خريطة ، وذلك أنه كانت له خريطة معلقة في عنقه ، فكان يدور
بمصر ، فكلما قدم قوم كان يدور عليهم ، فاذا رأى شيخاً سأله من لقيت
وعمن كتبت ؟^(٢) . وابن لهيعة هذا تلميذ يزيد بن أبي حبيب ، الذي
وصفه الليث بن سعد بقوله « هو سيدنا وعالمنا »^(٣) ، وقيل إن
يزيد هذا أول من أظهر العلم بمصر والمسائل في الحرام والحلال ،
وقبل ذلك كانوا يتحدثون في النرجيب والملاحم والفتن^(٤) ، لهذا كان
يزيد بن أبي حبيب أحد الثلاثة الذين جعل عمر بن عبد العزيز اليهم
الفتيا في مصر ، وهم جعفر بن ربيعة وهو عربي ، وعبد الله بن أبي
جعفر ، ويزيد بن أبي حبيب ، وهما من الموالي ، ولكن العرب أنفوا
أن تكون الفتيا إلى الموالي فأجابهم عمر بقوله « ما ذنبي إن كانت
الموالي تسمو بأنفسها صعدا ، وأنتم لا تسمون »^(٥) ، ولا تقف شهرة
يزيد بن أبي حبيب عند الفقه أو الحديث ، بل نراه من الذين اعتمد
عليهم عبد الرحمن بن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر ، والكندى في
كتابه الولاية والقضاة ، والطبري في تاريخه وغيرهم وذلك لكثرة علمه
بalfتن والحروب ، وخاصة ما يتعلق منها بمصر وشؤونها وحكامها ، كان
يزيد أستاذاً لابن لهيعة وأستاذاً عالم مصرى آخر هو الليث بن سعد ، ولكن

(١) تاريخ الاسلام للذهبي

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٧٥

(٣) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٣

(٤) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣٠٨

(٥) خطط القرظي ، ج ٤ ، ص ١٤٣

ابن لهيعة، اختلف عن أستاذه ابن أبي حبيب، وعن قرينه الليث، فلم يكن حذرا في قبول الروايات الكثيرة التي كانت تصل إليه، ولم يحتط في إسناد الأحاديث والأخبار إلى الثقة، لهذا قل من يثق بأحاديثه وأخباره، مع كثرة ما نقل عنه، يقول ابن خلكان: إن ابن لهيعة كان مكثرا من الحديث والأخبار والرواية، وكان يُقرأ عليه ما ليس من حديثه فيسكت، فقيل له في ذلك فقال: ما ذنب إنما يجيئونني بكتاب يقرؤنه عليّ ويقومون، ولو سألوني لأخبرتهم أنه ليس من حديثي^(١) وأظن أن هذا هو السبب الذي جعل ابن سعد يقول عنه: «إنه كان ضعيفا»^(٢) ومن يدري لعل هذا الرجل كان سببا في اختراع هذه الأخبار الكثيرة التي رواها ابن عبد الحكم والكندي وغيرهما، وأخذها عنهما غيرهما من المؤرخين، إذ أن أكثر ما ورد عن مصر مروى عن طريقه.

روى ابن وهب كثيرا عن ابن لهيعة، ولست أدري كيف يأخذ ابن وهب عنه، وهو الذي يدقق في كل رواية. فقد قيل إن ابن وهب روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ألف حديث ما جرح في حديث واحد^(٣).

أما زملاء ابن وهب في نشر مذهب مالك بمصر فنستطيع أن نقول إن خاصة أصحاب مالك كانوا مصريين كابن القاسم وأشهب وعبد الله بن عبد الحكم.

(١) ابن خلكان، ج ١، ص ٢٤٩

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، ص ٢٠٤، طبعة ليدن سنة ١٣٣٨ هـ

(٣) الكواكب السائرة في ترتيب الزيارة لابن الزيات، ص ٤٥ (مطبعة بولاق

أما ابن القاسم فهو أبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم العتقى ينسب إلى جماعة العتقاء الذين وفدوا على مصر منذ الفتح، واختطوا بالفسطاط كما ذكرنا، ولد سنة ١٢٨ هـ وصحب مالكا وروى عنه مسائله كلها، وكان يقول: رجلان أقتدى بهما في ديني مالك بن أنس في العلم وسليمان في الورع^(١)، وكان يفرع على أصول مذهب مالك وصارت إليه رئاسة المالكية بمصر إلى أن توفي سنة ١٩١ هـ، وخلفه منافسه وزميله أشهب ابن عبد العزيز بن داود القيسي، تلقى العلم عن مالك والليث بن سعد والفضيل بن عياض^(٢)، وكان من أكثر الناس علما وجمالا، وقد وصفه ابن وهب بقوله: كان أشهب فقيها في علوم شتى، ما سئل عن شيء إلا أجاب^(٣)، وقال الشافعي: ما رأيت أفقه من أشهب لولا طيش فيه^(٤)، وكان ينافس ابن القاسم في رئاسة المالكية، حتى انتهت إليه بعد وفاة ابن القاسم، وقد انتصر لأشهب بعض المصريين أمثال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الذي كان يفضل أشهب على ابن القاسم وتوفي أشهب سنة ٣٠٤ من الهجرة^(٥).

ويروى السيوطي أن أول من أدخل مذهب مالك في مصر هو عثمان بن الحكم الجذامي المتوفى سنة ١٦٣ هـ.

(١) السكواك السيارة، ص ٣٩

(٢) الديباج لابن فرحون، ص ٩٨ (طبعة السعادة سنة ١٢٩٣)

(٣) السكواك السيارة، ص ٣٧

(٤) ابن خلكان، ج ١، ص ٧٨

(٥) حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٦٦

الليث بن سعد

وما دما نتحدث عن هؤلاء العلماء والفقهاء الذين كان لهم أثر في مصر ، لا بد لنا من وقفة قصيرة عند عالم مصرى شهيد له بالعلم والفقہ ، حتى قيل عنه إنه إمام أهل مصر في الفقه والحديث ، ذلك هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن : لم يكن عربياً أصيلاً في عروبته ، ولم يكن مصرياً عريقاً في مصريته ، بل كان فارسياً من أصبهان ، وكان مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي ، ولد الليث في قرية من قرى مصر هي قلعشندة ، ويقول الليث إن بعض أهله حدثوه أنه ولد سنة اثنتين وتسعين للهجرة ، ويوقن هو أن ولادته كانت سنة أربع وتسعين للهجرة ، ولكن السمعاني يقول إنه ولد سنة أربع وعشرين ومائة ، ويقول السيوطي إنه ولد سنة أربع وتسعين^(١) ويقول غيره إنه ولد سنة ثلاث وتسعين^(٢) ، نشأ بمصر وثقف على علمائها أمثال يزيد بن أبي حبيب ، وجعفر بن ربيعة وخير بن نعيم وغيرهم ، ثم لم يقنع بهذا كله ، فتراه يطوف ببعض البلدان طلباً للعلم ، فذهب إلى مكة للحج سنة ثلاث عشرة ومائة ، وهناك أخذ عن نافع مولى عبد الله بن عمر وعطاء بن أبي رباح وهشام بن عروة وقتادة وغيرهم ، وزار بيت المقدس سنة تسع وثلاثين ومائة هـ ، وزار بغداد سنة تسع وخمسين ومائة^(٣) ففي هذه الزيارات كلها قابل عدداً كبيراً

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٤

(٢) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٣٨

(٣) يراجع ما كتبه الأستاذ Guest في مقدمة كتاب الولاة للكندي عن الليث

من التابعين وأخذ عنهم الحديث ورووا عنه ، ونرى له شأنًا آخر من الناحية الفقهية فقد كان الليث فقيها مبرزًا ، حتى أن الشافعي كان يقول « الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به » (١) فهذا حكم إمام من أئمة الفقه لليث بن سعد ، كذلك نجد ابن خلسكان يروى أن ابن وهب كان يُقرأ عليه مسائل الليث ابن سعد فمرت به مسألة ، فقال رجل من الغرباء : أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب هو فقال ابن وهب للرجل : بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو ، والله الذي لا إله إلا هو ، ما رأينا أحدا قط أفقه من الليث (٢) ويروى السيوطي أن ابن بكير قال « ما رأيت أحدا أكمل من الليث ، كان فقيه النفس ، عربي اللسان ، يحسن القرآن والنحو ، ويحفظ الحديث (٣) والشعر ، حسن المذاكرة (٤) وقال سعيد بن أيوب : لو أن مالكا والليث اجتمعا كان مالك عند الليث شبه أبكم ولباع الليث مالكا فيمن يريد (٥) وكان مالك يقول : حدثني من أرضي من أهل العلم يريد به الليث (٦) ومن تلاميذ الليث : عبد الله بن المبارك وأبو النضر هاشم بن القاسم ويونس بن محمد المؤدب وعبد الله بن وهب وأشهب وأكثر هؤلاء ، من شيوخ ابن حنبل . وسعيد

(١) ابن خلسكان ، ج ١ ، ص ٤٣٨

(٢) شرحه

(٣) في السكواكب السيارة في ترتيب الزيارة (يحسن القرآن والفقه والنحو

والطب والشعر)

(٤) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٤

(٥) كتاب الرحمة الغيبية للعسقلاني ص ٦ (طبع بولاق سنة ١٣٠١ هـ)

(٦) شرحه ص ٨

ابن عفير وعبد الله بن صالح كاتب الليث وعبد الله بن يونس التنيسي
وقد روى البخاري عن أكثرهم ، كما أخذ عنه قتيبة بن سعد
من هذا كله نستطيع أن نعرف مكانة الليث بن سعد في نفوس
المصريين المعاصرين له ، حتى قيل إن القاضي والوالي كانا من تحت
أمره ومشورته ، لا يقطعان أمرا إلا بعد أن يرى هو فيه ربه (١) ،
واضطر أحد الشعراء من خصوم الليث إلى أن يرسل إلى الخليفة أبي
جعفر المنصور يقول :

عبد الله عبد الله عندي نصائح حكمتها في السر وحدي
أمير المؤمنين تلاف مصرا فإن أميرها ليث بن سعد
وكان الليث ثريا كريما ، ومع فقهه وتدينه كان يأخذ بنصيبه في
الحياة الدنيا التي لم يحرمها الله ، وقد كتب مالك إليه يقول « بلغني أنك
تأكل الرقاق ، وتلبس الرقاق ، وتمشي في الأسواق ، فأجابه الليث بن
سعد « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق
الح الآية » (٢) وقيل إن مالكا أهدى إليه صيدية فيها تمر ، فأعادها مملوءة
ذهبا . . . كما كان يتخذ لأصحابه الفالودج ويعمل فيها الدنانير فمن أكل
أكثر من صاحبه ناله دنانير أكثر (٣)

كان الليث على حظ كبير من المال ، وقسط وافر من العلم ، وكان
يساجل مالكا بالمراسلة ، ويأخذ عليه أمورا لا يراها هو ، وقد عثرنا
على إحدى هذه الخطابات التي أرسلها الليث إلى مالك مدونة في كتاب

(١) النجوم ، ج ٢ ، ص ٨٢

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٨٢

(٣) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٣٨

«اعلام الموقعين» لابن قيم الجوزية، وفي هذه الرسالة نرى بعض المسائل الفقهية التي لا تعيننا في بحثنا هذا، ولكننا نستطيع أن نتخذ هذه الرسالة مثلاً للكتابة الدينية في هذا العصر.

تدلنا الرسالة على أن لغة التأليف التي كانت عربية ساذجة قد دخلها شيء من الصعوبة والتعقيد، ليس معنى هذا أن اللغة أصابها الفساد، بل خرجت عن سهولتها الأولى، وصارت لغة تأليف على بعد أن كانت لغة مخاطبة وحديث، واللغة لا بد لها من تغيير حتى تحتل هذا التجديد الذي طرأ على العقلية العربية، من ذلك كله نجد شيئاً من الغرابة في هذه الكتب العلمية والدينية. ونجد ضعفاً في تأليفها، ولكن عربيتها صحيحة في الغالب، فلم يبق إلا أن المؤلفين لم يتمكنوا من تأدية المعنى الذي قصدوا إليه في قالب عربي صحيح إلا بمشقة وجهد، ولهذا لا تستطيع أن تفهم هذه المتون الدينية التي كتبها المؤلفون في هذا العصر وما بعده إلا بعد شرح أو إطالة نظر. لم يشأ الليث في رسالته هذه أن ينمق كتاباته أو يزخر فيها بالزينة اللفظية، لأن هذه الألوان من الزينة لم تكن قد انتشرت بعد، لهذا استعمل الأسلوب العربي القديم الذي نراه في كتب الحديث وغيرها، والذي نجده في رسائل صدر الإسلام. فهو يبدأ بالسلام وحمد الله على طريقة المتقدمين ثم يدعو الله للمخاطب ولنفسه وبعد هذا كله يتعرض لموضوع الرسالة.

«سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو (بعد) عافانا الله وإياك وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة، قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني، فأدام الله ذلك بكم، وأتمه

بالعون على شكره ، والزيادة من إحسانه ، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثتُ بها إليك ، وإقامتك إياها ، وختمك عليها بخاتمك ، وقد أتتنا فجزاك الله عما قدمت منها خيرا ، فإنها كتب انتهت إلينا عنك ، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها ، وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة ، ورجوت أن يكون لها عندي موضع وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلا ، إلا أني لم أذكرك مثل هذا ، وأنه بلغك أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وإني يحق عليّ الخوف على نفسي ، لاعتماد من قبلي على ما أفتيتهم به ، وأن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن ، وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع مني بالموقع الذي تحب ، وما أجد أحداً ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه مني ، والحمد لله رب العالمين لاشريك له ،

ثم نراه بعد ذلك يحدثه في أمور فقهية خالصة ، ويفتي له فيها . ومن هذا الخطاب يظهر لنا أثر ثقافة الليث ، فهي ثقافة عربية خالصة ، وثقافة دينية إسلامية تمثلها هذه المسائل الفقهية التي يتحدث عنها ، ثم إننا لا نجد أثرا لهذه الجمل المسجوعة ، ولا التكرار والحشو ، ولا ذلك الاطناب الذي نراه في الرسائل التي تكلف أصحابها الزينة البديعة فهذا خطاب ديني كتب بأسلوب علمي ، هو هذا الأسلوب الذي نراه في كتب الفقه . ثم نراه يحتم خطابه بالدعاء للملك ، والسؤال عنه وعن

آله وحاله ، وأنا أحب توفيق الله إياك ، وطول بقائك ، لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك ، مع استثناسي بمكانك ، وإن نأت الدار ، فهذه منزلتك عندي ورأيي فيك فاستيقنه ، ولا تترك الكتاب إلى بخبرك ، وحالك ، وحال ولدك وأهلك ، وحاجة إن كانت لك ، أو لأحد يصل لك ، فأني أسر بذلك . كتبتُ إليك ونحن صالحون معافون ، والحمد لله ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا ، وتمام ما أنعم به علينا ، والسلام عليكم ورحمة الله ،^(١)

هذا هو إمام مصر الذي أسف الشافعي على فوات لقيته^(٢) ، ولو كان تلاميذ هذا الإمام عنوا بعلمه وفقهه لكان له شأن آخر غير هذا الشأن ، ولما أهمله الفقهاء وعلماء المسلمين لاسيما هؤلاء المصريين الذين كان لهم أن يفخروا بعالمهم ، ويحتفظوا بعلمه ، ولكن كانت المالكية مستأثرة بنفوس المصريين أو كما قال الليث « إن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة » ثم إن الليث لم يصنف من الكتب كغيره من الفقهاء ، ولم يدون أصحابه المسائل عنه ولهذا قال الشافعي ضيعه أصحابه^(٣)

ومن أكبر تلاميذ الليث بن سعد ، إسحق بن الفرات صاحب مالك وقاضى مصر والذي قال الشافعي عنه « ما رأيت بمصر أعلم منه

(١) نرى هذا الخطاب في كتاب اعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ، ج ٣ ، ص ٨٢

(طبع فرج الله زكى سنة ١٣٢٥ هـ)

(٢) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٣٨

(٣) الرحمة الفيئية للمسقلاني ص ٩

باختلاف الناس^(١) وقال ابن عُثَيْمِيَّة « ما رأيت ببلدكم أحدا يحسن العلم إلا ابن الفرات^(٢) » وتوفي سنة ٢٠٤ هـ . وكذلك إسحاق بن بكر بن مضر المصري وكان يجلس في حلقة الليث ويفتي بقوله وتوفي سنة ٢١٨ هـ^(٣) وأحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي وكان وكيل الليث ومحدثا عنه^(٤) . ونستطيع أن نقول إن أكثر فقهاء مصر الذين عاصروا الليث أمثال عبد الله بن وهب وعبد الله بن عبد الحكم وأولاده قد تفقهوا بالليث بن سعد ولكنهم كانوا يؤثرون مذهب مالك على مذهبه .

المدرسة الشافعية .

قويت المدرسة المالكية في مصر كما رأينا ، ولكن وفد الشافعي على مصر وأقام بها ، فاجتمع له المصريون ، ومنهم كثير من أنصار مالك مثل محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيره ، فانقسم المصريون بعد أن كادوا يجمعون على آراء مالك ، فلما وجد بعض وجوه المصريين اختلاف التعاليم الشافعية عن المالكية رموا الشافعي بأشياء كثيرة ، من ذلك ما يرويه ابن خلكان عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنه قال « كنت أتردد إلى الشافعي ، فاجتمع قوم من أصحابنا إلى أبي — وكان على مذهب الإمام مالك — فقالوا له يا أبا محمد ، إن محمدا ينقطع إلى هذا الرجل ، ويتردد إليه ، فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه فجعل يلاطفهم ، ويقول هو حدث ، ويجب النظر في اختلاف أقاويل

(١) حسن المحاضرة ، ص ١٦٦

(٢) الكندي ، ص ٣٩٣

(٣) حسن المحاضرة ، ص ١٦٧

(٤) الكواكب السائرة ، ص ٨٣

الناس ومعرفة ذلك ، ويقول لى فى السر يابنى إلزم هذا الرجل (١) .
ويحدثنا الكندى أن عيسى بن المنكدر — الذى تولى قضاء مصر
من سنة ٢١٢ إلى سنة ٢١٤ هـ — كان يصيح بالشافعى ويقول له :
يا كذا دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد ، ورأينا واحد ، ففرقت بيننا
وألقيت بيننا الشر ! فرق الله بين روحك وجسمك ، (٢) ويحدثنا
ياقوت أن رجلا من أتباع مالك يسمى فتیان كان يناظر الشافعى كثيراً
فيظهر الشافعى عليه ، فضاق فتیان بذلك ، وشمم الشافعى شتماً قبيحاً ،
فلم يرد عليه الشافعى ، وتعصب قوم لفتیان ، فقصدوا حلقة الشافعى
حتى خلت من أصحابه ، وبقي وحده ، فهجموا عليه وضربوه ضرباً
مبرحاً ، فحمل إلى منزله ولم يزل فيه عليلاً حتى مات (٣) .

وهكذا انقسم المصريون بين فقه المالكية والشافعية ، واشتد
النزاع بين المدرستين ، حتى أدى الأمر إلى وقوع مناقشات عنيفة بل
إلى قتال أحياناً ، فقد جاء فى كتاب المغرب وفى سنة ٣٢٦ هـ عاد أصحاب
مالك والشافعى إلى القتال فى المسجد الجامع العتيق ، وكان فى الجامع
للمالكيين خمس عشرة حلقة ، وللشافعية مثلها ، ولأصحاب أبى حنيفة
ثلاث حلقة ، فلما زاد قتالهم أرسل الأخشيد ونزع حصرهم ومساندتهم
وأغلق الجامع ، وكان يفتح فى أوقات الصلوات ، ثم سئل الأخشيد
فيهم فردهم (٤) .

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٥٦

(٢) الكندى ، ص ٤٣٨

(٣) معجم الأدباء ، ج ٦ ، ص ٣٩٥

(٤) المغرب فى أخبار المغرب ، ج ٤ ، ص ٢٤

من ذلك نستطيع أن نقول إن المدرسة الشافعية استطاعت أن تنافس المدرسة المالكية بمصر ، وقد هيأت الشافعية جواً جديداً في العلم لم تعده مصر من قبل ، إذ استطاعت أن تناقش المذاهب الأخرى وأن تناظرها ، فابتدأت أذهان المصريين تنبه لهذه المجادلات العنيفة والمناظرات الشيقة . ونحن إذا قرأنا كتاب الرسالة الذي بين أيدينا وهو كما يقول المؤرخون مكتوب في مصر ، نجد الشافعي يستعمل فيه أحياناً طريقة المناظرة ، فيتخيل شخصاً يعارضه في تفسير نص أو فتوى ، فيجيبه ويفند آراءه حتى يلزمه الحجج ، ويقنعه برأيه ، وطريقة المناظرة هذه لم تعرف قبله في مصر ، ولم نجد لها أثراً قبل الشافعي ، بل هي من آثار دراسة الشافعي في العراق والحجاز ، حيث كثر المتكلمون وأصحاب المذاهب ، وتشعبت الآراء ، وكثر الجدل بين الطوائف الإسلامية وغيرها من المذاهب الدينية الأخرى ، كمناظرة الشافعي ومحمد بن الحسن الشيباني ، والشافعي وابن علي ، ونجد الخلفاء العباسيين ووزراءهم يحضرون هذه المناظرات و يقيمونها عندهم ، أما في مصر فقد رأينا كيف كاد المصريون يعتمقون مذهباً واحداً ، ولم تكن بمصر مناظرات كثيرة تشغل العلماء ورجال الدولة كما كان في العراق ، ونرى بعض أمراء مصر لا يحبون أن تقام مناظرات بين العلماء أمامهم ، فقد قيل إنه تنازع أبو بكر بن الحداد الفقيه وبكر بن محمد القاضي المالكي وعبدالله بن الوليد ، وجرى بينهم لغط كثير في حضرة الأخشيد ، فلما انصرفوا قال « يجرى هذا في مجلسي كدت والله أن آمر بأخذ عمائمهم »^(١) ، ومهما يكن من شيء فالشافعي هو الذي شجع روح

المناظرة العلمية في مصر ، فكان يناظر بعض المصريين ليستفيد من علمهم ، كالذي يرويهِ السيوطي أن الشافعي كان يقول للربيع بن سليمان ياربيع أدع لي سرجاً - يريد سرج الغول وهو رجل من أهل مصر عالم باللغة ولا يقول أحد شيئاً من الشعر إلا عرضه عليه - فيأتي به ، فيذاكره وينظره ، ثم يقوم سرج الغول فيقول الشافعي ياربيع ، نحتاج أن نستأنف طلب العلم^(١) . كما كان يناظر مخالفيه من الفقهاء ، كالذي يرويهِ صاحب تاريخ بغداد أن صالح بن أبي صالح كاتب الليث بن سعد قال : كنا مع الشافعي في مجلسه فجعل يتكلم في تثبيت خبر الواحد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فكتبناه وذهبنا به إلى إبراهيم بن إسماعيل المعروف بابن عليّة - وكان أحد المتكلمين ومن يقول بخلاق القرآن وكانت له مع الشافعي مناظرات ببغداد ، وكان مجلسه بمصر عند باب الضوال - فلما قرأنا عليه جعل يحتج لابطاله فكتبنا ما قال ابن عليّة ، وذهبنا به إلى الشافعي فنقضه الشافعي ، ثم كتبنا ما قال الشافعي ، وذهبنا به إلى ابن عليّة ، فجعل يحتج بابطال ما قال الشافعي فكتبناه ، ثم جئنا به إلى الشافعي فقال إن ابن عليّة ضال قد جلس عند باب الضوال يضل الناس^(٢) . وكان من أثر مناظرات الشافعي مع ابن عليّة أن وضع ابن عليّة وعيسى ابن أبان كتاباً عن الشافعي والرد عليه ، ورد عليهما داود بن علي الأصماني^(٣) ، وهكذا أخذ المصريون يؤلفون كتباً في المذاهب والدفاع عنها ، وأخذوا عن الشافعي طريقته في الكتابة العلمية إذ كان يأتي بالآية

(١) بغية الوعاة ، ص ٢٥٢

(٢) تاريخ بغداد ، ج ٦ ، ص ٢٠

(٣) شرحه ، ج ٦ ، ص ٢٢

أو الحديث ويشرحه ، ثم يستنبط منه ما ينتهي إليه رأيه ، وكان يختار من الألفاظ الجياد الدقيقة ما تلائم المعاني ، وجاء تلاميذ الشافعي فحولوا العبارة إلى نصوص علمية ، محذوفة السند ، كالي نراها في مختصر المزني مثلا ، فقد أخذ كلام الشافعي وفهمه وكتبه على طريقة أستاذه دون أن يأتي بالأسانيد ، فوجدت بذلك روح الكتابة عند المؤلفين المصريين .

وكان كتاب « الام » مثلا يحتديه رجال المدرسة الشافعية في كتاباتهم ، وهذا الكتاب ليس كتابا واحدا ، بل هو مقسم إلى عدة كتب ، وفي كل كتاب موضوع خاص . وكما قلت كان يأتي بالآية أو الحديث فيفسره ، ويعلق عليه بجمل قصيرة متينة التركيب والأسلوب ، وفي مقدمة الرسالة نجد الشافعي يبدأ قوله بالحمد ، ويكرر في ذلك ، وهذه الطريقة لبست مصرية ، بل هي طريقة عبد الحميد الكاتب ، واستعملها كتّاب العراق في رسائلهم المطولة ثم نراه بعد ذلك يستطرد في الموضوع الواحد ، فبينما هو يحمده الله يذكر آية أو نصا ويفسرها ، ثم يعود الى الحمد مرة أخرى ، ويكرره بالعطف ، وقد أكثر من الاستطراد وأطال ، ثم يصلي ويسلم على النبي في الديباجة ، وهذه الصلاة وذلك التسليم لم يوجد في الرسائل والكتب ، حتى جاء الرشيد فاستعمل ذلك في رسائله ، حتى عُدَّت من مناقب الرشيد وقد اتبعها الكتاب بعده .

والشافعي كان فصيحاً في تعبيراته وألفاظه ، فكان لذلك أثره في تلاميذه الذين أخذوا ما كتب ورووا عنه ما قال حتى اختلف الكتاب

أخيراً في كتاب «الأم»، وهو للشافعي أم للبويطي تلميذ الشافعي (١)، والذي أراه أن تلاميذ الشافعي رووا ما في الأم عنه، وجمع البويطي ما رواه عن الشافعي، وسماه الأم، فالشافعي نفسه — في أغلب الظن — لم يسم كتابه الأم، بل كان يميل على تلاميذه دروساً مقسمة إلى الكتب أو النصوص التي يتكون منها الأم فسمها البويطي الأم. كذلك كان الأمر في كتاب الأصول لأبي حنيفة، فإن أبا الحسن الشيباني هو الذي جمع ما في الأصول وسماه بهذا الاسم، ولكننا نلاحظ أن الشافعي كتب بعض فصول الأم بنفسه، وروى الربيع بعضها عنه وإذن فالشافعي هو صاحب الكتاب وتلاميذه هم الذين جمعوه ورتبوه حتى أخذ مظهره الحالي.

وكما أثر الشافعي في المصريين تأثيراً محسوساً، كذلك نراه يتأثر بالحياة المصرية نفسها، فالشافعي كان من مدرسة الحديث أي من تلاميذ مالك، وقد هاجم مدرسة الرأي — أي مذهب أبي حنيفة — أثناء زيارته للعراق، ولكننا نجد في مصر يهاجم مدرسة الحديث ممثلة في مذهب مالك، ويكون مذهبه الجديد في مصر. كذلك نراه قد كتب الرسالة مرتين كتبها أولاً في العراق، ثم أعاد كتابتها في مصر بعد أن غير فيها بعض التغييرات التي تلائم الحياة المصرية، وكذلك نقول عن مذهبه فقد كتبه مرتين، كتب في العراق مذهبه القديم، وكتب في مصر مذهبه الجديد، ويستطيع رجال الفقه أن يفرقوا بين المذهبين لو قدر للمذهب القديم البقاء.

(١) راجع بحث الدكتور زكي مبارك عن كتاب الأم (مطبعة حجازي بمصر

أما تلاميذ الشافعي الذين كان لهم الفضل في حفظ مذهبه ونشره فقد عددهم الحافظ السلفي في قصيدة نظمها هي (١).

فعليك يا من رام دين محمد
بالشافعي وما تلاه وقالوا

أعنى محمدا بن إدريس الذي
فاق البرية رتبة وكلا

وأجب كذا عن صحبه وأحبهم
وأجلهم لله جل جلالا

فأجلهم شيخ الأئمة أحمد (٢)
فيما رواه من الحديث وقالوا

والأعني (٣) ويونس الصدفي (٤) والـ
مزني (٥) آخر من إليه مالا

(١) السكواك السيارا في ترتيب الزيارة لابن الزايت ، ص ١٥١

(٢) يقصد الامام أحمد بن حنبل صاحب المذهب المعروف

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الكريم بن أعين بن ليث ولد سنة اثنتين وثمانين ومائة وتوفي سنة ٢٦٨ سمع من ابن وهب وأشهب ثم صحب الشافعي وتفق به وحمل في حنة خلق القرآن إلى القاضي بن أبي دؤاد ببغداد ثم رد إلى مصر وانتهت إليه رئاسة المالكية بعد وفاة أبيه والشافعي وله كتاب السنن على مذهب الشافعي .

(٤) يونس بن عبيد الأعلى بن موسى الصدفي المصري روى عن ابن عيينة وتفق على الشافعي وقرأ على ورش وتصدر للأقراء والفقهاء ولد سنة ١٧٠ ومات سنة ٢٦٤ وروى عنه مسلم والنسائي وابن ماجه وكان الشافعي يقول عنه ما رأيت بمصر أعقل من يونس بن عبد الأعلى (ابن خلكان ، ج ٢ ص ٤١٨)

(٥) أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق المزني يعتبر إمام الشافعيين وأعرفهم بطرق الشافعي وفتاويه صنف كتباً كثيرة في مذهب الشافعي منها الجامع =

وكذلك حرملة^(١) بن يحيى وال
سويطي^(٢) الذي قد أمجز الإشكالا
واذكر أبا ثور^(٣) فقيهه عراقه
وفريدها والحارث البقالا

== الكبير والصغير والمختصر ومختصر المختصر والمنثور والمسائل المعتمدة وغيرها وكتابه
المختصر أصل الكتب المصنفة في مذهب الشافعي وعلى مثاله كتب المؤلفون أو فسروا ما فيه
(ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٧١ والفهرست ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩) ويقول
السويطي إن الشافعي قال في المزني إنه لو ناظر الشيطان لعليه (حسن المحاضرة ، ج ١ ،
ص ١٦٨) ولد سنة ١٧٥ وتوفي سنة ٢٦٤ .

(١) حرملة بن يحيى بن عبد الله التجيبي أبو حفص المصري كان له مذهب لنفسه
وصنف المبسوط والمختصر وروى عن مسلم وابن ماجه ولد سنة ١٦٠ ومات
سنة ٢٤٣ (حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٨)

(٢) بو يعقوب يوسف بن يحيى المصري البويطي سمع من عبيد الله بن وهب
والشافعي وسمع منه كثيرون منهم أبو إسحاق الترمذي وإبراهيم بن إسحاق الحراني وفي
تاريخ بغداد أن الشافعي لما مرض مرضه الذي مات فيه جاء محمد بن عبد الحكم
ينازع البويطي في مجلس الشافعي فاحتكما إلى أبي بكر الجدي فقال لهما إنه سمع الشافعي
يقول ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف بن يحيى (يعني البويطي) وليس أحد من
أصحابي أعلم منه ، وجلس البويطي في مجلس الشافعي (ابن خلكان ، ج ٢ ،
ص ٣٤٦) وكان ابن أبي الليث الحنفي قاضي مصر يحسده ، فسمي به إلى الواثق بالله
أيام محنة خلق القرآن فأمر بحمله إلى بغداد مغلولاً مقيداً وأريد منه القول بذلك
فامتنع فحبس في بغداد إلى أن مات في القيد والسجن يوم الجمعة من رجب سنة
لإحدى وثلاثين ومائتين (حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٧) وللبويطي كتاب
المختصر الكبير والصغير وكتاب الفرائض (ابن النديم ، ص ٢٩٨)

(٣) أبو ثور إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان السكلي الفقيه البغدادي صاحب الامام الشافعي
وناقل الأقوال القديمة عنه له الكتب المصنفة في الأحكام جمع فيها بين الحديث والفقه
وكان أول اشتغاله بمذهب أهل الرأي حتى قدم الشافعي العراق فاختلف اليه واتبعه
واسكنه خالفه في أشياء وأحدث لنفسه مذهبا اشتقه من مذاهب الشافعي وله مبسوط ==

ثم الربيعان (١) اللذان تفتننا
في فقهه وتحملا الانتقالا

والزعفراني (٢) الصدوق ورهطه
في كل قطر واعرف الأبطالا

وأول قاض شافعي ولي مصر هو أبو زرعة محمد بن عثمان بن
إبراهيم الثقفي ولي القضاء سنة ٢٨٤ هـ ولما عزل رجع إلى دمشق، وكان

على ترتيب كتب الشافعي وأكثر أهل أذربيجان وأرمينية يتفقون على مذهبه
[الفهرست ص ٢٩٧] وتوفي سنة ٢٤٠ هـ

(١) هما الربيع بن سليمان المرادي والربيع بن سليمان بن داود الأزدي الجيزي .
أما الربيع المرادي فهو أبو محمد الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي
المؤذن المصري وهو الذي روى أكثر كتب الشافعي وقال الشافعي في حقه (الربيع
راوي) [ابن خلكان ج ١ ص ١٨٤] وكان الربيع المرادي أقدم أصحاب الشافعي
بمصر صحبة وأشهرهم بحجة له [السكواك السيارة ص ١٢٢] روى عنه أصحاب السنن
الأربعة والطحاوي وأبو زرعة وغيرهم وكان يعلو الحديث بجماع ابن طولون وهو أول
من أملى به وتوفي سنة ٢٧٠ [حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٦]

أما الربيع الجيزي فهو أبو محمد الربيع بن سلمان بن داود بن الأعرج الأزدي
الجيزي صاحب الامام الشافعي ولكنه كان قليل الرواية عنه وأكثر روايته عن
عبد الله بن عبد الحكم وروى عنه أبو داود والنسائي وغيرهما وتوفي سنة ٢٥٦
بالجيزة وهو الذي ينسب اليه جمع الأم وترتيبه بعد البويطي ونلاحظ أن اسم الربيع تكرر
كثيراً في كتاب الأم فيلتبس الأمر على القارىء من من الربيعين هو المقصود وقد وفق
الأستاذ زكي مبارك إلى التفرقة بين الربيع المرادي والربيع الجيزي في بحثه عن كتاب
الأم ص ٧٣ .

(٢) أبو عبد الله الحسن بن محمد بن الصباح روى الميسوط عن الشافعي على ترتيب
ما رواه الربيع وخالف في شيء يسير ولذا لا يعتمد عليه الفقهاء بل يعتمدون على ما رواه
الربيع وقد ضاع أكثر كتب الزعفراني وتوفي سنة ٢٦٠ هـ [الفهرست ص ٢٩٧]

الغالب على أهلها قول الأوزاعي ، فأبو زرعة هو الذى أدخل مذهب الشافعى دمشق ، وتبعه من بعده كثير من القضاة^(١)، وقيل إن أبا زرعة شرط لمن يحفظ. مختصر المزنى مائة دينار يهبها له^(٢) .

وهناك قاض آخر كان له أثره فى الأدب والفقہ هو أبو عبيد على بن الحسين بن حرب المعروف بحربويه وهو من أهل بغداد ودخل مصر فى شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين من الهجرة وظل قاضيا على مصر إلى أن عزل سنة إحدى عشرة وثلاثمائة فخرج من مصر إلى بغداد حيث توفى سنة تسع عشرة وثلاثمائة من الهجرة . حدث عن النسائى ، وتفقه على أبى ثور صاحب الشافعى ، وحدث فى زمن ولايته ، فلما صرف أملى على المصريين وكتبوا عنه مجالس ، وروى عنه أبو جعفر الطحاوى وأبو بشر الدولابى ، وكان له مركز قيم فى مصر حتى أنهم أخذوا أقواله أمثالا كقوله « إن البغاث بأرضكم يستنسر » قال الطحاوى كنت أذكر عنده ابن أبى عمران الحنفى فقال لى « إلى كم تقول ابن أبى عمران ، قد رأيت هذا الرجل بالعراق ، إن البغاث بأرضكم يستنسر » قال فصارت هذه الكلمة بمصر مثلا^(٣) . وقال الطحاوى أيضا كان أبو عبيد يذاكرنى بالمسائل ، فأجبتہ يوماً فى مسألة ، فقال لى ما هذا قول أبى حنيفة ، فقلت له أيها القاضى أو كلما قاله أبو حنيفة أقول ،

(١) السكندى القضاة والولاة ص ٥٢٣ ورفع الإصر عن فضاة مصر لابن حجر
نسخة خطية بدار السكتب المصرية

(٢) تاريخ الاسلام للذهبي نسخة خطية بدار السكتب المصرية

(٣) الكندى ص ٥٢٩

قال: ما ظننتك إلا مقلدا، فقلت له: وهل يقلد إلا عصبي فقال لي أوغبي، فطارت هذه الكلمة بمصر حتى صارت مثيلا (١). وكانت توقيعات أبي عبيد تخرج معنونة مختومة وكتبت بمصر ألفاظه، وجمعت توقيعاته وكانت محشوة فقها وبلاغة (٢) ولكن فقدت كل هذه التوقيعات ولم يبق منها شيء.

المدرسة الحنفية

وضع الإمام أبو حنيفة النعمان مذهبه متأثراً بما كان في العراق من مذاهب المتكلمين وأهل الرأي، وقد رأينا المصريين لا يقبلون من المذاهب والآراء إلا ما كان صادراً من المدينة أو مكة، فلا نجد مصريين اهتموا كثيراً بمذهب أبي حنيفة في أول الأمر، إنما نقل المذهب إلى مصر القضاة الذين كانوا يعينون من العراق، ولعل أول قاض تولى مصر من دان بمذهب أبي حنيفة هو إسماعيل بن اليسع الكندي (٣) الذي ولى سنة ١٦٤ هـ، وقد كرهه المصريون لأنه كان ينهب مذهب أبي حنيفة، ولم يكن أهل مصر يعرفون هذا المذهب (٤) حتى أن الليث بن سعد كتب إلى الخليفة يطلب عزل هذا القاضي، ويقول: إنك وليتنا رجلاً يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(١) الكندي ص ٢٨٠

(٢) رفع الأصغر عن قضاة مصر لابن حجر

(٣) ذكر في حسن المحاضرة، ج ١، ص ٢٦٣ إسماعيل بن سميع

(٤) الكندي، ص ٥٧١

بين أظهرنا ، مع إنا ما علمناه في الدينار والدرهم إلا خيراً ، فاضطر
الخليفة إلى عزل القاضي^(١) .

وأشهر قضاة مصر الحنفيين في ذلك الوقت ، هو القاضي بكار بن
قتيبة بن عبيد الله بن أبي بردعة من نسل ابن أبي بكر الثقفى مولى
رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه . ولد بكار بمدينة البصرة
وأخذ الفقه عن هلال بن يحيى ، وعيسى بن أبان وغيرهما من مشايخ
البصرة ، وروى عنه أبو داؤد السجستاني ، وابن خزيمة ، وأبو عوانه
وأكثر عنه الإمام الطحاوى فقيه الحنفية بمصر وغيرهم . ولقضاء مصر
من قبل المتوكل ، فدخلها سنة ست وأربعين ومائتين من الهجرة ، وكان
يحدث في المسجد الجامع ، وكثيراً ما كان أحمد بن طولون أمير مصر
يحيى إلى بكار وهو على الحديث فما يشعر به بكار إلا وهو جالس إلى
جنبه^(٢) . ويذكر ابن حجر عن ابن زولاق أنه كان لبكار انساع في
العلم والمناظرة ، ولما رأى مختصر المزنى ، وما فيه من الرد على أبي
حنيفة شرع هو في الرد على الشافعى ، فقال لشاهدين من شهوده
إذها إلى المزنى فقولوا له سمعت الشافعى يقول ما في هذا الكتاب ،
ففضيا وسمعا المختصر كله من المزنى ، وسألاه عما إذا كان هذا كلام
الشافعى ، فرد بالاجاب ، فعادا إلى بكار فأخبراه بذلك ، فقال : الآن
استقام لنا أن نقول قال الشافعى ثم صنف الرد المذكور^(٣) .

(١) تاريخ الاسلام للذهبي

(٢) رفع الاصر

(٣) شرحه

وكان بكار يشتهي أن يسمع كلام المزني ، فاجتمعا يوما في جنازة ، فأشار بكار الى أبي جعفر التل - وكان حنفيا أيضا - أن يسأل المزني عن مسألة ، فقال التل : ما رأيت أعجب من أصحابنا الشافعيين ، لهم أحاديث في تحريم قليل النبيذ ، ولنا أحاديث في تحليله فمن جعلهم أولى بأحاديثهم منا بأحاديثنا ؟ فقال المزني : ليس يخلو أن يكون أحاديثكم قبل أحاديثنا أو بعدها ، فإن كانت قبلها فهكذا نقول إنها كانت محله ثم حرمت ، فما نحتاج إلى أحاديثكم ، وإن كانت أحاديثكم بعد أحاديثنا فهذا لا يقول أحد أنها كانت حلالا ثم صارت محرمة ثم حلت !! فأعجب بكار بقول المزني ، وقال سبحان الله أن يكون كلام أدق من الشعر فهو هذا (١) وكان بكار يخالف أصحابه في تحليل قليل النبيذ ويذهب إلى تحريمه .

ظل بكار قاضيا على مصر ، ويحدث المصريين بمذهب أبي حنيفة حتى دعاه ابن طولون إلى خلع الموفق ولعنه ، فرفض بكار فحبسه ابن طولون ، ولما طال حبسه طلب أصحاب الحديث إلى الأمير أن يأذن لهم في السماع منه ، فأذن لهم ، فكان بكار يتحدثهم من طاق في السجن إلى أن توفي سنة ٢٧٠ هـ .

أما الطحاوي فهو يعد إمام المصريين ، في مذهب الحنفية لكثرة تلاميذه وخصب نتاجه ، ولد سنة ثمان وثلاثين ومائتين من الهجرة ، وصحب المزني الشافعي وتفقه به ثم ترك مذهب الشافعي وصار حنفيا ، وكان كاتباً للقاضي بكار ، وسمع الحديث منه ومن خلق من المصريين ، ومن الغرباء

القادمين ، وتوفي سنة ٣٢١ هـ ، بعد أن ترك عدة كتب في الفقه ، أولع الناس بها لا سيما كتابه « المختصر في الفقه » الذي وضع له الفقهاء شروحا عدة .

واشتد تنافس المذاهب في مصر فإذا قلد قاض شافعي كاد لأصحاب المذاهب الأخرى ، كالقاضي إسماعيل بن عبد الواحد المقدسي الذي ولي سنة ٣٢١ فقد تحدث مع الأمير تكين فبعث صاحب الشرطة فأقامه من كان بالجامع الكبير من المالكيين والحنفيين^(١) . ويروي ابن حجر عن ابن زولاق أن الأخميدية كلها كانت تكره ابن الحداد الفقيه لكرهتهم في الشافعية^(٢) . وأمر القاضي الحارث بن مسكين بإخراج أصحاب أبي حنيفة من المسجد وأصحاب الشافعي وأمر بنزع حصرهم^(٣) . وروى الكندي أن القاضي ابن أبي الليث انتهز محنة خلق القرآن فأوقع بأصحاب مالك والشافعي ومنع فقهاءهم من الجلوس في المسجد ومدحه الشاعر الحسين الجمل الأكبر بذلك^(٤)

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن الحركة الدينية بمصر كانت حركة كبيرة قوية ، وأخرجت مصر عدداً كبيراً من القراء والمحدثين والفقهاء ، بجانب هذه الحركة الأدبية التي سادتحدث عنها في الفصل القادم

(١) الكندي ص ٥٤٤

(٢) رفع الامر . والكندي ص ٥٥٥

(٣) الكندي ص ٤٦٩

(٤) الكندي ص ٤٥٠

الفصل الثاني

اللغة والتاريخ

النحاة واللغويون

رأينا كيف قامت بمصر مدرسة دينية خالصة ، استمرت منذ الفتح في نشاط ودأب ، ولم نر في القرن الأول أثراً لهذه الدراسات الأدبية واللغوية التي كلف بها العراقيون وغير العراقيين من الشعوب الإسلامية ، ولكننا نجد تطوراً في القرن الثاني الهجري ، إذ قامت بمصر دراسات أدبية ونحوية ولغوية ، واطرد نمو هذه الدراسات حتى غمرت مصر وفاضت على غيرها من بلدان المغرب ، ونبغ عدد كبير من علماء المصريين ، وكثرت المؤلفات العلمية التي أفادت المصريين كما استفاد منها غير المصريين .

فمن النحاة الذين كان لهم أثر محمود في مصر بنو ولاد ، وأشهرهم الوليد بن محمد التيمي النحوي المشهور بولاد . كان الوليد نحويًا مجوداً ، روى عن القتيبي وأبي زرعة المؤذن كُتِّب اللغة والنحو ، وأصله من البصرة ، ونشأ بمصر ، ودخل العراق ، ولم يكن بمصر شيء من كتب النحو واللغة قبله ، وأخذ عن المهلب تلميذ الخليل بالمدينة ثم عن الخليل نفسه (١) . وتوفي سنة ثلاث وستين ومائتين من الهجرة ومحمد بن ولاد التيمي الذي أخذ عن الدينوري النحو والأدب ، ثم رحل إلى العراق ، وأخذ عن المبرد وثلعب ، وكان يؤدب ابن صاحب

(١) بغية الوعاة ص ٤٠٥

خراج بغداد^(١)، ولكنه عاد إلى مصر يعلم الناس، ووضع كتابه «المنمق في النحو» توفي سنة ثمان وتسعين ومائتين من الهجرة وقد بلغ الخمسين من عمره. ثم رحل ولده أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد إلى العراق، وأخذ النحو عن الزجاج، وعاد إلى مصر وألف كتابه «المقصود والممدود» بها؛ وكان الزجاج يعرف فضل أحمد هذا، ويثني عليه عند كل من قدم من مصر إلى بغداد، فكان يقول لهم: لي عندكم تلميذ من صفته كذا وكذا. فيقال له: أبو جعفر النحاس؟ فيقول: بل أبو العباس بن ولاد^(٢). وتوفي سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة من الهجرة وأبو العباس هذا أستاذ أبي عبد الله الرباحي النحوي الأندلسي.

ووضع أحمد بن جعفر الدينوري بمصر كتابه «المهذب في النحو» وصدّره بالكلام عن الخلاف بين البصريين والكوفيين، وعزى كل مسألة إلى صاحبها^(٣). ولم يكن نحويًا فقط بل كان أديباً يدرس هذا النوع من العلم، فقرأ كتب ابن قتيبة كلها على المصريين. وقد استفاد الأندلسيون من هذا الرجل، كما استفاد منه المصريون، فقد روى السيوطي أن محمد بن موسى بن هاشم المعروف بالأفشين القرطبي رحل إلى المشرق، ولقى بمصر أبا جعفر الدينوري، وأخذ عنه كتاب سيبويه رواية^(٤)، وكان الدينوري قد أخذ كتاب سيبويه بالبصرة عن المازني وتلميذ للبرد^(٥) وتوفي سنة تسع وثمانين ومائتين.

(١) شرحه ص ١١٢

(٢) شرحه ١٦٩

(٣) معجم الأدياء، ج ١ ص ٣٨٢

(٤) بنية الوعاة للسيوطي ص ١٠٨

(٥) شرحه ص ١٣٠

أما أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن إسماعيل فقد نبغ في النحو واللغة ، وحقق القرآن وما يتعلق به ، وألف في ذلك كتباً كثيرة ، نذكر منها « كتاب معاني القرآن ومنسوخه » ، كما ألف في النحو واللغة والأدب نذكر من ذلك كتبه « المبتهج في اختلاف البصريين والكوفيين » و « أدب الكتّاب » و « شرح المعالقات السبع » و كتاب « طبقات الشعراء » و يروى ابن خلكان أن أبا جعفر النحاس فسر عشرة دواوين وأملاها على تلاميذه بمصر^(١). وكان في مصر محمد بن حسان النحوى الذى روى النحو عن أبي زرعة المزدني وروى عن عبد الملك بن هشام مغازى ابن اسحق ومات سنة اثنتين وسبعين ومائتين^(٢).

وكذلك نسمع عن محمد بن اسحق بن أسباط السكندى أبى النصر المصرى النحوى ، أخذ عن الزجاج وله كتاب فى النحو سماه « العيون والنكت » وقال ياقوت : لأنه نزل أنطاكية ثم صار إلى مصر وكان شيخ أهل الأدب بها ، وله تقدم فى المنطق وعلوم الأوائى وله « المعنى فى النحو^(٣) . وكذلك محمد بن عبد الله بن محمد بن سلم وهو المعروف بالمملطى وكان نحويًا يعلم أولاد الملوك النحو ومات سنة ثلاث وثلثمائة^(٤).

وبجانب هؤلاء الأدباء والعلماء المصريين الذين رحلوا فى طلب العلوم العربية ، نجد علماء العراق وغير العراق يزورون مصر ويروون بها علومهم ، وكان من أثر ذلك أن وجدت فى مصر نهضة أدبية علمية ، جعلت لها مركز الزعامة فى القرون التالية ، فقد جاء مصر

(١) ج ١ ، ص ٢٩

(٢) بغية الوعاة ، ص ٣٨٧

(٣) بغية الوعاة ، ص ٢١

(٤) شرحه ، ص ٦٠

أبو محمد عبد الملك بن هشام صاحب السيرة وتوفى بمصر سنة ٢١٨ هـ ونراه في السيرة قد تأثر بمصر فقد روى عن علمائها أمثال ابن وهب وابن لهيعة وكان ابن هشام إماما في اللغة والنحو، وقد اجتمع به الشافعي حين ورد مصر وتناشدا كثيرا من أشعار العرب (١). ووفد عليها أبو العباس الناشيء الأكبر، وكان نحوياً عروضياً متكلماً متبحراً في عدة علوم من جملتها المنطق، وكان بقوة علم الكلام قد نقض علل النجاة، وأدخل على قواعد العروض شبيها، ومثلها بغير أمثلة الخليل (٢) وتكسب بعلومه هذه في مصر كما سنرى في حديثنا عنه شاعرا.

وجاء مصر محمد بن موسى الواسطي، وكان من أهل العلم باللغة وتفسير القرآن ومات بمصر سنة ٣٢٠ هـ (٣). ويموت بن المزرع قدم مصر مرارا كان آخرها سنة ثلاث وثلثمائة (٤) ولعله في إحدى زيارته أوفى هذه الزيارات كلها روى بمصر كتب خاله أبي عثمان الجاحظ. وكذلك زار مصر محمد بن زيد بن يضحويه بن الهيثم البردعي وروى عنه بمصر ابن يونس المؤرخ وأبو القاسم الطبراني، وأصله من أذربيجان نزل مصر فاستوطنها، وكان كثير العلم متفطنا في الأدب واللغة والشعر وكان ثقة أمينا (٥).

ويحدثنا ياقوت أن المصريين ما كانوا يعرفون شيئا من شعر

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٦

(٢) ابن خلكان، ج ١، ص ٢٦٣

(٣) بنية الوعاة، ص ١٠٩

(٤) الأنساب للسمعاني، ص ٢١

(٥) بنية الوعاة، ص ٤٣

الطرماح بن حكيم، فلما قدم ابن جرير الطبري مصر سأله علي بن سراج المصري أن يمل شعر الطرماح، فجلس ابن جرير عند بيت المال يمليه ويفسر غريبه. (١)

وفي سنة إحدى وعشرين وثلثمائة جاء مصر أحمد بن عبد الله بن مسلمة بن قتيبة، فدخل عليه أصحاب الحديث يسألونه أن يحدّثهم، فقال: ما معي إلا كتب أبي وأنا أحفظها فإن شئتم سردها عليكم. فلما عرف الناس ذلك قصدوه، فصار مجلسه غاصاً بفنون الناس ممن يطلب العلوم والآداب، وقصده أبو جعفر النحاس وابن ولاد وأبو مخاصم المظفر بن أحمد ووجوه البلد (٢).

كذلك وفد على مصر محمد بن أحمد بن علي من ولد المهلب بن أبي صفرة المعروف بالمهلب النحوي، قال عنه الزبيدي: إنه كان عالماً نحويّاً لغويّاً ثقة (٣) ومات بمصر سنة ٣٤٩ هـ.

وهنا أتساءل هل استطاع هؤلاء العلماء أن يتخذوا لأنفسهم مذاهب نحوية تختلف عن مذاهب الكوفيين والبصريين والبغداديين؟ وهل هناك فرق بين آراء النحويين المصريين والنحويين في العراق؟ أستطيع أن أجيب على هذا كله بأنه كان للمصريين آراء تختلف بعض الشيء عن آراء العراقيين. وأترك تفصيل ذلك كله إلى البحث الذي سأنشره قريباً عن «مدرسة النحو في مصر».

(١) معجم الأدباء ج ٦ ص ٤٣٣

(٢) رفع الأمر عن قضاة مصر لابن حجر (نسخة خطية رقم ١٠٥ بدار

الكتب المصرية)

(٣) بغية الوعاة، ص ١٤

المؤرخون

ظهر في مصر عقب الفتح لون من الدراسات الإسلامية وإن شئت فقل من العلوم العربية، وهو القصص، فظهر القصص الديني بمصر سنة تسع وثلاثين هجرية، وكان أول من قص بمصر هو سليم بن عتر التجيبي الذي تولى القضاء بمصر مدة طويلة^(١) كان هذا القصص سببا في موضوع آخر هو التاريخ، وقد عني المسلمون منذ الفتح بأمر تاريخ مصر، لأنها ذكرت كثيرا في القرآن الكريم، كما روى عن النبي أحاديث كثيرة عن مصر وأهلها، والمسلمون يعلمون أن إحدى زوجات النبي كانت مصرية، وأن بعض الأنبياء والرسل كان لهم شأن في مصر، عرف المسلمون هذا كله، ورأوا بعد الفتح أشياء لم يروا مثلها كالحرم والمقابر الأخرى التي عرفت بمصر باسم «البرابي» وكان عند العرب هذا القصص الذي يحثهم عن القدماء فشغفوا بالتاريخ وروايته، وزخرفوا أقوالهم بشيء كثير من القصص الخيالية التي تثير الضحك أحيانا، ووضعوا من عندهم أخبارا بعيدة كل البعد عن الصحة، وكانت هذه الأخبار كلها أساسا لكتب التاريخ، التي ظهرت بمصر، وغذت هذه الحركة بمصر وجود عدد من الأخباريين وأصحاب المغازي مثل محمد بن إسحاق صاحب السيرة، وعبد الملك ابن هشام راويها ومحمد بن أبي الليث الذي كان وراقا على باب الواقدي^(٢) ثم وفد عليها ابن جرير الطبري مرتين، والمسعودي، وعن مؤرخي مصر

(١) الولاية والفضاة للسكندی، ص ٣٠٧

(٢) السكندی ص ٤٤٩

نقل ابن جرير كثيرا في كتابه وابن هشام في السيرة . وغيرهما من المؤرخين . ووضعوا عن مصر كتبا عديدة . ولعل أكثر الكتب القديمة تضليلا وتخبطا هو كتاب « فتوح مصر » الذي يسنده بعض المؤرخين إلى ابن إسحاق الأموي ، ويسنده بعضهم الآخر إلى الواقدي ، وإن كنت أرجح أن للواقدي كتابا غير الكتاب الذي ينسب إلى ابن إسحاق . ويتجلى ذلك في الاختلاف الذي بين الكتابين .

كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم :

وهناك كتاب آخر لمؤلف مصري له قيمته وأثره . إذ لا أكاد أعرف مؤرخا كتب عن مصر دون أن يذكر هذا الكتاب ، أو يأخذ عنه ، لهذا كان كتاب « فتوح مصر » مصدرا هاما من مصادر تاريخ مصر منذ الفتح ، كما أنه يمثل لنا ناحية أخرى من نواحي التأليف العلمي بمصر في هذا العصر ، فقد رأينا الحركة العلمية والنشاط الفكري كانا متجهين إلى العلوم الدينية في أول الأمر ، ثم أضيف إليها العلوم العربية الخالصة ، كما اتجه المصريون إلى القصص والعلوم التاريخية ، وقد لعبت يد الخيال في هذه الأخبار التاريخية ، فأخرجتها عن جادة الحق ، ولكنها تمثل لنا عقلية العرب الذين كانوا يأخذون كل ما يروى لهم دون أن يحاولوا تحقيقه .

هذا النوع من العلوم كان عربيا خالصا ، اهتم به الجاهليون والمسلمون ، وأخذه بعضهم عن بعض حتى دون في القرن الثالث الهجري ، ومن أوائل المدونين للتاريخ ابن عبد الحكم المصري صاحب « فتوح مصر » .

اختلف في اسم كتابه ، فصاحب كشف الظنون يقول إن اسمه « فتوح مصر والمغرب »^(١) والأستاذ توري ناشر الكتاب يقول إنه « كتاب فتوح مصر وأخبارها » ، وابن خلكان يقول إنه « فتوح مصر »^(٢) فقط . وواقفه على ذلك أبو المحاسن في مواضع كثيرة من كتابه « النجوم الزاهرة » ، ومهما يكن من أمر هذا الخلاف فإن الكتاب وضع في فتح مصر مع ذكر شيء من أخبارها كما سنرى .

أما مؤلف الكتاب فهو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع القرشي ، فهو عربي قرشي ، ولعل أهله جاؤا مصر أيام الفتح وحلوا بها ، حتى تمصروا فلقب كل منهم بالمصري . كان لأسرة بني عبد الحكم شأن كبير في مصر في القرن الثالث الهجري ، إذ استطاعوا أن يؤثروا في الحياة السياسية المصرية ، كما كان لهم أثر كبير في الحياة العلمية ، فقد كان عبد الله بن عبد الحكم (١٥٥ - ٢١٤ هـ) ممن نالهم وفرة من المال ، ونصيب كبير من العلم ، وصار رئيسا للمدرسة المالكية بمصر ، وقد اعترف المالكيون له بالفضل والعلم والرئاسة ، وقد ساعد هذا الرجل الإمام الشافعي حين قدم مصر ، فأعطاه ألف دينار من ماله الخاص ، وجمع له ألفين من بعض وجوه مصر^(٣) ، وأخذ ابنه محمد بن عبد الله الفقيه المالكي عن أبيه وعن أشهب وصار أحد علماء مذهب مالك ، ولما أتى الشافعي مصر لزمه محمد ، وكان الشافعي يعجب به ويقربه ،

(١) كشف الظنون ، ج ٤ ، ص ٣٩٦

(٢) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢٤٩

(٣) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢٤٨

قال المزني: كنا نأتي الشافعي نسمع منه، فنجلس على باب داره. ويأتي محمد بن عبد الله بن عبد الحكم فيصعد ويطلب المكتب وربما تغدى معه، ثم نزل فيقرأ علينا الشافعي، فإذا فرغ من قراءته، قرّب إلى محمد دابته فركبها، وأتبعه الشافعي بصره، فإذا غاب شخصه قال: «وددت أن لي ولداً مثله، وعلى ألف دينار لا أجد لها قضاء» (١). وكان محمد يطمع في رئاسة المدرسة الشافعية، ولكنها انتقلت منه إلى البويطي، فتحول هو عن الشافعية وخلف أباه في رئاسة المدرسة المالكية، كذلك نقول عن عبد الحكم بن عبد الله بن عبد الحكم، وسعد بن عبد الله بن عبد الحكم، فقد كان لهما شأن في الدراسات الدينية بمصر.

أما عبد الرحمن بن عبد الله صاحب كتاب فتوح مصر فكان من أهل الحديث والرواية، وشغف بالقصص والأخبار، وكلف بالتاريخ، فكان من أثر هذا كله أنه وضع كتابه «فتوح مصر» وهكذا كانت هذه الأسرة مجدة في التحصيل والدرس، جادة في التأليف والرواية، ولكنهم أصيبوا بكوارث طوحت بهم: ففي سنة ٢٢٧ هـ جدد الخليفة الواثق أمر محنة خلق القرآن، وحُمل محمد بن عبد الله إلى بغداد كي يمثل أمام القاضي أحمد بن أبي دؤاد الإيادي، ويقر أمامه بخلق القرآن، ولكن محمداً رفض ذلك، فأهين وعذب، حتى أعيد إلى مصر، وفي سنة ٢٣٧ هـ ورد كتاب المتوكل بأخذ بني عبد الحكم وغيرهم في أموال عبد العزيز الجروي الذي ثار بمصر، فحكّم على بني

(١) ابن خلكان، ج ١، ص ٤٥٧

عبد الحكم بألف ألف دينار ، ونادى المنادى في أموال الجروى هذه وكشفها ؛ فمن كتمها ضرب خمسمائة سوط ، وهدمت داره ، فأقر عبد الحكم بن عبد الله بمال عنده ؛ فبعث به إلى منزله فلم يُخرج شيئاً ، فعذب حتى مات في السجن محتقناً من دخان كثيف سلط عليه في السجن ، واستقصيت أموال بنى عبد الحكم ، ونهبت منازلهم ، حتى جاء أمر المتوكل بإطلاقهم^(١) . ولسكنهم ظلوا بعد ذلك مضطهدين لا يسمع لهم قول ولم نعد نسمع عنهم ذكراً .

بعد عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم من أقدم مؤرخى الاسلام في مصر الذين وصلت إلينا كتبهم . كان كلفاً برواية الأخبار من ثقات المصريين أمثال والده عبد الله ، ويحيى بن بكير ، وعثمان بن صالح كاتب الليث بن سعد ، وغيرهم ، وعنه أخذ القاسم بن حبيش ، وأبوسلمة التجيبى ، وابن قديد وغيرهم . وإذا عرفنا أن ابن قديد أحد رواة ابن عبد الحكم كان من أهم المصادر الذين استقى عنهم الكندى كتابيه «الولاية» و«القضاة» أدركنا بسهولة السبب الذى من أجله نرى في كتاب الكندى مقطوعات كثيرة مذكورة في «فتوح مصر» مع أننا نعلم أن الكندى كان يحاول أخذ الأخبار من نفس المصادر التى استقى منها عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم ، ومع ذلك فالكندى اتخذ كتاب فتوح مصر أساساً لكتابه ، لاسيما في الفصل الذى عقده ابن عبد الحكم عن القضاة في مصر .

كان ابن عبد الحكم معاصراً لمؤرخين من أشهر وأقدم مؤرخى الاسلام ، ولسكننا نرى ابن عبد الحكم يمتاز عن معاصريه بأنه أوجد

(١) الكندى ، ص ٤٦٥

فأجديداً في التاريخ الإسلامي هو فن « الخطط والآخاند » وهذا النوع من التاريخ لم يكتب فيه أحد قبل المصريين ، ولا نعرف أحداً كتب فيه قبل ابن عبد الحكم ، ولم يوفق المقرئ في قوله « إن أول من رتب خطط مصر وآثارها وذكر أسبابها في ديوان جمعه هو أبو عمر محمد بن يوسف الكندي ، ثم كتب بعده القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي كتابه المنعوت « بالمختار في ذكر الخطط والآثار » ومات في سنة سبع وخمسين واربعمائة قبل سني الشدة فدثراً أكثر ما ذكر ،^(١) لم يوفق المقرئ في هذا القول لأن ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر سبق الكندي في الحديث عن الخطط .

ولعل أول ما يلفت النظر إلى كتاب ابن عبد الحكم أنه مقسم حسب الموضوعات ، فقد جعله المؤلف سبعة أبواب ، وأدرج تحت كل باب ما قيل في الموضوع الذي خص له ، فاختلف بذلك عن الطبري والمبرد والجاحظ وغيرهما من الأدباء ، فهؤلاء لم يحاولوا أن يقسموا كتبهم إلى فصول أو أبواب بل خلطوا كتبهم ، وجمعوا فيها كل شاردة وواردة ، زعماً منهم أن الأديب عليه أن يأخذ من كل شيء بطرف ، فأودعوا كتبهم كل شيء دون أن يحاولوا ترتيب هذه الموضوعات ، وقد غلب هذا النوع من التأليف على علماء العراق ، حتى كان ابن قتيبة فابتدأ بترتيب كتبه ، أما في مصر فكان المؤلفون يقسمون كتبهم ، ويرتبون موضوعاتها ، حتى أن الفارابي عند ما دخل مصر ومعه كتابه « المدينة الفاضلة » ، سأله بعض الناس أن يجعل له فصولاً تدل على

(١) الخطط ، ج ١ ، ص ٦

قسمة معانيه ، فعمل هذه الفصول بمصر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة^(١) .
ليس لنا أن نتحدث عما في كتاب « فتوح مصر » من أخطاء تاريخية
كان مصدرها جهل العرب والمصريين بتاريخ مصر القديم ، ورغبة
بعض الرواة في وضع أخبار عن مصر من المحقق أنها بعيدة عن
الصواب ، وقد يطول بنا الأمر لو ناقشنا هذا كله ، ويكفي أن أقول
إن أكثر هذه الخرافات في القسم الأول من الكتاب ، وهو القسم
الذي ذكر فيه فضائل مصر وتاريخها من أول أمرها إلى أن فتحها
العرب ، وأقول خرافات لأن علم الدراسات المصرية القديمة أثبت
ما يخالف ما جاء في هذا الكتاب . ثم لهذه المبالغت التي لا يكاد
يتصورها عقل ، كوجود أشعار عربية قالها قدماء المصريين وحفرها
على آثارهم !!!

أما القسم الثاني من الكتاب ، فهو يتحدث عن فتح العرب لمصر
فذكر المؤلف شيئاً عن علاقة مصر ببعض أفراد من العرب قبل الإسلام
وعن كتاب النبي إلى المقوقس ، وجواب هذا إلى النبي عليه السلام ،
ثم ذكر الفتح العربي ، وتحدث عن مسألة اختلف فيها المسلمون منذ
القرن الأول الهجري ، وهي هل فتحت مصر عنوة أم صلحاً ، فبسط
روايات الطرفين ، دون أن يذكر رأيه ، فقد كان راوياً كغيره من
المحدثين والمؤرخين ، وفي الباب الثالث يذكر الخطط والأخاند والقطائع
وهو الفن الذي لم يسبقه غيره إليه ، وفي الرابع يتحدث عن الإدارة
في عهد عمرو وابن أبي سرح وعن فتح الفيوم وبرقة وطرابلس ، وفي

(١) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ، ج ٢ ، ص ١٢٨ — ص ١٣٩

الخامس يذكر غز وشمال أفريقيا والاندلس ، وفي السادس يسرد أسماء قضاة مصر حتى سنة ٢٤٦ هـ ، أى قبل وفاة المؤلف بعشر سنين . وفي السابع يروى الأحاديث التى حفظها الصحابة الذين جاءوا مصر ، وقد بلغ عددهم اثنين وخمسين ، فيروى لكل منهم أحاديثه التى سمعها من النبي وكان ابن عبد الحكم يعتمد على طريقة الرواية فإن تعاليمه كانت دينية كباقي أسرته ، ولكننه اتجه إلى التاريخ والحديث مخالفاً فى ذلك باقى أسرته الذين مالوا إلى الفقه ، فكان لهذا أثره فى كتابته للتاريخ ، إذ جاءت أخبار الكتاب فى جمل قصيرة فى الغالب ، فهو لم يعالج موضوعاً يحتاج إلى فكر عميق ، واننقاء لالفاظ مخصوصة تصلح لما يكتب فيه بل كان يعتمد على الرواية والحافظة ، لهذا جاءت كتابته طبيعية سهلة لا تكلف فيها ولا مغالاة .

ومما يحسن الإشارة إليه أن قبر بنى عبد الحكم ، الذى دُفن فيه هذه الأسرة العلمية بجوار قبر الامام الشافعى ، فقبة ضريح الشافعى تجمع قبر الشافعى وقبر بنى عبد الحكم ، وهكذا كان الشافعى صديقاً لهم فى حياته ، فأصبح جوارهم فى مماته .

ابن الداية وكتاب المكافأة

كنت أود أن أتعرض لغير ابن عبد الحكم من المؤرخين المصريين أمثال عمار بن وسيمة المصرى المتوفى سنة تسع وثمانين ومائتين صاحب التاريخ على السنين ، وأحد تلاميذ مدرسة الليث بن سعد^(١) وابن يونس صاحب تاريخ مصر^(٢) والسكندى المؤرخ المعروف وغيرهم

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣١٩ ، ومروج الذهب ، ج ١ ، ص ٤
(٢) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣١٩ وغيرها وتاريخ الطبرى فى مواضع متعددة

كالذين ذكرهم المسعودى فى مقدمة كتابه « مروج الذهب » والذين روى عنهم ابن جرير الطبرى فى تاريخه وتفسيره ، ولكنى أترك ذلك كله لمن يتوسع فى دراسة الحياة العقلية فى هذا العصر .

ولكن أرى أن أتحدث عن مؤرخ مصرى آخر ، عاش فى هذا العصر واتصل ببعض الأماراء المصريين ، وبمختلف طبقات الشعب ، ووضع كتباً عن هؤلاء الأماراء ، ثم تحدث فى كتب أخرى عن هذا الشعب وحاله . ذلك هو الكاتب المعروف بابن الداية . وإذا تحدثنا عن ابن الداية فسنحدث عن كتابه « المكافأة » لأنه مصدر من مصادر التاريخ والأدب ، ونستطيع منه أن نعرف حالة سكان مصر فى هذا العصر واتجاه عقولهم .

جمع الكتاب عدة قصص خلقية ، ولكنها لم تكن خيالية ، بل هى حوادث واقعية حدثت للمؤلف ، أو لوالده ، أو لغيرهما من المعاصرين ، أو غير المعاصرين ، ويتحدث فى كل واقعة من هذه على مكافأة قدمت نظير عمل أو معروف ، فالكتاب من هذه الناحية يستحق التقدير والبحث .

ومؤلف الكتاب هو أحمد بن أبى يعقوب يوسف بن إبراهيم المعروف « بابن الداية » فإن والده يوسف بن إبراهيم كان ولد ظنر إبراهيم بن المهدي ، وأخاً للخليفة العباسى المعتصم^(١) بالرضاعة فهو لم يكن مصرى الأصل ولا أدرى تماماً إذا كان عربى الأصل أم أعجمياً ، وإن كنت أرجح أنه من أبناء إمام الخليفة .

(١) المكافأة ، ص ١١٥

نشأ يوسف بن إبراهيم في دار الخلافة ببغداد ، وصار مع إبراهيم ابن المهدي طول حياته وتولى كتابة إقطاعاته ، حتى توفي إبراهيم في أواخر سنة ٢٢٤ هـ في خلافة المعتصم ، وأخذ قواد الخليفة من الأتراك يضيقون الخناق على العرب ومواليهم ، لم يستطع يوسف البقاء في سر من رأى ، فتركها إلى دمشق سنة خمس وعشرين ومائتين ، وهناك نزل على عيسى بن حكم الطبيب النسطوري^(١) ، ولكنه لم يشأ أن يبقى في الشام طويلا ، بل وفد على مصر ، ولما أن علم المصريون بوجوده أقبلوا عليه . لأنهم سمعوا عن علمه وأدبه ، وصادقوه فعاش بينهم ولقب يوسف بن إبراهيم المصري ، وكان بينه وبين أحمد بن المدبر في العراق عهد صداقة ومودة ، ولكن لما تولى ابن المدبر أمر خراج مصر ، ورأى حسن ظاهر يوسف . ظن أن ذلك عن أموال حجة لديه ، فطالبه ببعض بقايا عقود انكسرت عليه ، فحبسه طويلا حتى أنقذه أبو الفوارس مزاحم بن خاقان وكانت أم زوج يوسف قد تولت تربيته مزاحم هذا^(٢) .

كان يوسف فيما يروى عنه يحب العلم والعلماء ، ويحرص على اقتناء المؤلفات المختلفة ، كما أنه وضع عدة كتب منها : كتاب « أخبار إبراهيم ابن المهدي » و « كتاب الطبيع »^(٣) ويحدثنا ابنه أحمد أن الأمير أحمد ابن طولون حبس يوسف بن إبراهيم ، ولا ندرى سبباً لذلك ، ثم يقول إن بعض وجوه المصريين كلموا الأمير في أمر يوسف فأفرج

(١) عيون الأنباء ، ج ١ ، ص ١٢١

(٢) المكافأة ، ص ١٠٧

(٣) المكافأة ، ص ١١٥

عنه^(١) ، ولعل هذه القصة تدلنا على ما كان ليوسف من المكانة في نفوس المصريين ، كذلك كان يوسف على سعة من الرزق فقد كان يجري بعض المال على بعض الأشراف المقيمين في مصر^(٢) .

أما مؤلف الكتاب أحمد بن يوسف ، فقد عرف عنه شغفه بالعلم ، وكلفه بالأدب ، ويروى ياقوت عن ابن زولاق « كان أبو جعفر رحمه الله في غاية الافتنان ، أحد وجوه الكتاب الفصحاء ، والحساب ، والمنجمين ، مجسطى ، أقيديسى ، حسن المجالسة ، حسن الشعر^(٣) » ، لذلك كان أحد خواص بنى طولون ، حتى عرف بكتابهم ، وقد ألف هذا الرجل جملة كتب في التاريخ والأدب نذكر منها كتاب « سيرة أحمد بن طولون » وسيرة ابنه « أبى الجيش » ، ويقول ابن زولاق « كان أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب قد عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر ، وسيرة ابنه أبى الجيش ، وأنشدا في الناس ، وقرأتهما عليه ، وحدثت بهما عنه ، مع غيرهما من مصنفاته ، ثم عملت أنا ما فاته من سيرتهما »^(٤) وله كتاب « أخبار غلمان بنى طولون وكتاب « حسن العقبي » وكتاب « أخبار الأطباء » و« كتاب المكافأة » ، ولعلك تدرك من أسماء هذه الكتب أن جلها كتب تاريخ وأخبار ، ولم تكن ككتاب ابن عبد الحكم ، بل هي مجموعة أخبار وقصص تمثل الحياة التي يتحدث عنها أصدق تمثيل .

(١) شرحه ، ص ٢٥

(٢) شرحه ، ص ٤٨

(٣) معجم الأدباء ج ٢ ، ص ١٥٧

(٤) المغرب ، ص ٤

لم يكن ابن الداية كاتباً فحسب ، بل كان شاعراً أيضاً ، وروى عن نفسه فقال « كان أبو الفياض سوار بن شراعة الشاعر صديقاً لي ، ومائلاً إليّ ، فلما اعتزم على الرجوع إلى العراق سألتني أن أكتب له شيئاً من شعري ، فكتبت له مقدار خمسين ورقة ، وكان يستحسنه ويعجب به ، فصار إلى بغداد ، وعرضه على جماعة الأحرار ، وأحسن وصفي لهم بسلامة مذهبه وطهارة نيته . ودخل محمد بن سليمان مصر وقد رد البريد بها إلى أبي عبيد الله أحمد بن صالح ، فسأل عند دخوله إياها عن أحمد بن يوسف ، فأحضر أحمد بن يوسف - وكان كاتباً لأحمد بن وصيف ثم لابن الجصاص التاجرين - فقال له : تعرف أبا الفياض ؟ قال : لا . فقال لهم : ليس هذا الرجل الذي طلبت ، فأحضرت ، فلما رأني استشرف إليّ وقال : تعرف أبا الفياض ؟ فقلت ذكرك الله وإياه بكل صالحة ، نعم أعرفه ، وكان خلا لي . فقال : هل أنشدك من شعره

ظلمنا بها نستنزل الدن صفوه فينزل أقباسا بغير هيب

قلت : لا ياسيدي ، ولكني أنشدته إياه من شعري ، فضحك وقال : والله لقد اشتقت إلى الدخول إلى مصر من أجلك ، ثم يقول ابن الداية « وكان والله أفضل عون لي على أموري » (١) .

كذلك كان شعر ابن الداية سبباً في قيام بعض القيسية على خدمته وخضره دون مقابل (٢) ،

(١) المكافأة ، ص ٤٤ - ٤٥

(٢) المكافأة ص ٢٠

نستطيع - كما قدمت - أن نقول إن كتاب المكافأة هذا كتاب أدبي لما فيه من طرائف ومكائبات وأشعار ، ونستطيع أن نتخذه ككتاب قصصي لما فيه من حوادث واقعية ، وأن نتخذه ككتاب في الأخلاق لما فيه من موعظة حسنة ، ومكافأة قدّمت نظير عمل الخير . ونرى مؤلفه يقسمه إلى أبواب وفصول ، فجعل قسماً للمكافأة على الحسن أو مكافأة على معروف صنعه ، وختم هذا القسم ببند عن أفلاطون ، أما القسم الثاني فهو الجزاء على ما يبدر من الإساءة ، ثم أردف ذلك بفصل عمّن ابتلى فصبر ، فكان ثمرة صبره حسن العقبى ، وختم هذا الفصل بطائفة من كلمات مأثورة لبعض الحكماء من الفرس واليونان ، مما يدل على أن ابن الداية كان يلم ببعض الآداب الفارسية واليونانية ، ويحفظ كثيراً من كلمات الفرس واليونان ، ويستعمل ألفاظاً غير عربية في كتاباته كقوله « إن ديوانيان خالد ، بمعنى كتاب الديوان ، ولفظ «تليس» بمعنى الحقيقية ، وهو في هذا يشارك غيره من الكتاب والأدباء فقد نقلت الكتب اليونانية والفارسية إلى العربية ، واستطاع المسلمون أن يعرفوا شيئاً من الآداب والعلوم الأجنبية ، ويمزجوا بين هذه الآداب والعلوم الدخيلة والآداب والعلوم العربية ، فكان كتّاب المسلمين يزينون كتاباتهم باقتباس حكم الفرس واليونان ، وهذا ما نراه واضحاً في الكتب العربية أمثال كتب الجاحظ وابن قتيبة وابن الداية وغيرهم .

نرى ابن الداية يبدأ كتابه بالدعاء بقول « سدد الله فكرك ، وأحسن أمرك ، وكفالك مهمك » وإذا رجعنا قليلاً إلى كتب الجاحظ

في « البيان والتبيين » و « الحيوان » وغيرهما وجدناه يتبع هذه الطريقة في ابتداء الكتب ، وهي أيضا الطريقة الشائعة عند كتاب العراق في ذلك العصر ، ولعلها نقلت إلى مصر فعرّفها المصريون كغيرها من الفنون التي أخذها المصريون عن العراقيين ، ولكن كان ابن الداية يختلف عن معاصريه من الكتاب ، فإنه لم يعتمد السجع ، ومع ذلك فقد كان يتفنن في الكتابة ، حتى جاءت بعض جملة مثالا للأسلوب العربي كقوله « إني سر من أسرار والدي كتّمه عن سائر الناس ، وأفضى به إليك ، وراك أهلا لستره عليه ، فلا تخفر ظنه فيه ^(١) » . وبجانب هذه الجملة المتينة التركيب نجد جملا ضعيفة غامضة لا تستقيم كتابتها مع قواعد النحو مثل قوله « وكانت أشفق النساء وأضبطن وأحسنهم تدبيرا فيما تتولاه » ^(٢) بدلا من « وأضبطن وأحسنهن » ، وقوله « جزاء ما قدمته ما تسمعيه مني » ^(٣) بدلا من « جزاء ما قدمته ما تسمعيه مني » على أننا لا نقطع بأن هذا الخطأ وقع من الكاتب نفسه ، وقد يكون من خطأ النساخ أو المطبعة .

ومع هذا فالكتاب هو البقية الباقية من الكتب الأدبية التي ألفت في هذا العصر إذ لم نعثر على كتاب كامل غير هذا الكتاب .

نستطيع أن نقول إن الحياة العلمية بمصر نقلت إليها من العراق

(١) المكافأة ص ٥١

(٢) شرحه ، ص ٥٢

(٣) المكافأة ، ص ٥٢

وعاشت مصر على ما أتجه العراقيون أو ما أخرجه المصريون تلاميذ العراقيين، كما كان للكتب التي تنقل من العراق إلى مصر قيمة خاصة يحدثنا ابن الداية أنه عقب وفاة والده يوسف بن إبراهيم، أرسل أحمد ابن طولون من يهاجم داره، ويحضر كل صناديقه عساه يجد شيئاً من كتب العراق^(١).

ومع أن مصر كانت موطن العلم والعلماء قبل الإسلام، وفيها اجتمعت ثقافات البلاد المختلفة، فإننا نجد مصر في هذا العصر الذي نؤرخه لا تعنى بشيء سوى هذه العلوم الدينية الإسلامية، ثم هذه العلوم العربية الخالصة، من نحو وصرف ورواية الأشعار، ولم تساهم مصر في العلوم الدخيلة القدر الذي ساهم به العراقيون مثلاً، ولم تنشط في مصر حركة الترجمة كما نشطت في الأقطار الأخرى، ولكن مما لا شك فيه أن المصريين كان لهم نصيب في حركة الترجمة وعلى الأخص كتب الطب والكيمياء وقد ذكرنا شيئاً من ذلك فيما قبل، كما ترجم في مصر التوراة إلى اللغة العربية، فقد روى المرحوم جورجى زيدان أن نزاعاً نشب في مصر بين طائفتين من طوائف الدين الإسرائيلي هما طائفة الربانية وطائفة القرائين، فأفادت هذه المجادلات اللغة العربية، إذ نرى رجلاً من كبار رجال الدين والعلم اليهودى هو سعيد الفيومى الإسرائيلي ينقل من العبرية إلى العربية كتب موسى الخمس وسفرى أشعيا وأيوب^(٢).

(١) المكافأة لابن الداية، ص ٤٨

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي، ج ٢، ص ٧٥

أما الكتب الفلسفية والمنطقية وغيرها وعلوم الفرس والهند فلم
ينشط لها المصريون في هذا العصر بالقدر الذي وجد في العراق، ولكنها
وصلت إليهم بعد أن نقلت إلى العربية في الأقطار الشرقية ، فتقبلها
المصريون بعد ذلك وساعدتهم في العصور التي تلي عصرنا هذا على أن
ينبع بينهم عدد كبير من الكتاب والمفكرين .

الباب الثالث

كتاب الرسائل والإِ نشاء

الفصل الأول

قبل الطولونيين

ظلت مصر — من الفتح الإسلامي إلى أن وليها أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ — تحت إمرة وال يعينه الخليفة ، ويساعد هذا الوالى فى تنظيم شئون البلاد عدد غير قليل من الموظفين ، وطبيعى أن تكون هناك مكاتبات بين الوالى فى مصر والخليفة فى عاصمة الخلافة ، ولا بد أن تكون هناك مراسلات بين الوالى والموظفين الآخرين فى مصر ، وهذه المكاتبات لم يصلنا شىء منها ، وإن كنا نقول إنها كانت أشبه شىء بأوامر ولوائح يصدرها الخليفة أو الوالى ، وكان يكتب هذه الرسائل فى مصر ككتاب الولاية . يقول المقرئى : لما كانت مصر إمارة ، كان بها ديوان البريد ، ويقال لمتولىه صاحب البريد ، وإليه مرجع ما يرد من دار الخلافة على أيدي أصحاب البريد من الكتب ، وهو الذى يطالع بأخبار مصر ، كما كان لبعض أمراء مصر كتب ينشون عنهم الكتب والرسائل ،^(١) ولم ينشأ فى مصر بعد ديوان الإِ نشاء . ولم

(١) خطط المقرئى ، ج ٣ ، ص ٣٦٨ .

يكن ديوان الإيـشـاء بالديار المصرية في مدة الخلفاء ، إذ كانت الخلافة يومئذ في غاية العز ، ورفعة السلطان ، ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة في جانبها ، والولايات الصادرة عن النواب في نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة من الولايات ، فلذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوفر الدواعي على نقله ، ولا تنصرف الهمم لتدوينه ، مع تطاول الأيام وتوالي الليالي ، (١) .

إذن نحن مضطرون إلى أن نمر بهذا العصر الطويل الذي يقدر بنحو قرنين دون أن نطيل الحديث عن هذه الرسائل التي كتبت إبانها ، فإن هذه الرسائل فقدت ، ولم يبق منها إلا شيء يسير جداً كهذه المكاتبات التي كانت بين عمرو بن العاص وبين الخليفة عمر بن الخطاب ، ولكننا مضطرون إلى أن نتحدث عن هذه الرسالة التي يزعم بعض المؤرخين أن عمرو بن العاص كتبها إلى عمر بن الخطاب ، فقد قيل إن الخليفة أرسل إلى الوالي يسأله أن يصف مصر بعد أن أتم فتحها ، فأجاب « ورد كتاب أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، يسألني عن مصر ، أعلم يا أمير المؤمنين ، أن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا ما أصلحتم عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى

(١) صبيح الأعشى للقلقشندى ، ج ١١ ، ص ٢٨

بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب، وخنفاف القوارب، وزوارق كأنهن في المخايل ورق الأصائل، فاذا تكامل في زيادته، ونكص على عقبه، كأول ما بدأ في جريته، وطها في درته، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة، وذمة مخفورة، يحرثون بطون الأرض، ويبدرون بها الحب، ويرجون بذلك النماء من الرب، لغيرهم ما سعوا من كدهم، فإله منهم بغير جدتهم، فإذا أصدق الزرع وأشرق، سقاه الندى، وغذاه من تحته الثرى، فبينما مصر — يا أمير المؤمنين — لؤلؤة بيضاء، إذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة رقصاء، فتبارك الله الخلاق لما يشاء. والذي يصلح هذه البلاد وينمها، ويقر قاطنيتها فيها، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها، وألا يستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها، فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال، تضاعف ارتفاع المال، والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل، (١).

ثم نجد المؤرخين يقولون إنه لما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب قال: لله درك يا ابن العاص! لقد وصفت لي خبراً كأنني أشاهده (٢). هذا ما يقوله المؤرخون والأدباء، ولكننا نشك في نسبة هذا الخطاب إلى عمرو بن العاص، لأننا إذا قارنا بين هذه الرسالة وبين ما رواه الأدباء والمؤرخون من أحاديث عمرو، يتبين لنا أنها لم تصدر عنه، ثم هناك ناحية فنية خالصة، ذلك أن كتاب هذا العصر اعتادوا

(١) النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٣٢

(٢) شرحه

أن يبدأ أو رسائلهم بحمد الله ، أما في هذه الرسالة فشذ الكاتب عن هذه القاعدة ، ولم يحمد الله ، ثم نرى كاتب الرسالة يبدوها بالدعاء لأمير المؤمنين ، وهذا لم نره في رسائل هذا العصر أيضا ، بل جاء الدعاء للخليفة في الرسائل متأخرا جدا ، وقد رأينا هذه الرسالة تشتمل على فقرات قصيرة مسجوعة ، يظهر فيها أثر الصنعة الفنية ، التي لم يعرفها العرب في صدر الإسلام أو أيام الأمويين ، بل جاءت نتيجة لتطور الحياة الفكرية عند العرب ، وامتزاجهم بغيرهم من الشعوب الأخرى ، فاختلقت الكتابة العربية بدخول الثقافات الأجنبية في العربية .

حقيقة عرف عمرو بن العاص بالفصاحة والذكاء ، حتى أن عمر ابن الخطاب كان إذا رأى رجلا يتلجلج في كلامه يقول « خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد » (١) ولكن هذا كله لا يجعلنا نقول إن عمرا هو الذي كتب هذه الرسالة ، ولعل أسطع دليل نستطيع أن نقدمه لتدعيم حجتنا ، هو أن نورد صورة خطاب يقول ابن عبد ربه في العقد الفريد (٢) إن عمرا أرسله إلى الخليفة عمر بن الخطاب وهذا نصه :

« من عمرو بن العاص إلى عبدالله ، أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشأ لي ، وإنه يعرفني قبل ذلك لا مال ، وإني أعلم أمير المؤمنين أني بأرض السعر فيه رخيص ، وإني أعالج من

(١) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٦٤

(٢) ج ١ ، ص ٢٦

من الحرقة والزراعة ما يعالج أهله ، وفي رزق أمير المؤمنين سعة ،
والله لو رأيت خيانتك حلالا ما خنتك ، فأقصر أيها الرجل ، فإن لنا
أحسابا هي خير من العمل لك ، إن رجعنا إليها عشنا بها ، ولعمري أن
عندك من تدم معيشته ، ولا تدم له ، فأنى كان ذلك ، ولم يفتح قفالك
ولم نشركك في عملك .

من هذا الخطاب نستطيع أن نلبس الفرق بين كتابته وكتابة
الخطاب الأول ، مما يجعلنا نرجح أن الخطاب الوصفي لم يكتبه عمرو
ابن العاص .

ويزعم بعض المؤرخين أن ديوان الإنشاء والرسائل وجد في
مصر منذ أن أنشئ بها الديوان أي منذ الفتح العربي ، وأن هذا الديوان
كان يكتب بالقبطية ثم نقل إلى العربية ، ومن يدعى ذلك لم يدرك تماما
ماهية هذا الديوان الذي أنشئ في مصر منذ الفتح ، كما أنشئ في غير
مصر من الأقطار الإسلامية . هناك فرق بين كتابة الدواوين وكتابة
الرسائل ، فالدواوين ماهي إلا ضرب من ضروب الحساب ، وثبت يكتب
فيه أسماء القبائل والعشائر والبطون ، وما يخص كل فرد من الفئ ، لهذا
لا نستطيع أن نتخذ هذه السجلات ككتابة فنية يتعمدها الكاتب ويزينها ،
ويظهر فيها صنعته الفنية ، فإن كتابة الديوان لا تحتاج إلى شيء من ذلك
وقل عن كتاب الخراج وكتاب المقياس ما قلناه عن كتاب
ديوان الجند .

الفصل الثاني

ديوان الإيـشاء في العصر الطولوني والإخشيدي

كان للطولونيين مطامع سياسية واسعة، عملوا على تحقيقها، حتى أدركوا شطرا منها فأتسعت بذلك دائرة أعمالهم، واضطروا إلى أن يصطنعوا عددا كبيرا من الكتاب يساعدونهم في القيام بهذا العبء الثقيل، لهذا اضطروا لولونيون إلى أن يؤسسوا ديوان الإيـشاء بمصر و فآحمد (يعني آحمد بن طولون) أول من آخذ في ترتيب الملك، وإقامة شعار السلطنة بالديار المصرية ولما شـمخ سلطانه، وارتفع بها شأنه، آخذ في ترتيب ديوان الإيـشاء، لما يحتاج إليه في المكاتبات والولايات (١)

وأول من تولى ديوان الإيـشاء بمصر هو أبو جعفر محمد بن آحمد ابن مودود المعروف بابن عبدكان، ولم يصلنا عن حياة هذا الرجل شيء، وكل الذين ذكروه اکتفوا بمدحه وذكر كفايته، فابن النديم يقول « كان بليغاً مترسلاً فصيحاً » (٢) ويقول القلقشندي « كان ممن اشتهر من كتّابهم (أي كتاب الطولونيين) بالبلاغة وحسن الكتابة، أبو جعفر محمد بن آحمد بن مودود ابن عبدكان كاتب آحمد بن طولون

(١) صبح الأعشى، ج ١١، ص ٢٨

(٢) الفهرست، ص ١٩٧

وكان مبدأ الكتاب المشهورين بهما (١) ، وفي مكان آخر يقول
« واستكتب ابن عبدكان ، فأقام منار ديوان الإنشاء ، ورفع
مقداره » (٢)

إذن تكاد تجمع النصوص التي وصلتنا عن ابن عبدكان أنه كان ماهرا
في صناعته ، بليغا في كتابته ، حتى أن القلقشندی روى أن أهل بغداد
كانوا يحسدون أهل مصر على طبطب المحرر وابن عبدكان ، يعنى
كاتب الإنشاء لابن طولون ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير
المؤمنين بمدينة السلام مثلهما (٣)

ومهما يكن في هذا القول من مبالغة ، فإنه يدل على أن رئيس ديوان
الإنشاء بمصر في العصر الطولوني كانت له شهرته في فن الإنشاء .
ولا ندرى من أين استقى ابن عبدكان علومه التي ساعدته على أن يكون
زعيم الكتاب في مصر ، ولا ندرى تماما أين نشأ ، ولكننا نستطيع
أن ندرك أن رجلا يشغل هذا المنصب الرفيع الذي شغله ابن عبدكان
لا بد أن يكون ملما بثقافة واسعة ، تؤهله لهذا المنصب ، لا سيما أن
الأمير أحمد بن طولون كان على جانب عظيم من العلم ، ولعل ابن عبدكان
كان أحد الذين يصدق فيهم قول ابن خلدون « إن صاحب هذه الخطة
لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم ،
وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة ، فإنه معرض للنظر في أصول العلم ، لما

(١) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٩٥

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٢٨

(٣) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ١٧

يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب ، والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترسيل . وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها ، (٤)

ولا أشك أن عددا كبيرا من الكتاب اطلعوا على رسالة عبد الحميد الكاتب ، التي وضعها نصيحة للكتاب تعينهم في مهمتهم ، فهو يقول عن العلوم التي يجب أن يحيط بها الكاتب «فتنافسوا يامعشر الكتاب ، وتفقهوا في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية . فإنها ثقاف ألسنتكم ، ثم أجدوا الخط ، فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار . واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها فإن ذلك معين لكم على ما تسموا إليه هممكم ، (١)

لكن هذه العلوم التي تحدث عنها عبد الحميد هي العلوم العربية التي كانت في عصره . إذ لم توجد بعد العلوم الإسلامية التي سميت بالعلوم الدخيلة التي كانت سببا في تطور الحياة الأدبية العربية . ففي العصور التي تلت عصر عبد الحميد نجد الكتاب يأخذون بحظوظ مختلفة من العلوم الأجنبية . التي نقلها المترجمون إلى العربية . وأقبل المسلمون على تفهمها وال أخذ منها . فقل أن تجد كاتباً لم يلم بالثقافة الفارسية أو الثقافة اليونانية وظهر أثر هذه الثقافات في الكتابة . ويقول الأستاذ الدكتور

(٤) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢١٥

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢١٦

طه حسين بك : فالكتابة في العراق وفي الحجاز نشأت عربية خالصة دعت إليها الحاجة . وكان تطورها نتيجة طبيعية لتطور العرب . ولتأثر العرب بالفرس واليونان . ولوجود هؤلاء الموالى الذين أخذوا بحظ من علوم بلادهم . ولكنهم تعلموا العربية . وكتبوا بها . فاضطروا إلى أن يدخلوا على العربية كثيراً مما ورثوه عن قوميتهم ، ومن تأمل في كتاب الدولة العباسية وجدهم جلهم من الموالى ،^(١)

أما مصر فكان لها شأن آخر فقد كانت يونانية العلم قبل الإسلام . وانتشر بها الأدب اليوناني ، والفلسفة اليونانية ، ولا أشك أن هذه الدراسات تركت أثراً قويا في العقلية المصرية ظل عدة قرون ، فاستقر بمصر ، ولا يمكن أن يمحي إلا مع الزمن الطويل ، قد لا نجد بين المصريين من نقل من كتب اليونان الفلسفية ما نقله غيرهم ، ولم تلق كتب الفلسفة في مصر الإسلامية الاقبال الذي كان في غير مصر ، ولكن المصريين منذ عهد البطالسة كانوا يذكرون الأدب اليوناني بما فيه من شعر ونثر وقصص ، والفلسفة اليونانية بما فيها من طبيعيات وإلهيات ، وعن اليونان أخذ المصريون نظم الكتابة ، وعن المصريين أخذ العرب الذين استقروا بمصر ، فاذا كان بعض كتاب العراق تأثر بالفارسية ، وبعضهم تأثر باليونانية ، فكاتب مصر لم يتزودوا من الثقافة الفارسية إلا من كان منهم عراقى أو فارسى النشأة ووفد على مصر بعد تمام تكوينه

وكانت مصر الإسلامية تسير نحو الأخذ بحظ وافر من العلوم ، فزاد عدد المشتغلين بها يوما بعد يوم ، فكان ذلك من الأسباب

(١) محاضرات الاستاذ الدكتور طه حسين بك سنة ١٩٣١ عن النثر العربي

التي وجهت الكتابة العربية في مصر إلى ناحية خاصة ، هي الناحية الفنية التي يتكلفها الكاتب ، ويتعمد تجميلها وزخرفتها ، وهذا ما نراه عند الكتاب الذين ظهروا في العصر الطولوني وما بعده ، كما كان ذلك سببا في أن كتاب مصر في هذا العصر كانوا يشبهون في كثير من الأحوال كتاب العراق الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، فرسائل ابن عبد كان مثلا كانت تشبه رسائل العراقيين ، إذ ظهر في أسلوبه جنسيات غير عربية ، كما تجد ذلك في رسائل العراقيين ، لهذا تستطيع أن تلمس التغيير الواضح في هذه الرسائل التي كتبها ابن عبد كان عن هذه الرسائل القديمة التي كتبت في صدر الإسلام ، فإنك تجد في كتابة ابن عبد كان شيئا من الفن الذي يحدث لذة عند القراء وعند السامعين ، لن تجدها في كتابة المتقدمين التي لم تكتب إلا لتؤدي معنى خاصا دون مراعاة تنسيق اللفظ .

قسّم ابن عبد كان رسائله إلى أجزاء أو فصول ، مثله في ذلك مثل تلاميذ مدرسة الجاحظ من كتاب العراق الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، كذلك يتفق الجاحظ وابن عبد كان في أن كتاباتهما تميل دائما إلى الاطناب والتطويل ، ولكنه ليس إطنابا ملاما ثقيلًا ، بل هو فن وقدرة على الكتابة ، كما كان ابن عبد كان يدخل الدعاء حشوا معترضا في كلامه ، ويتوجه إلى المخاطب بصيغة المفرد دائما ، أما جملة فقصيرة يزينها بالسجع غالبا ، ففي الخطاب الذي كتبه ابن عبد كان عن أحمد بن طولون إلى العباس بن أحمد بن طولون — حين ثار على أبيه — تجلي صورة الكتابة العربية السليمة ، التي تأثرت بما كان

في مصر من آثار الثقافة اليونانية وآثار الثقافة الأجنبية التي نقلت إلى العربية وهذا نص الخطاب:

من أحمد بن طولون ، مولى أمير المؤمنين ، إلى الظالم لنفسه ، العاصي لربه ، الملم بذنبه ، المفسد لكسبه ، العادى لظوره ، الجاهل لقدره ، الناكص على عقبه ، المركوس (١) في فتنته ، المنجوس من حظ دنياه وآخرته . سلام على كل منيب مستجيب ، تائب من قريب ، قبل الأخذ بالكظم ، وحلول الفوت والندم . وأحمد الله الذى لا إله إلا هو حمد معترف له بالبلاء الجميل ، والطول الجليل ، وأسأله مسألة مخلص فى رجائه ، مجتهد فى دعائه ، أن يصلى على محمد المصطفى ، وأمينه المرتضى ، ورسوله المجتبى ، صلى الله عليه وسلم (أما بعد) فإن مثلك مثل البقرة تثير المدينة بقرنها ، والنحلة يكون حنقها فى جناحيها ، وستعلم هبلك (٢) الهوايل ، أيها الأحق الجاهل ، الذى ننى على الغى عطفه ، وأغتر بضجاج المواكب خلفه ، أى موردة هلكة بإذن الله توردت ، إذ على الله جل وعز تمرتد وشردت ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلاً « قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتونها رزقها رغداً من كل مكان ، فكيفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، وإنا كنا نقربك إلينا ، وننسبك إلى بيوتنا ، طمعا فى إنابتك ، وتأميلا لفيئتك ، فلما طال فى الغنى إنهماكك ، وفى غمرة الجهل ارتباكك ، ولم نر الموعدة تلين

(١) الركب هو رد الشيء مقلوبا وقلب أوله على آخره

(٢) هبلكه نكاته

كيدك ، ولا التذكير يقيم أودك ، لم تكن لهذه النسبة أهلا ، ولا
 لا ضافتك إلينا موضعا ومجلا ، بل لا نكنى بأبي العباس إلا تكرها
 وطمعا بأن يهب الله منك خلفا نقلده اسمك ، ونسكنى به دونك ،
 ونعدك كنت نسيا منسيا ، ولم تك شيئا مقضيا ، فانظر — ولا نظر
 بك — إلى عار نسبه تقلدت ، وسخط من قبلنا تعرضت ،
 واعلم أن البلاء بإذن الله قد أظلك ، والمكروه إن شاء الله قد أحاط بك ،
 والعساكر بحمد الله قد أتتك كالسيل في الليل ، تؤذن بحرب وبويل ،
 فإنا نقسم — ونرجو أن لا نجور ونظلم — أن لا نثني عنك عنانا ،
 ولا تؤثر على شأنك شانا ، ولا تنوقل ذروة جبل ، ولا تلج بطن واد
 إلا جعلناك بحول الله وقوته فيهما ، وطلبناك حيث أممت منهما ، منفقين
 فيك كل مال خطير ، ومستصغرين بسبك كل خطب جليل ، حتى
 تستمر من طعم العيش ما استحلقت ، وتستدفع من البلايا ما استدعيت
 حين لا دافع بحول الله عنك ، ولا مزحزح لنا عن ساحتك ، وتعرف
 من قدر الرخاء ما جهلت ، وتود أنك هبنت ، ولم تكن بالمعصية عجلت
 ولا رأى من أضلك من غواتك قبلت ، فحينئذ يتفرى بك الليل عن
 صبحه ، ويسفر لك الحق عن محضه ، فتنظر بعينين لا غشاوة عليهما ،
 وتسمع بأذنين لا وقر فيهما ، وتعلم أنك كنت متمسكا بجبال غرور ،
 متهاديا في مقابح أمور ، من عقوق لا ينام طالبه ، وبغى لا ينجو هاربه ،
 وعذر لا ينتعش صريعه ، وكفران لا يودى قتيله ، وتقف على سوء
 رويتك ، وعظم جريرتك ، في تركك قبول الأمان ، إذ هو لك مبدول
 وأنت عليه محمول ، وإذ السيف عنك مغمود ، وباب التوبة إليك

مفترح ، وتتلطف والتلطف غير نافعك ، إلا أن تكون أجبت إليه
مسرعا ، وانقدت إليه منتصحا .

وإن مما زاد في ذنوبك عندي ، ما ورد به كتابك عليّ بعد نفوذى
على الفسطاط من التمويهات والأعالييل ، والعدّات بالأباطيل ، من
مصيرك بزعمك إلى إصلاح ما ذكرت أنه فسد عليّ ، حتى ملت إلى
الإسكندرية ، فأقمت بها طول هذه المدة ، واستظهارا عليك بالحجة ،
وقطعا لمن عسى أن يتعلق به معذرة علم بأن الأناة غير صادة ، ولا أنه
خالجنى شك ، ولا عارضنى ريب ، فى أنك أردت النزوح والاحتيال
للهرب ، والنزوع إلى بعض المواضع التى لعل قصدك إياها يُوديك ،
ولعل مصيرك إليها يكفينيك ، ويبلغ إلى أكثر من الإرادة فيك ، لأنك
إن شاء الله لا تقصد موضعا إلا تلوتك ، ولا تأتى بلدا إلا قفوتك ،
ولا تلوذ بعصمة تظن أنها تنجيك إلا استعنت بالله عز وجل فى جَد
حبلها ، وفصم عروتها ، فإن أحدا لا يؤوى مثلك ، ولا ينصره إلا
لأحد أمرين من دين أو دنيا . فأما الدين : فأنت خارج من جملة لمقامك
على العقوق ، ومخالفة ربك وإسقاطه . وأما الدنيا فما أراه بقى معك
من الخطام الذى سرقتة . وحملت نفسك على الإيثار به ، ما يتهبأ لك
مكأثرتنا بمثله ، مع ما وهب الله لنا من جزيل النعمة التى نستودعه تبارك
وتعالى إياها ، ونرغب إليه فى إنمائها ، إلى ما أنت مقيم عليه من البغى
الذى هو صارعك ، والعقوق الذى هو طالبك .

وأما ما منيتهاه من مصيرك إلينا فى حشودك وجموعك ، ومن
دخل فى طاعتك ، لإصلاح عملنا ، ومكافحة أعدائنا ، بأمر أظهر وافية

الشماتة بنا ، فما كان إلا بسببك ، فأصلح أيها الصبي الأخرق أمر نفسك قبل إصلاحك عملنا ، واحزم في أمرك قبل استعمالك الحزم لنا ، فما أوجنا الله وله الحمد إلى نصرتك ومؤازرتك ، ولا اضطررنا إلى التكثر بك على شقاقتك ومعصيتك « وما كنت متخذ المضلين عضدا » .

وليت شعري على من تهول بالجنود ، وتمخرق بذكر الجيوش ، ومن هؤلاء المسخرون لك ، الباذلون دماهم وأموالهم وأديانهم دونك ! دون رزق ترزقهم إياه ، ولا عطاء تدره عليهم ، فقد علمت — إن كان لك تمييز ، أو عندك تحصيل — كيف كانت حالك في الواقعة التي كانت بناحية أطرابلس . وكيف خذلك أولياؤك والمرزقة معك حتى هزمت فكيف تغتر بمن معك من الجنود الذين لا اسم لهم معك ، ولا رزق لهم على يدك ؟ فإن كان يدعوهم إلى نصرتك هيبتك والمداراة لك والخوف من سلطانك ، فانهم ليجذبهم أضعاف ذلك منا ، ووجودهم من البذل الكثير والعطاء الجزيل عندنا ما لا يجدونه عندك ، وإنهم لأحرى بخذلك . والميل إلينا دونك . ولو كانوا جميعاً معك ، ومقيمين على نصرتك ، لرجونا أن يمكننا الله منك ومنهم ، ويجعل دائرة السوء عليك وعليهم ، ويجربنا من عادته في النصر وإعزاز الأمر على ما لم يزل يتفضل علينا بأمثاله ، ويتطول بأشباهه . فما دعاني إلى الإرجاء لك ، والتسهيل من خناقك ، والاطالة من عنانك ، طول هذه المدة إلا أمران : أغلبهما كان على احتقار أمرك واستصغاره ، وقلة الاحتفال والاكتراث به ، وإن اقتصرت من عقوبتك على ما أخلقته بنفسك من الأباقي إلى أقاصي بلاد المغرب شريداً عن منزلتك وبلدك ، فريداً

من أهلك وولدك - والآخر أنى علمت أن الوحشة دعوتك إلى الانحياز إلى حيث انحزت إليه ، فأردت التسكين من نفارك ، والطمانينة من جأشك ، وعملت على أنك تحن إلينا حنين الولد ، وتثوق إلى قربنا توفان ذى الرحم والنسب ، فإن فى رفقنا بك ما يعطفك إلينا ، وفى تأخينا إياك ما يردك علينا ، ولم يسمع منا سامع فى خلاء ولا ملاء انتقاصا بك ، ولا غضا منك ، ولا قدحا فىك ، رقة عليك واستتما ليد عندك ، وتأميلا لأن تكون الراجع من تلقاء نفسك ، والموفق بذلك لرشدك وحظك ، فأما الآن مع اضطرارك إياى إلى ما اضطررتنى إليه من الانزعاج نحوك ، وحبسك رسلى النافذين بعهد كثير إلى ما قبلك ، واستعمالك المواربة والخداع فيما يجرى عليه تديريك ، فما أنت بموضع للصيانة ، ولا أهل للإبقاء والمحافظة ، بل اللعنة عليك حالئة ، والذمة منك بريئة ، والله طالبك ومؤاخذك بما استعملت من العقوق والقطيعة ، والاضاعة لرحم الأبوة ، فعليك من ولد عاق شاق لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين ، ولا قبل الله لك صرفا ولا عدلا ، ولا ترك لك متقلبا ترجع إليه ، وخذلك خذلان من لا يؤبه له ، وأثلك ولا أمهلك ، ولا حاظك ولا حفظك ، فوالله لأستعملن لعنك فى دبر كل صلاة . والدعاء عليك فى آناء الليل والنهار ، والغدو والآصال ، ولا كتبن إلى مصر وأجناد الشامات والثغور ، وقنسرين والعواصم والجزيرة والحجاز ومكة والمدينة كتبنا تُقرأ على منارها فىك باللعن لك ، والبرائة منك ، والدلالة على عقوقك وقطيعتك يتناقلها آخر عن أول ، ويأثرها غابر عن ماضى ، ويخلد فى بطون الصحائف ، ويحملها

الركبان ، ويُستحدث بها في الآفاق ، وتلحق بك وبأعقابك عارا ما اطرده الليل والنهار ، واختلف الظلام والأنوار . فحينئذ تعلم — أيها المخالف أمرأبيه ، القاطع رحمه ، العاصي ربه — أي جناية على نفسك جنيت ، وأي كبيرة اقترفت واجتنت ، وتمنى لو كانت فيك مُسكة ، أو فيك فضل إنسانية ، إنك لم تكن ولدت ، ولا في الخلق عرفت ، إلا أن تراجع من طاعتنا والإسراع إلى ما قبلنا ، خاضعا ذليلا كما يلزمك ، فنقيم الاستغفار مقام اللعنة . والرقعة مقام الغلظة والسلام من سماع الموعدة فوعاها ، وذكر الله فاتقاه ، إن شاء الله تعالى (١) .

ونجد في رسائل المصريين شيئا جديدا لم نعهده عند القدماء ، وكان له نظير عند كتاب العراق منذ القرن الثالث الهجري ، ذلك أن المصريين كانوا يفتتحون رسائلهم بالدعاء غالبا ، فدعاء بصلاح الدنيا وغبطة الآخرة ، أو الدعاء بكبت العدو ، أو بطيب الحياة إلى غير ذلك من الأمور التي تنوع بتنوع حال المرسل إليه ، كقول أحد الكتاب المصريين داعيا « أطال الله بقاءك ففي إطالته حياة الأنام ، وأنس الأيام والليالي ، وأدام عزك ، ففي إدامته دوام الشرف ونمو المعالي ، وأتم نعمته عليك ، فإنها نعمة حلت محل الاستحقاق ، ونزلت منزلة الاستيجاب ، ووقفت على من لا تكون الآلام مكانه ولا تنكر الفواضل محله . . . الخ (٢) »

وقد نجد بعض الكتاب يكتب مطر حا الدعاء بدوام النعمة لتقيدها

(١) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٥ ، وما بعدها

(٢) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ١٦٠

بموجباتها، كقول أحد الكتّاب «قد كفى الله عز وجل مؤنة الدعاء لنعمته بالنماء، لأنها توخت لديك محلها، فحلت بفنائك سارة، مطمئنة قارة، تستوثر مهادها قبلك، وتستهنىء مواردها عندك، ولم تزل تائقة إليك، متطلعة نحوك، بما استجمع لها من لطيف السياسة، وحسن الاحتمال لأعباء المغارم، فهناً كما الله متصلة البقاء، بطول مدة بقائك، ومتحلية بحسن فنائك، فلا زلت لعوارف النعم مستدعيا، وللشكر بالزيادة فيها متمريا، وبدوام الحمد لردفها مستمريا» (١)

وقد لا نجد هذا ولا ذاك، إذ يهجم بعض الكتّاب على موضوعه دفعة واحدة، ويكتب رسائله مفتتحا بقوله «كتابي إليك» أو «كتبت إليك».

أما في إجابة هذه الخطابات فنراهم يبتدون بقولهم «وصل كتابك» ويختمون بقولهم «إن رأيت أن تفعل كذا وكذا» أو «فرايك في كذا وكذا» وقد أفرد القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» بابا عن هذه المكاتبات التي كانت بين الأصدقاء أيام الطولونيين أو ما قاربها وقد أتى بصور كثير من الفنون المختلفة التي ذكرنا بعضها (٢)

ومن المكاتبات التي هي من خصائص مصر، المكاتبة بالبشارة بوفاء النيل، والبشارة في الركوب بفتح الخيلج. ولا يشارك مصر في ذلك غيرها من الممالك ولا يزال القائمون بالأمر في مصر من قديم الزمان يكتبون بذلك إلى ولاية الأعمال (٣)، ولكن لم يصلنا شيء من المكاتبات

(١) صبح الأعشى، ج ٨، ص ١٦١

(٢) صبح الأعشى، ج ٨، ص ١٦٠—١٦٦

(٣) صبح الأعشى، ج ٨، ص ٣٢٨

التي صدرت في العصر الذي تُوْرخه عن ذلك .

ظهر عدد كبير من الكتّاب أيام الطولونيين أمثال الحسن بن رافع ويعقوب بن إسحق كاتب موسى بن طولون ، وكان هذا الكتّاب فيما يقال يعرف زيج السندهند ، وعنده علم بالنجوم^(١) ، وجعفر بن عبد الغفار المصري ، وأحمد بن أيمن وكان كاتباً للعباس بن خالد البرمكي في حدائثه^(٢) وكثير غيرهم ، وقد ذكر بعضهم ابن الدايه في كتابه المكافأة . لم يكن هؤلاء الكتّاب جميعهم من مصر بل كان أغلبهم من العراق فأبو يوسف يعقوب بن إسحق كان من سرمن رأى ، وابن الدايه أصله من بغداد ، والحسين بن مهاجر كان من الرقة^(٣) ولكن كان ابن طولون يفضل أن يتخذ كتابه من المصريين مع قصورهم عن العراقيين ، فقد قيل إن ابن طولون استكتب جعفر بن عبد الغفار المصري ، ولكن هذا الكتّاب لم يستطع أن يؤدي عمله كما يجب ، ومع ذلك احتمله ابن طولون ، وقد سأله صديقه أحمد بن خاقان عن السر في ذلك فقال له الأمير ، أنا أحتمله لأنه مصري ! ، فقال ابن خاقان ، أراك أيها الأمير تفضل الكتّاب المصري على الكتّاب البغدادي ! ، قال ، لا والله ، ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه ، وأن يكون شمل الكتّاب فيه ، فإنه يجتمع له في ذلك البلد أمور صالحة ، منها أن تكون بطانة الكتّاب وحاشيته في ذلك البلد ، فيعود مرفقه على فريق من أهله ، ومنها رغبته في اعتقاد المستغلات به ، فيكون صفافاً

(١) سيرة ابن طولون لابن الدايه ، ص ١٤

(٢) المكافأة ص ٩٤

(٣) المغرب في حلي المغرب ، ج ٣ ، نسخة خطية بدار الكتب المصرية

لجنائياته ، وهو مع هذا وشمله ظاهرون ومستقرون في خدمتي ، والكاتب العراقي ليس كذلك ، لأنه يعتقد المستغلات في بلده النائي عنه وعنى ، وهو في كل وقت متطلع إلى بلده ، فهذا السبب زهدت في كتاب سر من رأى ، مع علمي بتقدمهم في الكتابة والرجاحة^(١).

وكان للكتاب في مصر في هذا العصر شأن كبير فيما جرى من حوادث ، وقد رأينا الكتاب الذين كانوا حول العباس بن أحمد ابن طولون من أمثال جعفر بن جدار ، وأحمد بن المؤمل ، ومحمد بن سهل المتوفى ، كانوا سبباً في قيام العباس ضد أبيه ، كما كانوا سبباً في هزيمته ، لأنهم لم يكونوا من رجال السيف ولا من رجال السياسة^(٢).

أما الذي تولى ديوان الانشاء في عهد خمارويه ، فهو علي بن أحمد المادرائي^(٣) ولكن هذا الكاتب لم يوفق إلى إرضاء خمارويه ، فتولاها إسحاق بن نصير العبادي^(٤) ، ويحدثنا ياقوت أن «إسحاق بن نصير الكاتب البغدادي كان كاتب الرسائل بديوان مصر بعد محمد بن عبد الله بن عبد كان»^(٥) ثم يروى عن ابن زولاق «وكان أبو جعفر محمد بن عبد الله ابن عبد كان على المكاتبات والرسائل منذ أيام أحمد بن طولون ، ومكاتباته وأجوبته موجودة إلى أن قدم عليه أبو يعقوب إسحاق بن

(١) سيرة ابن طولون ص ١٥

(٢) سيرة ابن طولون ص ٥٨

(٣) معجم الادباء ج ٢ ص ٢٣٧

(٤) المغرب في حلى المغرب ج ٣ مخطوط بدار الكتب ، ج ٤ ص ١٤

طبعة ليدن .

(٥) معجم الادباء ج ٢ ص ٢٣٧

نصير البغدادى من العراق ، والتمس التصرف ، فقال له ابن عبد كان :
فيم تتصرف ؟ فقال : فى المكاتبات والأجوبة والترسل ؛ وكان بين يدي
أبى جعفر كتب قد وردت ، فقال له : خذ هذه وأجب عليها . فأخذها
ومضى إلى ناحية من الدار ، فأجاب عنها ، ثم وضع خفه تحت رأسه
ونام ، وقام أبو جعفر إلى الحجره التى له ، فاجتاز به ، والكتب بين
يديه ، فأخذها وقرأها ، فلما تأملها جعل يروح إسحق بن نصير حتى
انتبه ، فقال له : عنم أخذت الكتبة ؟ وأجرى عليه أربعين ديناراً فى
كل شهر ، فلم يزل مع أبى جعفر ، إلى أن توفى أبو جعفر وانفرد بالامر
على بن أحمد المادرائى ، فقال لإسحق : إلزم منزلك وانصرف . فوردت
كتب فأجاب عنها على بن أحمد ودخل على أبى الجيش خمارويه ،
فعرضها عليه ، فقال له : ما هذه الألفاظ التى تخرج عنى ، فضى على
ابن أحمد وعاد إليه فما أراد أبو الجيش الجواب والاستزادة ، فخرج
على بن أحمد وقال : هاتوا إسحق بن نصير فجيء به ، فقال : أجب عن
هذه . فأجاب ، ودخل على بن أحمد على أبى الجيش فقرأ الأجوبة ،
فقال : نعم هذا الذى أعرف إيش الخبر ؟ فقال له : كاتب كان مع أبى
جعفر فاعتل وأحضرته الساعة . فقال هاته فأحضره ، فقال : كم
رزقك ؟ قال : أربعون ديناراً ، فقال لعلى بن أحمد : اجعلها له أربعائة
فى الشهر ، وقال لإسحق لا تفارق حضرتى . فمكث إسحق حتى صار
رزقه ألف دينار فى الشهر ، فكان يجود بذلك ، ويفضل به على الناس
وأرسل إلى بغداد إلى ثلاثة أنفس ، إلى أبى العباس المبرد ، وأبى العباس
ثعلب ، وإلى وراق كان يجلس عنده ، دفعة واحدة ثلاثة آلاف دينار لكل

واحد منهم ألف دينار وتوفي هذا الكاتب سنة ٢٩٧ هـ (١)

وكان إبراهيم بن عبد الله بن محمد النجيري زعيم كتاب الإخشيديين ، وكان هذا الكاتب نحويًا كلفا بالعلوم العربية الخالصة ، أخذ النحو عن الزجاج (٢) وأخذ عنه بعض المصريين أمثال أبي الحسين المهلبى وجنادة اللغوى وغيرهما (٣) فكان لدراسته هذه أثر فى كتاباته ، ومن إنشائه الخطاب الذى أرسله الإخشيد إلى المانوس ملك الروم ، وكان قد ورد على الإخشيد كتاب منه ، يفخر فيه ، ويزعم أن له المنة عليه ، فلما قرى هذا الخطاب على الإخشيد ، طلب من كتابه أن يجيبوه ، فأجاب عنه جماعة فلم يختار إلا جواب إبراهيم النجيري ، وكان عالماً بوجوده الكتابة (٤)

ومما جاء فى هذا الخطاب « من محمد بن طعج مولى أمير المؤمنين ، إلى المانوس (٥) عظيم الروم ومن يليه : سلام بقدر ما أنتم له مستحقون فإننا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ، (أما بعد) فقد ترجم لنا كتابك ، الوارد مع نقولا وإسحق رسوليك ، فوجدناه مفتوحاً بذكر فضيلة الرحمة ، وما نأمننا إليك ، وعمن شهننا فيها إليك ، وبما نحن عليه من

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ٢ ص ٢٣٧

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦

(٣) بنية الوعاة للسيوطى ص ١٨١ ، معجم الأدباء ج ١ ص ٢٧٨

(٤) المغرب فى حلى المغرب ج ٤ ص ١٨ طبع ليدن

(٥) هكذا فى المغرب وفى صبح الاعشى ج ٧ ص ١١ جاء إلى (ارمانوس)

وهو الامبراطور رومانوس لوكابينوس Romanus Lucapenus الذى ولى من عام ٩١٩م إلى عام ٩٤٤ م)

المعدلة وحسن السيرة في رعايانا ، وما وصلت به هذا القول من ذكر
القداء ، والتوصل إلى تخليص الأسرى ، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه
وتفهمناه . فأما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة ، فمن سديد القول الذي يليق
بذوى الفضل والنبل ، ونحن بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفون ، وإليه
راغبون ، وعليه باعثون ، وفيه بتوفيق الله إيانا مجتهدون ، وبه متواصون
وعاملون ، وإياه نسأل التوفيق لمرشد الأمور ، وجوامع المصالح بمنه وقدرته
وأما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة ، فإننا نرغب إلى
الله جل وعلا الذي تفرد بكمال هذه الفضيلة ، ووهبها لأوليائه ، ثم
أثابهم عليها ، أن يوفقنا لها ، ويجعلنا من أهلها ، ويسرنا للاجتهاد فيها
والاعتصام من زيغ الهوى عنها ، وعرة القسوة بها ، ويجعل ما أودع
قلوبنا من ذلك موقوفاً على طاعته ، وموجبات مرضاته ، حتى نكون
أهلاً لما وصفتنا به ، وأحق حقاً بما دعوتنا إليه ، ومن يستحق الزلفى
من الله تعالى فإننا فقراء إلى رحمته ، وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا ، وحمله
من جسيم الأمر ما حملنا ، وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا ، بمولانا
أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — أن يبتهل إلى الله تعالى في معونته لذلك ،
وتوفيقه وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده ، « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له
من نور » . وأما ما وصفتنا من ارتفاع محلك عن مرتبة من هو دون
الخليفة في المكاتب لما يقتضيه عظم ملككم ، وأنه الملك القديم الموهوب
من الله الباقي على الدهر ، وإنك إنما خصصتنا بالمكاتب لما تحققته من
حالنا عندك ، فإن ذلك لو كان حقاً كانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن
منزلة من تكاتبه ، وكان لك في ترك مكاتبتنا غم ورشد ، لكان من

الأمر البين أن أحظى وأرشد وأولى بمن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته . ولا يراه وصمة ، ولا نقيصة ، ولا عيبا ، ولا يقع في معاناة صغيرة من الأمور تعقبها كبيرة ، فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار ويخوض الغمار ، ويعرض مهجته فيما ينفع رعيته ،

والذي تجشمته من مكاتبنا إن كان كما وصفته فهو أمر سهل يسير ، لأمر عظيم خطير ، وجل نفعه وصلاحه وعائده تخصمكم ، لأن مذهبنا انتظار لإحدى الحسينين ، فمن كان منا في أيديكم فهو على يئنه من ربه ، وعزيمة صادقة من أمره ، وبصيرة فيما هو بسيله ، وإن في الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه ، وحميد عاقبته ، ويعلم أن الله تعالى قد أعاده من أن يفتنه ، ولم يعذه من أن يبتليه . هذا إلى أوامر الانجيل الذي هو إمامكم ، وما توجه عليكم عزائم سياستكم ، والتوصل إلى استنقاذ أسرائكم ، ولولا أن إيضاح القول في الصواب ، أولى بنا من المسامحة في الجواب ، لأضربنا عن ذلك صفحا ؛ إذ رأينا أن نفس السبب الذي من أجله سما إلى مكاتبة الخلفاء عليهم السلام من كاتبهم ، أو عدا عنهم إلى من حل محلنا في دولتهم ، بل إلى من نزل عن مرتبتنا ، هو أنه لم يثق من منعه ، ورد ملتتمسه ، بمن جاوره ، فرأى أن يقصد به الخلفاء الذين الشرف كله في إجابتهم ، ولا عار على أحد وإن جل قدره في ردهم ؛ ومن وثق في نفسه بمن جاوره ، وجد قصده أسهل السبيلين عليه ، وأدناهما إلى إرادته ، حسب ما تقدم لها من تقدم ، وكذلك كاتب من حل محلك من قصر عن محلنا ، ولم يقرب من منزلتنا فما لكنا عدة ، كان

يتقلد في سالف الدهر كل مملكة منها ملك عظيم الشأن . فمنها ملك مصر
الذى أطغى فرعون على خطر أمره ، حتى ادعى الألوهية ، واقتخر على
نبي الله موسى بذلك . ومنها ممالك اليمن التى كانت للتبابعة ، والأقبال
العباهلة : ملوك حمير ، على عظم شأنهم وكثرة عددهم . ومنها أجناد
الشام : التى منها جند حمص ، وكانت دارهم ودار هرقل عظيم الروم
ومن قبله من عظمائها ، ومنها جند دمشق على جلالاته فى القديم والحديث ،
واختيار الملوك المتقدمين له ، ومنها جند الأردن على جلالة قدره ، وأنه
دار المسيح صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والحواريين . ومنها
جند فلسطين وهى الأرض المقدسة ، وبها المسجد الأقصى ، وكرسى
النصرانية ، ومعتقد غيرها ، ومحج النصارى واليهود طرا ، ومتر داود
وسليمان ومسجدهما ، وبها مسجد إبراهيم وقبره وقبر إسحاق ويعقوب
ويوسف وإخوته وأزواجهم عليهم السلام ، وبها مولد المسيح وأمه
وقبرها . هذا إلى ما تتقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة
والدلالات الظاهرة ، فإننا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها ، وعظم
قدرها ، وما حوت من الفضل تُوفى على كل مملكة لأنها محج آدم ، ومحج
إبراهيم وارثه ومهاجره ، ومحج سائر الأنبياء ، وقبلتنا وقبلتهم عليهم
السلام ، وداره^(١) وقبره . ومنبت ولده ، ومحج العرب على مر الحقب ،
ومحل أشرفها . وذوى أخطارها على عظم شأنهم ، وفخامة أمرهم ،
وهو البيت العتيق المحرم ، المحجوج إليه من كل فج عميق ، الذى يعترف

(١) نلاحظ هنا أن الضمائر لا تستقيم مع ما قبلها وأرجح أنه سقطت بعض جمل
لم تثبت فى صبح الأعشى ولا فى المغرب .

بفضله وقدمه أهل الشرف ، من مضى ومن خلف ، وهو البيت المعمور ،
وله الفضل المشهور .

ومنها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم المقدسة بتربته ، وانها مهبط
الوحى ، وبيضة هذا الدين المستقيم الذى امتد ظله على البر والبحر ،
والسهل والوعر ، والشرق والغرب ، وصحارى العرب على بعد أطرافها
وتنازح أقطارها ، وكثرة سكانها فى حضرتها وباديتها ، وعظمتها فى
وفودها وشدتها ، وصدق بأسها ونجدتها ، وكبر أحلامها ، وبُعد
مرامها ، وانعقاد النصر من عند الله براياتها ، وأن الله تعالى أباد خضراء
كسرى ، وشرد قيصر عن داره ومحل عزه ومجده بطائفة منها

هذا إلى ما تعلمه من أعمالنا ، وتحت أمرنا ونهينا ثلاثة كراسى من
أعظم كراسيكم : بيت المقدس ، وأنطاكية ، والاسكندرية . مع ما إلينا
من البحر وجزائره ، واستظهارنا بأتم العتاد ، وإذا وفيت النظر حقه
علمت أن الله تعالى قد أصفانا بجمل الممالك التى ينتفع الأنام بها ،
وبشرف الأرض المخصوصة بالشرف كله دنيا وآخرة ، وتحققت أن
منزلتنا بما وهبه الله لنا من ذلك فوق كل منزله ، والحمد لله ولى
كل نعمة .

وسياستنا لهذه الممالك قريتها وبعيدها على عظيمها وسعتها بفضل الله
علينا ، وإحسانه إلينا ، ومعونته لنا ، وتوفيقه إيانا ، كما كتبت إلينا ،
وصح عندك من حسن السيرة ، وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات
من الأولياء والرعية ، ويجمعهم على الطاعة واجتماع الكلمة ، ويوسعها
الأمن والدعة فى المعيشة ويكسبها المودة والمحبة .

والحمد لله رب العالمين أولا وآخر اعلی نعمه التي تفوت عندنا عد
العادين ، وإحصاء المجتهدين ونشر الناشرين ، وقول القائلين ، وشكر
الشاكرين . ونسأله أن يجعلنا ممن تحدث بنعمته عليه شكرا لها ، ونشرا
لما منحه الله منها ومن رضى اجتهاده في شكرها ، ومن أراد الآخرة وسعى
لها سعيها ، وكان سعيه مشكورا إنه حميد مجيد .

وما كنت أحب أن أباهيك بشيء من أمر الدنيا ، ولا أتجاوز
الاستيفاء لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذي كرمه وأظهره ،
ووعدنا في عواقبه الغلبة الظاهرة ، والقدرة القاهرة ، ثم الفوز الأكبر
يوم الدين ، لكنك سلكت مسلكا لم يحز لنا أن نعدل عنه ، وقلت
قولا لم يسعنا التقصير في جوابه ، ومع هذا فإننا لم نقصد بما وصفناه
من أمرنا مكاثرتك ، ولا اعتمدنا تعيين فضل لنا نعوض به ، إذ نحن نكرم
عن ذلك ، ونرى أن نكرمك عند محلك ومنزلتك ، وما يتصل بها من
حسن سياستك ومذهبك في الخير ومحبتك لأهله ، وإحسانك لمن في
يدك من أسرى المسلمين ، وعطفك عليهم ، وتجاوزك في الإحسان
إليهم جميع من تقدمك من سلفك ، ومن كان محمودا في أمره ، رغب
في محبته ، لأن الخير أهل أن يُحب حيث كان . فإن كنت إنما تؤهل
ملكائتلك ومماثلتك من اتسعت مملكته ، وعظمت دولته ، وحسنت
سيرته ، فهذه ممالك عظيمة واسعة جمّة ، وهي أجل الممالك التي ينتفع بها
الأنام ، وسر الأرض المخصوصة بالشرف ، فإن الله قد جمع لنا الشرف
كله ، والولاء الذي جعل لنا من مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ،
مخصوصين بذلك إلى ما لنا بقديمتنا وحديثنا وموقعنا ، والحمد لله

رب العالمين الذى جمع لنا ذلك بمنه وإحسانه ، ومنه نرجو حسن السعى فيما يرضيه بلطفه ، ولم ينطو عنك أمرنا فيما اعتمدناه .

وإن كنت تجرى فى المكاتبه على رسم من تقدمك فإنك لورجعت إلى ديوان بلدك ، وجدت من كان تقدمك قد كاتب من قبلنا من لم يحل محلنا ، ولا أغنى غناءنا ، ولا ساس فى الأمور سياستنا ، ولا قلده مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ما قلدنا ، ولا فوض إليه ما فوض إلينا ، وقد كتب أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، وآخر من كتب تكوين مولى أمير المؤمنين ولم يكن تقلد سوى مصر وأعمالها .

ونحن نحمد الله كثيرا أولا وآخرا على نعمه التى يفوت عندنا عددها عد العادين ، ونشر الناشرين ، ولم نرد بما ذكرناه المفاخرة ، وليكننا قصدنا بما عددنا من ذلك حالات : أولها ، التحدث بنعمة الله علينا ، ثم الجواب عما تضمنه كتابك من ذكر المحل والمنزلة فى المكاتبه ، ولتعلم قدر ما بسطه الله لنا فى هذه المسالك ، وعندنا قوة تامة على المكافأة على جميل فعلك بالأسارى ، وشكر واف لما توليهم وتموخواه من مسرتهم إن شاء الله تعالى وبه الثقة ، وفقك الله لمواهب خيرات الدنيا والآخرة والتوفيق للسداد فى الأمور كلها ، والتيسير لصلاح القول والعمل الذى يحبه ويرضاه ويثيب عليه ، ويرفع فى الدنيا والآخرة أهله بمنه ورحمته .

وأما الملك الذى ذكرت أنه باق على الدهر لأنه موهوب لكم من الله خاصة ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وإن الملك كله لله يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من

يشاء وينزل من يشاء بيده الخير وإليه المصير ، وهو على كل شيء قدير .
وأن الله عز وجل نسخ ملك الملوك وجبرية الجبارين بنبوة محمد صلى الله
عليه وسلم وعلى آله أجمعين ، وشفع نبوته بالامامة ، وحازها إلى
العترة الطاهرة من العنصر الذى منه أمير المؤمنين أطال الله بقاءه .
والشجرة التى منها غصنه ، وجعلها خالدة فيهم يتوارثها منهم كابر عن
كابر ، ويلقىها ماض إلى غابر . حتى أنجز أمر الله وعده ، وبهر نصره
وكلمته ، وأظهر حجته ، وأضاء عمود الدين بالائمة المهتدين ، وقطع
دابر الكافرين ليحق الحق ، ويبطل الباطل ولو كره المشركون ، حتى
يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون الخ

ولعلك تلاحظ فى هذا الخطاب هذه الصنعة الفنية التى امتاز بها
كتاب الرسائل ، فكثيراً ما كان يُستعمل التكرار ، والإسراف فى
الإطناب ، والإسهاب فى المعنى الواحد ، كما نرى هذه الجملة القصيرة
المسجوعة التى تدل على أن الكاتب أجهد نفسه فى الكتابة ، وفى
الملاءمة بين المعانى والألفاظ .

وقد أعجب النجيرى نفسه بهذا الكتاب ، فنسخ منه نسخاً وأنفذها
إلى البصرة وأعمالها يفتخر به (١) .

ظل النجيرى النحوى يعمل فى خدمة الإخشيديين حتى اتصل
بكافور ومدحه ، قيل إن الفضل بن العباس دخل يوماً على كافور
الإخشيدى وأبو إسحق النجيرى عنده فقال الفضل : أدام الله أيام
سيدنا الأستاذ . ولحن فى كلامه بأن كسر الأيام ، فتبسم كافور ، فأنشد

أبو إسحق على البديهة :

لاغرو أن لحن الداعي لسيدنا

وغص من هيبه بالريق والبهر

فان يكن خفض الأيام عن دهش

من شدة الخوف لامن قلة البصر

فقد تفاعلت في هذا لسيدنا

والفأل نأثره عن سيد البشر

بأن أيامه خفض بلا نصب

وأن دولته صفو بلا كدر (١)

وقد أورد له ياقوت في معجم الأدباء بعض الأشعار ، كما نقل
الحصري في زهر الآداب كثيراً من كتاباته وأشعاره .

ونجد الكاتب محمد بن كلا يكتب للإخشيدي أيضاً (٢) ، ويسفر
بين الإخشيدي وبين ابن رائق ، وقد كان هذا الكاتب ثقة الإخشيدي
ورسوله إلى العراق ، ومع ذلك كان ممن نكبهم الإخشيدي «والإخشيدي
أول من أقام الراتب ونكب عماله وكتابه (٣)» ، قبض الإخشيدي على
ابن كلا آخر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة من الهجرة ، وصادره على
ثلاثمائة ألف دينار وقبض على أهله وصادرهم ، وقبض على جماعة كانوا
في داره وصادرهم أيضاً ، ولكن ابن كلا أقسم أن لا يدفع مال المصادرة
أو يلقى الإخشيدي ويراه ، فامتنع الإخشيدي أولاً ، وأغلظ ابن كلا في

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ٢٧٨

(٢) المغرب ص ٢٥

(٣) المغرب ص ٣٩

القسم . حتى أمر الإخشيدي بدخوله عليه ، فمروا به عليلاً يتوكأ على رجلين - وكان به عرج - فنظر إلى الإخشيدي ، وقال : أما أنا فقد استحييت ، فأطرق الإخشيدي ، وتم قبض المصادرة وأطلقه^(١) ، ولم يصلنا عن هذا الكاتب شيء نستطيع أن نعرف قيمة كتابته .

ومهما يكن من شيء فأنت ترى من ذلك كله أن النثر سهل ، واستطاع الكاتب أن يتصرف كيفما أحب ، دون أن يجد مشقة وجهداً ، كما أنا لا نجد مشقة في فهم جملة ، بل نجد استقامة في المعنى ، وخصوصية في هذه المعاني ، مما زاد في جمال الكتابة . كما أن الكتّاب استطاعوا أن يعبروا عما في نفوسهم ، وما تجيش به خواطرهم بسهولة في أسلوب في جميل يظهر فيه أثر صنعة الكاتب الفنية ، وقدرته على الكتابة في ألوان الفنون المختلفة

(١) المغرب ص ١٧

الباب الرابع

في الشعر

الفصل الأول

من الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة الأموية

وجد الشعر العربي بمصر كما وجد في غيرها من الولايات الإسلامية، ولكن الذي وصلنا منه قدر يسير، لا يكفي لأن نعرف منه خصائص الشعر المصري. ولا أن نفرق بينه وبين الشعر في الأقطار الأخرى، قد نجد في هذه الآيات القليلة التي وصلتنا بعض المعاني المصرية، وبعض الحوادث المصرية، التي تفرق الشعر المصري عن الشعر في البلاد الأخرى ويعطيه الصبغة الإقليمية المصرية، ولكن هذه الآيات أو المقطوعات لا تكفي لأن تدلنا على مدى تأثير الشعر العربي بالبيئة المصرية، وإن كانت تدلنا على أنه كان بمصر شعر متأثر بالحياة المصرية، ولكن هذا الشعر فقد، ولم يبق منه إلا مقطوعات قليلة متناثرة في كتب الأدب والتاريخ.

وأرجح أن أسباب ضياع الشعر المصري في هذا العصر هي نفس الأسباب التي جعلت الكتابة الفنية — أي كتابة الرسائل والانشاء — متأخر في مصر حتى قدوم أحمد بن طولون — ففى عصر الخلفاء الراشدين وعصر الأمويين والعباسيين كانت مصر ولاية ليس لها شأن

مقر الخلافة، وإذا نبغ شاعر أو كاتب كان يُحمَل إلى الخليفة أو يرحل هو إلى دار الخلافة لينال من العطاء والهبات ما كان يأخذه شعراء الخليفة أضف إلى ذلك عدم اكتراث المصريين في أول الأمر بدراسة الأدب والعلوم الأدبية، بل كان جل اهتمامهم يكاد ينصرف إلى الدراسة الدينية الخالصة، مما أضعف رواية الشعر ودراسته في مصر، وسبب ضياع أكثر شعر المصريين

وإذا أردنا درس تاريخ الشعر في مصر الإسلامية في العصر الذي تُوِرَّخه في هذا الكتاب، فسنبقى ثلاثة أدوار تطور فيها الشعر المصري تطوراً بيناً.

ففى الدور الأول الذى يبتدىء بالفتح إلى سقوط الدولة الأموية، لم يصلنا فى هذا العصر الذى ينوف على مائة عام إلا عدة أبيات قليلة جداً، لا نستطيع أن نتحدث بها عن الشعر كله، ولم تصلنا قصيدة كاملة، إلا إذا استثنينا شعر الشعراء الوافدين على مصر، والذين كان لهم أثر كبير فى ازدياد الحياة الأدبية فى مصر، ومع ذلك فهذه الأبيات القليلة التى وصلتنا إنما تدلنا على أنه كان فى مصر شعر، وأنه لم يعن أحد بروايته وحفظه ففقد.

ولعل أول قصيدة رويت فى مصر هى قصيدة أبى المصعب البلوى التى هجا بها أشراف مصر، وقد أعجب بها الخليفة معاوية بن أبى سفيان فكان إذا قدم عليه أحد من أهل مصر سأله أن ينشده هذه القصيدة (١) فالشاعر فى هذه القصيدة يعيب عرب مصر أنهم حضرميون، ليس لهم شرف ولا مجد وأنهم متكبرون، ولست أدرى سبب هذا الهجاء لكن

(١) فتوح مصر لابن عبد الحميد

يخيل إلى أنه طلب نوالهم فرفضوا عطاءه .

وظلت أنادى اللكعاء قيسا ليدخلني وقد حضر الغداء
وليس بماجد الجدات قيس ولكن حضرميات قماء
وأعرض نفحه اليربوع عنى يزيد بعد ما رفع اللواء
أشار بكفه اليمنى وكانت شمالا لا يجوز لها عطاء
أكلم عائذا ويصد عنى ويمنعه السلام الكهرياء
وجرف قد تهدم جانباه كريب ذاكم البرم العياء
وأما القحزى فذاك بغل أضربه مع الدبر الحفاء
وهذاك القصير من تجيب ولو يستطيع مانفض الخلاء (١)

يريد يزيد بن شرحبيل وقيس بن كليب الحاجب وعائذ بن ثعلبة
البلوى الذى قتل بالبرلس سنة ٣٥ ، والقحزى هو عمرو بن قحزم
وكريب بن أبرهة ، وأشار بالقصير إلى زياد بن حناطة التجيبى صاحب
القصر المعروف باسمه .

ولهذا الشاعر قصيدة أخرى مدح بها عبد الرحمن بن قيسية بن
كلثوم التجيبى الذى وهب أبوه داره ليكون مسجدا بالفسطاط وقد
ضاعت هذه القصيدة ولم يبق منها سوى بيت واحد .

وأبوك سلم داره وأباحها لجباه قوم ركع وسجود (٢)

هذا الشعر صدر من رجل لا تعرف إلا اسمه وهو قيس بن سلمة
المسكنى بأبي مصعب البلوى ، ولا ندرى أكان يقطن مصر كغيره من

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٢٣

(٢) خطط القريزى ج ٤ ص ٥

بطون ، بلي ، أم وفد عليها كباقي الشعراء الذين أكثروا من الوفود على مصر لمدح ولائها .

ومن الأشعار التي وصلتنا أيضاً في تصدق عبد الرحمن بن قيسية على المسلمين بداره لبناء مسجد الفسطاط ما قاله أبو قبان بن نعيم بن بدر التجيبي .

وبابليون قد سعدنا بفتحها وحزنا لعمر الله فيئاً ومغنيا
وقيسية الخير بن كلثوم داره أباح حماها للصلاة وسلماً (١)

وفي ولاية مسلمة بن مخلد ، سنة ثلاث وخمسين من الهجرة هدم ما كان بناه عمرو بن العاص من مسجد الفسطاط وأمر بالزيادة في المسجد الجامع وبناء منار المساجد كلها فقال عابد بن هشام الأزدي .

لقد مدت مسلمة الليالي على رغم العداة مع الأمان
وساعده الزمان بكل سعد وبلغه البعيد من الأمانى
أمسّمْ فارلقى لازلت تعلو على الأيام مسّمْ والزمان
لقد أحكمت مسجدنا فأضحى كأحسن ما يكون من المباني
فتاه به البلاد وساكنوها كما تاهت بزيتها الغواني
كأن تجاوب الأصوات فيها إذا ما الليل ألقى بالحران
كصوت الرعد خاطه دوى وأرعب كل محتطف الجنان (٢)

وكان بين الولاة من يحب الشعر ويرويه ، ومنهم من كان شاعرا كالوالى عقبة بن عامر الذي كان شاعرا ولكن منعه شدة حرصه على

(١) خطط القرظي ج ٤ ص ٥

(٢) شرحه ج ٤ ص ٧

دينه من أن يكثر من إنشاد الشعر (١)

ولعل أكثر ولاية مصر في هذا الدور حبا للشعر والشعراء هو الأمير عبد العزيز بن مروان الذي ولى من سنة خمس وستين ، إلى أن توفي بمصر سنة ست وثمانين هجرية ، فقد اتصل به كثير من الشعراء النابيين ومدحوه هو وآل بيته ، ولا غرو في ذلك فعبد العزيز كان إليه أمر الخلافة بعد أخيه عبد الملك ، فكان الشعراء يقصدونه وهو على مصر حتى يكون لهم شأن بعد أن تصير إليه الخلافة ، وكان عبد العزيز جوادا يبذل العطاء لكل من يقصده فوفد عليه الشعراء ، وهؤلاء الذين جاءوا مصر لم يقيموا بها إلا لآيام معدودة ، ثم عادوا إلى موطنهم

فمن جاء لمدح عبد العزيز بن مروان الشاعر أيمن بن خريم الأسدي أقام هذا الشاعر عند الوالى وأكثرت مدحه حتى قدم الشاعر نصيب بن رباح فأعجب الأمير بشعره ، وبينما نصيب ينشد مدحه جاء الحاجب يقول إن أيمن بن خريم بالباب فأذن له عبد العزيز فلما دخل قال له الأمير : يا أيمن كم ترى ثمن هذا العبد؟ وأشار إلى نصيب فنظر أيمن إليه وقال : « لنعم الغادى فى إثر المخاض هذا أيها الأمير أرى ثمنه مائة دينار . قال : فإن له شعرا وفصاحة . فسأل أيمن نصيبا : أتقول الشعر؟ فاجابه نصيب نعم ! فقال : قيمته ثلاثون ديناراً ، فقال الأمير يا أيمن أرفعه وتخفضه أنت ! قال : لسكونه أحقق أيها الأمير ما لهذا وللشعر أمثل هذا يقول الشعر أو يحسن شعرا ! فأمر عبد العزيز نصيبا أن ينشده فأنشده فقال عبد العزيز كيف تسمع يا أيمن ، قال : شاعر أسود هو أشعر أهل جلدته

(١) الولاية والفضاة للكندى ص ٢٧

قال الأمير « هو والله أشعر منك » وكرر ذلك فغضب أيمن وقال « والله أيها الأمير إنك للمول ظرف .. قال الأمير: كذبت والله ما أنا كذلك ولو كنت كذلك ما صبرت عنك تنازعي التحية وتواكفي الطعام وتسكى على وسادتي وفرشي وبك ما بك (١) . فاغتاظ أيمن واستأذن الأمير في الخروج إلى العراق فأذن له وسار أيمن إلى بشر بن مروان وإلى العراق ومدحه بقوله :

ركبت من المقطم في جمادى	إلى بشر بن مروان البريدا
ولو أعطاك بشر ألف ألف	رأى حقاً عليه أن يزيدا
أمير المؤمنين أقم ببشر	عمود الحق إن له عمودا
ودع بشراً يقوّمهم ويحدث	لأهل الزيغ إسلاماً جديدا
كأن التاج تاج بني هرقل	جلوه لأعظم الأيام عيدا
على ديباج خدى وجه بشر	إذ الألوان خالفت الحدودا (٢)

فأنت ترى أن الشاعر هنا عرض بعبد العزيز في قوله « إذ الألوان خالفت الحدودا » فإن عبد العزيز كان بوجهه نمش .

أما نصيب بن رباح فيقول الرواة إنه كان لبعض العرب من بنى كنانة فاشتراه عبد العزيز بن مروان منهم ، وقيل بل باعه عمه بعد أن مات أبوه إلى عبد العزيز ، وقيل إن نصيباً رأى في نفسه مقدرة على الشعر ، فحادث أمه أو أخته في الرحيل إلى عبد العزيز بمصر عساه يعتق أهل بيته ، فضحكت هذه ساخرة منه ، ولكنه أنشدها شعراً

(١) يقصد بذلك أن أيمن بن خريم كان به وضع

(٢) الأجنح ج ١ ص ١٢٧

أعجبت به ، واطمأنت إلى قدومه مصر فحضر باب عبد العزيز ولكنه لم يستطع الدخول ، حتى رأى رجلا حسن البزة ، فحادثه نصيب في التوسط له بالدخول على الأمير ، وعرفه أنه شاعر فاستنشده الرجل ، فلما أنشده نصيب شيئا من شعره استملحه الرجل ، ولكنه شك أن يكون مثل هذا الشعر لمثل هذا الأسود ، فطلب إليه أن ينشد شعرا يذكر فيه جوف مصر وبعض فضائلها ، ووعدته أن يستمع إليه في الغد ، فلما جاء الغد أنشد نصيب الرجل

سرى الهمم تثنيني إليك طلائعه بمصر وبالجوف اعترتني روائعه
وبات وسادي ساعد قل لحمه عن العظم حتى كاد تبدو أشاجعه
إلى أن قال :

وكم دون ذلك العارض البارق الذي له اشتقت من وجه أسيل مداغه
تمشى به أفناء بكر ومذحج وافناء عمرو وهو خصب مرابعه
إذا اکتحلت عينا محب بضوئه تجافت به حتى الصباح مضاجعه
وما زلت حتى قلت إني لخالع ولأئى من مولى نمتى قوارعه
وما نح قوم أنت منهم مودتى ومتخذ مولاك مولى فتابعه (١)

فأيقن الرجل صدق شاعرية نصيب ، وقدمه إلى الوالى ، فجرى له مع أيمن ما ذكرناه سابقا . على أن هناك رواية أخرى تقول إن نصيبا كان يرعى إبلا لمواليه ، فأضل منها بعيرا ، فخرج يبحث عنه حتى أتى الفسطاط ، وبه عبد العزيز ، فرغب فى الاتصال به ، فاستأذن فى الدخول فنع ، وبعد لآئى طلبه الأمير واستنشده فأنشده :

لعبد العزيز على قومه وغيرهم نعم غامره
فبإبائك ألين أبوابهم ودارك مأهولة عامرة
وكلكك أنس بالمعتفين من الأم بالابنة الزائرة
وكفك حين ترى السائلين أندى من الليلة الماطرة
فنك العطاء ومنى الشاء بكل محبرة سائرة (١)

فسر به الوالى وأعطاه واشترى ولاءه، ولكنهم مع هذا كله يروون روايات كثيرة عن خروج نصيب إلى عبد العزيز ، ومهما يكن من شيء فإن الشاعر اتصل بعبد العزيز حتى لقب بمولى عبد العزيز بن مروان، ولكنه لم يقيم عند الأمير عبد العزيز بمصر، بل كان كثير التنقل متكسباً ، بشعره كغيره من شعراء العرب ، ولم يزل نصيب يتردد على مصر بين الفينة والفينة ، ويمدح عبد العزيز حتى توفي الأمير متأثراً بالطاعون ، وكان قد هرب إلى قرية في الصعيد تسمى «سكر» خوفاً على نفسه من المرض ولكنه توفي بها (٢) فلها أتى نصيب نعي الأمير أنشد:

أصبت يوم الصعيد في سكر مصيبة ليس لي بها قبيل (٣)
تالله أنسى مصيبتى أبداً ما أسمعتنى حينها الأبل
لم يعلم النعش ما عليه من العرف ولا الحاملون ما حملوا
حتى أجوه في ضريحهم حين انتهى من خليلك الأمل (٤)

(١) الاغانى ج ١ ص ١٢٩

(٢) هكذا في الاغانى ج ١ ص ١٣٩ ولكن السكندى يقول إنه توفي بجلوان

(٣) يروى هذا البيت في كتاب الولاية للسكندى ص ٦٦ منسوبا إلى كثير في

ثناء عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وأبي بكر بن عبد العزيز بن مروان

(٤) الاغانى ج ١ ص ١٣٩

وقدرناه بقصيدة رائية أخرى منها:
عرفت وجربت الأمور فما أرى
كأض تلاه الغابر المتأخر
ولكن أهل الفضل من أهل نعمتي
يمرون أسلافاً أمامي وأغير
فإن أبك أعذر، وإن أغلب الأسي
بصبر، فشلى عند ما اشتد يصبر
وكانت ركابي كلما شئت تنتحي
جماحاً فتقضى نحبها وهي تضم
فقد عرّيت بعد ابن ليلي فأنما
ذراها لمن لاقت من الناس منظر
ولو كان حياً لم يزل بدفوفها
مرادا لغربان الطريق ومنقر
فإن كن قد نلن ابن ليلي فإنه
هو المصطفى من أهله المتخير

وقد أعجب بهذه القصيدة الخليفة عبد الملك بن مروان وكان
يطلب من نصيب أن ينشدها أمامه (١).

ووفد الشاعر عبد الله بن الحجاج (٢) على عبد العزيز بن مروان
بمصر ومدحه، فأجزل عطاءه، وأمره أن يقيم عنده، ولكن طال مقامه

(١) الأغانى ج ١ ص ١٣٩

(٢) الأغانى ج ١٢ ص ٢٩

واشفاق إلى ذويه بالكوفة ، فاستأذن الأمير في السفر فلم يأذن له ،
فاضطر الشاعر إلى أن يعصى أمر الأمير ، فقد غلبه الشوق ، فرحل
بدون إذن ، فاضطر الأمير عبد العزيز إلى أن يكتب إلى أخيه بشر وإلى
العراق أن يمنع عطاء ابن الحجاج ، واضطر الشاعر إلى أن يعود إلى
مصر مادحا عبد العزيز معترداً ، فصصح عبد العزيز عنه بعد أن استمع
لقصائده التي منها :

تركت ابن ليلى ضلة وجريمة وعند ابن ليلى^(١) معقل ومعول
ساحكم أمرى إذ بدا لي رشده وأختار أهل الخير إن كنت أ عقل
وأترك أوطارى وألحق بامرئ تحلب كفافه الندى حين يسال^(٢)

ثم أمر عبد العزيز أن يطلق عطاء الشاعر وأن يوصل وسمح له أن
يقيم أنى شاء .

وجاء مصر الشاعر كثير عزة وتردد عليها مراراً يمدح الأمير
عبد العزيز بن مروان ويقال إنه دخل على عبد العزيز يعود في مرضه
وأهله يتمنون أن يضحك فلما وقف عليه قال « لو أن سرورك لا يتم
إلا بأن تسلم وأسقم ، لدعوت ربى أن يصرف ما بك إلى ، ولكنى أسأل
الله تعالى لك العافية ولى في كنفك النعمة » فضحك عبد العزيز وسر
أهله^(٣) . وبينما كثير يتأهب للرحيل من مصر لقيته عزة في طريقها

(١) كان الأمير عبد العزيز يفتبط إذا ذكر أحد الشعراء اسم والدته (ليلى) في
شعره حتى روى أنه قال « لا أعطى شاعرا شيئاً حتى يذكرها في مدحى لشرفها »

(الاغانى ج ١ ص ١٣١) وكانت من بنى كلب

(٢) الأغانى ج ١٢ ص ٣٠

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٤٢٣

هي وقومها إلى مصر، قيل: فحادثها طويلاً ثم افترقا فقدمت هي مصر
وسافر هو إلى الحجاز على أن يلحق بها بمصر، ويحدثنا الحصري قال
وروى المداني، خرج كثير من الحجاز يريد مصر فلما قرب منها نزل
بمنزل فإذا هو بغراب على شجرة بان ينتف ريشه وينعب، فأسرع
الرحيل ومضى لوجهه، فلقبه رجل من بني نهد، فقال: يا أخا الحجاز
مالي أراك كاسف اللون. قال: ما علمت إلا خيراً. قال: فهل رأيت في
طريقك شيئاً أنكرته. قال: لا والله إلا في منزلي هذا فاني رأيت غراباً
ينتف ريشه على بانه ينعب. قال: أما أنك تطلب حاجة لا تدركها.
فقدم كثير مصر والناس منصرفون من جنازة عزة فقال:

رأيت غراباً ساقطاً فوق بانه ينتف أعلى ريشه ويطايره
فقلت ولو أني أشاء زجرته بنفسى للنهدى هل أنت زاجره
فقال غراب لا غراب من النوى وفي البان بين من حبيب تجاوره
فما أعيف النهدي لادر دره وأزجره للطير لا عز ناصره^(١)

ثم أتى قبر عزة فاناخ به ساعة ثم رحل وهو يقول:

أقول ونضوى واقف عند رأسها
عليك سلام الله والعين تسفح
فهذا فراق الحق لا أن تزيروني
بلادك قتلاء الذراعين صيدح
وقد كنت أبكي من فراقك حية
وأنت لعمري اليوم أناي وأنزح^(٢)

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٦٩

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٣٢٢

وهكذا شاء القدر أن تدفن عزة بمصر، وأن يبكيها كثير بها، والرواة يقولون إن شعره تغير بعد موتها، وسأله أحدهم: ما بال شعرك قد قصرت فيه؟ فقال: ماتت عزة فلا أطرب وذهب الشباب فلا أعجب ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب، وإنما الشعر عن هذه الحلال (١) وقدم جميل بن معمر إلى عبد العزيز مادحاً، فأذن له وسمع قصائده وأحسن جائزته، وسأله عن حبه لبثينة فذكر ولعه بها، وأمره الوالي أن يقيم معه في مصر وهياً له منزلاً وأجرى عليه رزقها، فما أقام إلا قليلاً حتى وافته منيته بمصر سنة اثنتين وثمانين من الهجرة ويقال إنه أنشد وهو يحتضر

بكر النعي وما كان بجميـل مشوى بمصر ثواء غير قفول
قومي بـثينة فاندبى بعويل وابكى خليلك قبل كل خليل (٢)

وكذلك وفد عبيد الله بن قيس الرقيات على مصر ومدح عبد العزيز وشاد بذكر مدينة حلوان التي بناها الأمير واتخذها مسكناً له .
سقياً لحلوان ذى الكروم وما صنف من تينه ومن عنبه
نخل مواقير بالفناء من الـبـرنى غلب تهمـتـز في شربه
أسود سـكـانه الحمام فما تنفك غربانه على رطبه (٣)

ومدح عبد العزيز بأشعار كثيرة جداً نجدها في ديوانه، من ذلك ما قاله لما خرج عبد العزيز خرجته الثالثة إلى الإسكندرية سنة إحدى وثمانين من الهجرة .

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٣٢٢

(٢) شرحه

(٣) خطط المقرئ ج ١ ص ٢٠٩ وديوان قيس الرقيات والسكندى ص ٥٠

غدوا من مَدْرَجِ الْكِرْيَوِ نَ حَيْثُ سَفِينِهِمْ حُزِقَ
 فَلَمَّا أَنْ عَلَوْنَ النَّيْلَ وَالرَّايَاتِ تَخْتَفِقُ
 رَأَيْتَ الْجَوْهَرَ الْحَكْمِيَّ وَالِدِيَّاجَ يَأْتَلِقُ
 سَفَائِنَ غَيْرَ مُقَرَّرَةٍ إِلَى حُلُوانِ تَسْتَبِقُ
 حَمَلٌ مِنْ يَحْمِلُ بِهِ لَذِيذُهُ عَيْشُهُ غَدَقُ
 يَحْمِلُ بِهِ ابْنُ لَيْلَى وَالنَّدَى وَالْحَلْمُ وَالصَّدَقُ^(١)

ونلاحظ أن الفرزدق لم يكن يحب الوفود على الأمراء ولكنه كان
 يود أن يفد على مصر وعمل شعرا في مدح عبد العزيز بن مروان، وهم
 الفرزدق أن يزور مصر ولكن جاءه نعي عبد العزيز فبقى مكانه ولم
 يأت مصر.

وقدر ثي الأمير كثير من الشعراء من ذلك ما قاله ذو الشامة محمد
 ابن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط يرثي عبد العزيز وابنه الأصبغ
 الذي توفي سنة ست وثمانين من الهجرة قبل وفاة أبيه بنحو شهرين:
 نقول غداة قطعنا الجفار والعين بالدمع مغرورقه
 مقال امرئ كاره للفراق ناع البلاد وباع الرقة
 أبعد الخليفة عبد العزيز وبعد الأمير كذا وابقه
 فما مصر لي بعد عبد العزيز والأصبغ الخير بالمونقه
 سقى الله قبريهما والصدى وما جاورا ديمة مغدقه
 فان تك مصر أشارت بها إلى الشر يوما يد موبقه
 فقد دما تفر بمصر العيون في لذة العيش محدودقه^(٢)

فأنت ترى كيف استطاع الأمير عبد العزيز بن مروان أن يجمع

(١) ديوان بن قيس الرقيات ص ٣٣٩

(٢) النكدي ص ٥٦

حواله عددا من الشعراء البارزين، وأن يجعلهم يتجشمون صعاب الطريق من بلادهم إلى مصر

وكذلك نقول عن الوالى عبد الله بن عبد الملك بن مروان الذى ولى مصر سنة ست وثمانين ، فقد وفد عليه الحزين الكنانى ، ويكنى سليمان أبا الشعثاء ومدح الوالى بقوله :

الله يعلم أن قد جبت ذا يمن ثم العراقين لا يثنى السأم
ثم الجزيرة أعلاها وأسفلها كذلك تسرى على الأهوال فى القدم
ثم المواسم قد أوطأتها زمنا وحيث تحلق عند الجمرة اللمم
قالوا دمشق ينيك الخبير بها ثم ائت مصر فثم النائل العمم
لما وقفت عليها فى الجموع ضحى وقد تعرضت الحجاب والحدم
حيثه بسلام غير مرتفق وضجة القوم عند الباب تزدهم
فى كفه خيزران ريحها عقب من كف أروع فى عرينه شمم^(١)

لم تعدم القبائل العربية التى قطنت مصر أن يظهر بينهم شعراء وقد هبّت الأسباب التى تدعو إلى وجود الشعراء ، تلك هى الفتن التى كانت فى مصر إذذاك ، كما كان الحال فى جميع البلاد الإسلامية . من ذلك أن عبد الرحمن بن جحدم ولى مصر من قبل ابن الزبير فلما أن بويع مروان ابن الحكم سنة أربع وستين من الهجرة أراد أن ينتزع مصر من الزبيرين فسير ابنه عبد العزيز إليها فحفر ابن جحدم خندقا حول القسطنطين سنة خمس

(١) الأغاني ج ١٤ ص ٧٦ وقيل إن هذه القصيدة للحزين فى رثاء عبد العزيز ابن مروان . ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فقد قيات هذه القصيدة فى مصر وكان الحزين بها .

وستين من الهجرة، وأرسل جيشاً عليه زهير من قيس البلوى إلى ابله ليمنع
عبد العزيز من المسير، وسار مروان أيضاً إلى مصر ولكن هزم الجيش
المصرى وتقدمت جيوش الروانيين^(١) ففى هذه الحروب قال بعض
عرب مصر شعراً، ولكن هذا الشعر لم يصلنا منه إلا النزر اليسير من
ذلك ما قاله زرعه بن سعد بن أبى زمزمه الحشنى يمدح ابن جحدم
وما الجد إلا مثل جد ابن جحدم وما العزم إلا عزمه يوم خندق
ثلاثون ألفاً هم أناروا ترابه وخذوه فى شهر حديث مصدق^(٢)
وما زال هذا الشاعر يتقم على الأمويين، حتى كانت ولاية عبد الله
ابن عبد الملك بن مروان، وشاءت الظروف أن ترتفع الأسعار بمصر
فتشامم المصريون بالوالى الجديد، وخرج الوالى سنة ثمان وثمانين إلى
أخيه الوليد فهجاه ابن أبى زمزمة بقوله .

إذا صار عبد الله من مصر خارجاً فلا رجعت تلك البغال الخوارج
أتى مصر والمسكيال واف مغربل فما سار حتى سار والمد فالج^(٣)
فغضب عليه الوالى وأهدر دمه فاضطر الشاعر أمام هذا الوعيد
إلى أن يهرب من مصر إلى بلاد المغرب حيث كتب إلى الخليفة :

ألا لا تنه عبس الله عنى كما قد قال يجمعنى نكالا

ولم أشتم لعبد الله عرضاً ولم آكل لعبد الله مالا^(٤)

وقيل إن عبد الله طلب الشاعر ابن أبى زمزمة فهرب منه فبلغ
الوالى أن عمران بن عبد الرحمن قاضى مصر أوى الشاعر وأن القاضى
هبجا الوالى بأبيات له منها :

(٢) الكندى ص ٤١ — ٤٢

(٤) شرحه

(١) الكندى ص ٤١ — ٤٢

(٣) شرحه ص ٥٩

أنا ابنُ أبي بدر بهجرة يثرب وهجرة أرض للنجاشي أفخر
أمثلي على سني وفضل أبوتي نسيت وهذا نجل مروان يذكر (١)
فعله عبد الله عن القضاء والشرطة سنة تسع وثمانين فقال عمران
يهجو عبد الله ويعرض بالقاضي الجديد عبد الواحد بن عبد الرحمن
ابن معاوية وكان حدثاً غير أنه كان فقيهاً .

لَحَى الله قوماً أمروك ألم يروا بأعطافك التخنيث كيف يريب
أتصرفني جهلاً عن الحكم ظالماً ووليتسه عجزاً فتاة تجيب (٢)
ثكلتك من وال وأيضاً ثكلته أميك في الناس الكثير نصيب (٣)
واستمرت الحروب التي كانت بين الزبيريين والأمويين في
مصر طويلاً وكانت تعرف هذه الحروب بأيام الخندق أو
« التراويح » (٤) لأن أهل مصر كانوا يقاتلون نوباً، يخرج هؤلاء ثم
يرجعون ويخرج غيرهم، وقتل من المصريين عدد كثير لا سيما من
« المعافر » وفي هذه الحروب قال عبد الرحمن بن الحكم وكان مروانياً
ألا هل أتاها على نأيا نباء التراويح والخندق
بلغنا بفيلق يغشى الطراب بعيد السمو لمن يرتقى
وسدت معافر أفق البلاد بمرعد جيش لها مبرق
ونادى الكماة ألا فابرزوا فحتم حتى ولا نلتقى (٥)

(١) الكندي ص ٣٢٨

(٢) أراد بفتاة تجيب القاضي عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج التجيبي

(٣) الكندي ص ٣٢٨

(٤) الكندي ص ٤٤

(٥) شرحه

وقام بعض المصريين بالصلح بين المروانيين والمصريين ولكن
المعافر لم يقبلوا أن يبايعوه، فقتل من المعافر نحو ثمانين رجلا بينهم
الأكدر بن حمام سيد لحم وشيخها فلما علم المصريون ذلك، لم يبق
أحد حتى لبس سلاحه، واجتمع على باب مروان أكثر من ثلاثين ألفا
فخاف مروان وأغلق بابه، وكاد المصريون يفتكون به لو لم يحججه كريب
ابن أبرهة. وفي رثاء الأكدر قال زياد بن قائد اللخمي:

كما لقيت لحم ماساها با كدر، لا يبعدن أكدر
هو السيف جرد من غمده فلاقي المنايا وما يشعر
فلهفي عليك غداة الردى وقد ضاق وِرْدُك والمصدر
وأنت الأسير بلامنة وما كان مثلك يستأثر (١)

ونرى شاعرا آخر لا يعرف اسمه يخاطب الخليفة الوليد بن عبد الملك
لما عزل أخاه عبد الله بن عبد الملك عن مصر وولى عليها قرة بن
شريك سنة ٥٩٠ هـ.

عجبا ما عجبت حين أتانا أن قد أمرت قرة بن شريك
وعزلت الفتى المبارك عنا ثم فيلت فيه رأى أيك (٢)
كذلك لم يصلنا شعر الشاعر المسور الخولاني وقد كان في أواخر
أيام الأمويين ووصلنا من شعره بيتان من قصيدة يخاطب ابن عم له
يخذره من الخليفة مروان بن محمد الذي قتل بعض أشرف مصر لأنهم
خلعوه وأرادوا غيره.

(٢) الكندي ص ٩٣

(١) الكندي ص ٤٦

فأياك لا تجنى من الشر غلظة فتودى كحفص أو رجاء بن الأشيم^(١)
فلا خير في الدنيا ولا العيش بعدهم فكيف وقد أضحوا بسفح المقطم
وقال الشاعر مرسل بن حمير يبيكى حفصاً وأصحابه :

يا عين لا تبقي من العبرات جودى على الأحياء والاموات
يا حفص يا كهف العشيرة كلها يأخا النوال وسائر العورات
إما قتلت فأنت كنت عميدهم والكهف للأيام والجارات
أودى رجاء لا كمثل رجائنا رجل ، وعقبة فارح الكربات
وشبابنا عمرو ، وفهد ذو الندى وابن السليط وعامر الغارات
قتلوا ولم أسمع بمثل مصابهم سروات أقوام بنو سروات
ظلت دماؤهم فلم يُعزج لهم تينٌ ولم يطلب لهم بجناة^(٢)
ولما قدم مروان بن محمد مصر في شوال سنة اثنتين وثلاثين
ومائة من الهجرة وجد أكثر أهل مصر قد سودوا ، فعزم على تعديفة
النيل فأمر بالدار المذهبة أن تحرق ، وكانت تسمى بالدار البيضاء ،
وهي التي بناها مروان بن الحكم حين دخل مصر سنة خمس وستين
هجريه ، فبكى شعراء مصر هذه الدار فمن ذلك ما قاله عيسى بن شافع
يا طللاً أقوى وحل البلى منه لدى العلو وفي السفلى
قد كنت مغنى لعيون المها وكنت مأوى لظبي الرامل
وكان أربابك ما إن لهم في الناس من نوع ولا شكل^(٣)

(١) هكذا في الكندي ص ٩١ والسكن عجز هذا البيت مكسور ولعل الصحيح
«أو رجاء بن أشيم» وحفص المذكور هو حفص بن الوليد الذي ولي على مصر مرارا
وكان رجاء عامله على الصعيد قتلها حوثة الباهلي سنة ١٢٨ هـ .

(٢) الكندي ص ٩١ ، ٩٢

(٣) الكندي ص ٩٥

وكان لبعض الولاة ولع باللهو والمجون وشرب الخمر ، كالوالى
قرة بن شريك الذى هدم الجامع العتيق بالفسطاط وأعاد بناءه ، فكان
الصناع إذا انصرفوا من البناء دعا قرة بالخمر والزمر والطبول ،
فيشرب الخمر فى المسجد طول الليل ، وهو يقول « لنا الليل ولهم النهار » (١)
وعن هذا الوالى قال السيوطى « كان قرة ظلوما عسوفاقيل كان يدعو
بالخمر والملاهى فى جامع عمرو » (٢) ولقد أغضب هذا الوالى جماعة
العرب بمصر ، فقال أحدهم فيه الشعر الذى ذكرناه (٣) ، ويحدثنا صاحب
الأغانى أن الأبحر المغنى كان متصلا بالخليفة الوليد بن يزيد ، فلما قتل
الوليد خرج الأبحر إلى مصر وما زال بها حتى مات (٤) ، ولكننا لا نعلم
أنه كان فى خدمة أحد من ولاة مصر وربما اضطره فنه إلى أن يطرب
المصريين ويشجيهم .

وقد فقد كل الشعر الغزلى وكل ما أنشد فى وصف حياة اللهو
والمجون فى مصر كما فقد غيره من الشعر فى هذا العصر .

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٨

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧

(٣) ص ١٣٢

(٤) الأغانى ج ٣ ص ١١٢

الفصل الثاني

من قيام العباسيين إلى دخول ابن طولون

دخلت مصر في طور جديد بعد أن جاءها صالح بن علي سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة ، وقتل بها مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وابتنى صالح بمصر داراً للإمامة ، ومدينة لعسكره ، صار ينزلها كل الأمراء من قبل العباسيين . ولكننا نلاحظ أن ولاية هذا العصر لم يمكثوا طويلاً في مناصبهم ، بل كانوا يعزلون بعد عام ، أو بعد بعض عام ، ويستبدل بهم غيرهم ، وحدث أن ولي مصر ثلاثة ولايات في سنة تسع عشرة ومائتين من الهجرة . وبلغ عدد الولاة الذين تولوا مصر في خلافة هرون الرشيد وحده نحواً من اثنين وعشرين والياً ، فقد جرى خلفاء العباسيين على سنة تغيير الولاة ، لخوف العباسيين من أن يطمح الولاة في الاستقلال بالبلاد ، لذلك لم يتمكن الولاة من إصلاح البلاد الداخلية ، وكثرت الفتن والاضطرابات ، فكانت مصر طوال هذا العصر مرجلاً يغلي بالثورات والفتن ، ففتن قام بها المصريون ، وثورات دبرها العرب ، وخاصة قبائل قيس الذين نزحوا في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، وثورات أخرى قام بها العلويون يطالبون بالخلافة ، كما عمل بعض الولاة للاستئثار بمصر ، كل هذه الحركات كانت سبباً في إيقاظ روح الشعر بمصر ،

وداعية لإثارة الحمية العربية ، بل العصية القبلية ، فجرى الشعر على
ألسن الشعراء متحدثين بما كان في البلاد من حوادث .

كذلك تطورت العلوم بمصر كما رأينا ، فبعد أن كانت دينية فقط
أصبحت في هذا الدور دينية أدبية ، ورحل كثير من المصريين إلى
العراق والحجاز في طلب العلم ، كما وفد كثير من علماء العراق والحجاز
إلى مصر ، وصار علماء الدين يحفظون الشعر واللغة والأخبار ، فالليث
ابن سعد مثلاً كان عربي اللسان ، يحسن القرآن والنحو ، ويحفظ
الحديث والشعر^(١) ، والمحدث ابن الوزير التجيبي كان محدثاً فقيهاً من
جلساء عبد الله بن وهب وكان عالماً بالشعر والأدب وأخبار الناس^(٢) ،
وعبد الحميد بن الوليد المصري المعروف بكيد والمتوفى سنة ٢٢١ هـ
كان فقيهاً عالماً بالأخبار والنحو^(٣) ، والشاعر سعيد بن عفير المصري
أخذ العلوم الدينية عن مالك وغيره وتلقى العلوم اللغوية والأدبية
عمن كان بمصر من العلماء كما كان حجة وثقة في علوم الحديث^(٤) ،
والشاعر المصري الحسين عبد السلام المعروف بالجميل الأكبر عرف
عنه شدة اتصاله بالإمام الشافعي وكان أحد رواة^(٥) . فكما كانت
الحياة العقلية تتطور في العراق في هذا العصر تطوراً كبيراً ، وانتشرت
العلوم العربية والثقافات الأجنبية في العراق ، وأنشأ المأمون بيت الحكمة

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٠

(٢) » » ج ١ ص ١٥٩

(٣) » » ج ١ ص ٢٢٤

(٤) » في مواضع متفرقة .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٠

ليكون مركز الحركة العلمية، وتأثر شعراء العراق والعلماء بهذه الألوان المختلفة من الثقافة، نجد مصر تتطور أيضا ولكنها تأخذ بحظ قليل من الثقافات الأجنبية، وبوسط عظيم من الثقافة العربية وكان لهذا أثره في الشعر.

وبينا نجد الحياة في العراق أدت إلى تطور الشعر في العصر العباسي، ونجد في الشعر مدرستين متمايزتين إحداهما تعنى بالألفاظ المنمقة، وتسرف في الزينة البديعية، حتى تطرب الأذن ويلذ العقل من نغمات موسيقى الشعر وموسيقى اللفظ، وأسرف بعض شعراء هذه المدرسة حتى أنه لا يكاد يخلو بيت من شعرهم من غير جناس أو مطابقة أو تمثيل، إلى غير ذلك من أنواع البديع، فأجهدوا أنفسهم في التوفيق بين زينة اللفظ وزينة المعنى، فوفقوا حيناً، وأخفقوا حيناً آخر حتى ذهب بعض النقاد إلى أن أباتمام ومسلم بن الوليد ومن ذهب مذهبهما أفسدوا الشعر لكثرة البديع في أشعارهم، أما المدرسة الأخرى فقد جددت أيضا في الشعر، ولكنها تجديد يخالف تجديد الآخرين، إذ رأى أصحاب هذه المدرسة أن الغرض من الشعر ليس في موسيقى اللفظ بل بما يؤديه الشعر من المعاني، فاستعاضوا عن الألفاظ الضخمة التي نراها في شعر الجاهليين وشعر صدر الإسلام والأمويين، بألفاظ سهلة رشيقة تلائم الحياة الناعمة المترفة التي حياها الناس في عصر العباسيين، حتى ألفت الناس النعومة واللين في كل شيء، فتبع هؤلاء الشعراء تطور الحياة، وجددوا في شعرهم تجديدا يلائم حياة عصرهم، وأنشدوا شعرا استطاع أن يألفه الناس، ويفهمه العامة، بل نرى بعض

أصحاب هذه المدرسة قد تهكم بالقدماء وبأسلوبهم وشعرهم .

أما في مصر فكان الغالب عليهم العناية بالمعاني ، وقل أن نجد في شعرهم أنواع البديع التي نراها في شعر تلاميذ مسلم وأبي تمام ، ولم يبدع خيالهم من التشبيهات ما زينوا به أقوالهم ، فجاء شعرهم طبيعيا لا تكلف فيه ، فلم يتعمد الشعراء أن يتكلفوا الشعر .

ولعل تطور الحياة في مصر ، واختلافها عن الحياة البدوية ، كان له أثر واضح في ألفاظ الشعراء المصريين فهي ليست بألفاظ شعبية كألفاظ أبي نواس والرقاشي ومن ذهب مذهبهما ، وليست جافة ضخمة كالتي نراها في شعر الجاهليين ، بل هي ألفاظ بين الضخامة واللين ، والمعاني التي نراها في الأشعار المصرية التي وصلتنا هي معاني مصرية تتحدث في حوادث مصر ، وتظهر فيها بعض الخصائص المصرية التي لا نجدها في شعر سوى الشعر المصري ، بل لا تصدر إلا عن شاعر مصري أو أقام في مصر وتأثر بها ، ولا أجد في الشعر المصري في هذا العصر ذكر الدمن والأطلال التي ملئ بها الشعر العربي ، ولا نجد في الشعر المصري تقسيم القصيدة الواحدة إلى غزل أو خمريات ، ثم وصف الدمن فالصحراء فالابل إلى غير ذلك مما نراه في قصائد العرب . فالذي ألاحظه أن المصريين قصدوا إلى غرضهم دون تمهيد له ، وقد يكون هذا الرأي غير صحيح لأن الشعر المصري فقد ، ولم يبق منه إلا صور قليلة جدا ، لا تكفي لأن نستدل بها على حياة الشعر في هذا العصر ، ولكن حكى هو على ما وجدته ، وهو حكم لا أتشبهت به ، فربما نعتز على بعض الإشعار التي نهدم بها هذا الرأي .

ومهما يكن من شيء فإن الشعر الذي وصلنا في هذا العصر يعطينا صورة لما كانت عليه الحالة في مصر السياسية والاجتماعية والأدبية ، ثم تدلنا على أن الشعر المصرى ابتداءً ينمو ويقوى ويتأثر بالبيئة المصرية الخالصة ، ويعبر عما كان بمصر من اتجاهات وخواطر مختلفة ، وألوان الثقافات المتعددة ، وضروب الحركات السياسية وغير السياسية ، وليس أدل على ذلك من هذه الأشعار التي قيلت في الاضطرابات العديدة التي كانت في مصر في ذلك العصر .

أثر الفتن في الشعر

نستطيع أن نقسم الفتن التي كانت بمصر في هذا العصر إلى :

١ - ثورات سياسية - إن صح هذا التعبير - كان يقوم بها قبائل العرب ضد الولاة والأمراء لجور أحكامهم ، وسوء سياستهم ، من ذلك ما كان في ولاية موسى بن مصعب الخثعمي الذي ولى في أواخر سنة سبع وستين ومائة من الهجرة ، فقد تشدد الوالى في جمع الخراج ، وزاد على كل فدان ضعف ما كان أولاً ، وجعل خراجاً على أهل الأسواق وعلى الدواب . وعاد إلى الرشوة في الأحكام ، فأظهر الجند كراهته ، ولم يستطع عماله أن يدخلوا الحوف ، وتحالف القيسية واليمينية على قتاله ، واتفق أهل الحوف أيضاً مع جند الفسطاط على الثورة ضد هذا الوالى ، فخرج موسى مع جنده لقتال الثائرين فانهمزم جند الفسطاط عنه و قتل الوالى سنة ثمان وستين ومائة من الهجرة بعد عشرة أشهر من ولايته ، هذا الحادث كان له أثر في الشعر ، إذ أنشد الشعراء في ذلك مترمين باتصار

أهل الحوف من ذلك ما قاله سعيد بن عفير :

ألم ترهم ألوت بموسى سيوفهم وكانت سيوف لا تدين لمترف
فما برحت به تعود وتبتدى إلى أن تُروى من حمام مُدَّتَف
فأصبح من مصر وما كان قد حوى بمصر من الدنيا سليبا بنفنف
ولكن أهل الحوف لله فيهم ذخائر إذ لا ينفذ الدهر تعرف^(١)
وفى ولاية الحسين بن جميل امتنع أهل الحوف من أداء الخراج
سنة إحدى وتسعين ومائه من الهجرة، وخرج أبو الندى مولى «بلي»،
في نحو ألف رجل يقطع الطريق وأغار على بعض قرى الشام وساعده
في ذلك رجل من جذام يقال له المنذر بن عابس وآخر يدعى سلام
النوى، فكثرت فسادهم، وأوقعوا الرعب في نفوس المصريين جميعا،
فبعث هرون الرشيد بقائده يحيى بن معاذ لقمع هذه الحركة ولاخضاع
أهل الحوف، فتم ليحيى ذلك وقدم الفسطاط ومعه أبو الندى وابن
عابس فدح الشعراء القائد يحيى فمن ذلك ما قاله أبو عثمان السكري:
يا قيس عيلان إني ناصح لكم أدوا الخراج وخافوا القتل والحربا
إني أحذركم يحيى وصولته فما رأيت له تنقيا إذا غضبا
وقال أيضا:

قد جينا قيساً ولم تك تجي فقتلنا أبا الندى وابن عابس
وتركنا لحما وحى جذام لا يطيقون رفع كف تلامس*
آمن الله بالمبارك يحيى حوف مصر إلى دمشق فبالس
وأباد الخلاج من كل أرض بعد ما حاد عنهم كل فارس^(٢)

(١) الولاية للكندي ص ١٢٧

(٢) الكندي ص ١٤٥

وقد يطول بنا الحديث عن هذه الثورات الكثيرة التي كان يقوم بها عرب مصر ضد الولاة والحكام ، ولكن أرى أن ألم بثورة الجروى التي شغلت ولاة مصر والخلافة العباسية مدة طويلة^(١) ، فقد كان عبدالعزيز ابن الوزير الجروى صاحب الشرطة بمصر في ولاية المطلب الخزاعى سنة ثمان وتسعين ومائة من الهجرة وعزل بعد قليل ، وبعث على رأس الجيش لمحاربة أهل الخوف ، ثم أعيد إلى الشرطة سنة تسع وتسعين ومائة في ولاية العباس بن موسى ، ولكن الجند ثاروا ، وأجمعوا على تولية المطلب الخزاعى مدة أخرى فاضطر الجروى إلى الهروب إلى تيس ، فلما تم الأمر للمطلب وأطاعه وجوه أهل الخوف ، أرسل إلى الجروى بعقده على تيس ، وأمره بالحضور إلى القسطنطينية ، فامتنع الجروى فبعث المطلب بوال آخر على تيس ، فلم يستطع دخولها ، وسار الجروى لمحاربة السرى بن الحكم الذى أرسله الوالى لحرب الجروى ، فأسر السرى وسجن ، وتوالت جيوش الوالى لحرب الجروى فكانت تهزم الواحدة تلو الأخرى ، وجد الوالى فى أمر الجروى فأخرج الجروى السرى بن الحكم من السجن بعد أن تعاهدا على أن يخلعا الوالى ويخلفه السرى ، وبعد حروب طويلة ، أرسل الوالى فى طلب الأمان من السرى على أن يسلم إليه الأمر ، ويخرج عن مصر ، وقد تم ذلك وخرج المطلب الخزاعى إلى مكة وفى هذا أشار دعبل الخزاعى بقوله :
فكيف رأيت سيوف الجريش ووقعة مولى بنى ضبة^(٢)
أحجتك أسيافهم كآرها ومالك فى الحج من رغبة

(١) نجد ثورة الجروى فى السكندى ص ١٥٥ وما بعدها.

(٢) مولى بنى ضبة هو السرى بن الحكم .

وتم أمر مصر إلى السرى في رمضان سنة مائتين من الهجرة ،
فطلب الوالى إلى الجروى أن يذهب لتأديب لحم بالاسكندرية ، وكاد
الجروى يفتح حصنها فخشى السرى أن يملكها الجروى ، فأوعز إلى
أحد رجاله أن يخالف الجروى ، فاضطر الجروى إلى أن يرجع إلى
تنيس سنة إحدى ومائتين وفسد ما بينه وبين السرى وفي ذلك قال
سعيد بن عفير :

ألا من مبلغ الجروى عنى	مغلغلة يعاتب أو يلوم
أقت تنازل الأبطال حتى	تميز ذو الحفيظة والسؤوم
وصلت بهم فها هنت قواهم	وطير الموت دائرة تحوم
ولو هجمت جموعك حين حلوا	عليهم باد جمعهم المقيم
وكيف رأيت دائرة التواني	أتتك بصحو نحس لا يقيم
أتاك وقد أمنت ونمت كيدا	لصل لا ينسام ولا ينيم

ثم ولى سليمان بن غالب مصر في ربيع الأول سنة إحدى ومائتين
فحاربه السرى بن الحكم ، ولكن هزم السرى وأسر هو وابنه ميمون
وسجنا في إخميم واستقام الأمر لسليمان فقال المعلى الطائى فى ذلك :
إذا شن فى أرض سليمان غارة أثار بها نقعا كثير المصائب
ألم تر مصرا كيف داوى سقيمها على حين دانت للعدو المناصب
حماها ولولا ما تقلد أصبحت حبسا على حكم القنا والمقائب
ولكن أعيد السرى مرة أخرى للولاية ، وهرب سليمان إلى
الجروى ، وانتقم السرى من كل أعدائه فأخذ يقتلهم ويصلبهم ، حتى
قامت فتنة ابراهيم بن المهدي ببغداد ، واتصل ابراهيم بالجندى فى مصر ،

وأمرهم بخلع المأمون، والوثوب بالسرى، فلبى دعوته جمع من
المصريين منهم الحارث بن زرعة بالفسطاط والجروى بالوجه البحرى
وسلامة الطحاوى بالصعيد وعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدى،
فحاربوا السرى، وملك الجروى الاسكندرية، وأخرج الطحاوى
عمال السرى من الصعيد، وسار الجروى حتى التقى بجيش السرى
بشطنوف فهزم السرى سنة ثلاث ومائتين وقتل ابنه ميمون بن السرى
فرثاه معلى الطائى بقوله:

لو رَدَّ غَرْبَ مَنِيَّةٍ بِشِجَاعَةٍ أَحَدٌ لِدَافِعِ رَكْنِهَا مَيْمُونُ
لو كان تجريد السيوف يردها لثمها منها منصل وثمين
مازلت أطمع في رجوعك سالماً ويروغنى شفقاً عليك ظنونى
فَلْيُفِجَعَنَّ غَدًا بِقَتْلِكَ طَاهِرٌ (١) وليفجعن بقتلك المأمون

وقال أبو نجاد الحارثى فى ذكر هذه الحروب:

جَمَعَ رَعَاكَ يَا سَرَى فَإِنِهَا حرب تحس سعيرها قحطان
قتلوا أبا حسن وجروا شلوه كالكلب جر بشلوه الصبيان
ولت تجيب وأسلمته جياها عيلان يوم تواكلت عيلان
فاستخرجوه ملياً فأتى به يجرى ويهرج حوله السودان
أبشر فإن أفول نجمك بعده عرض السماء ونجمك الدبران
لا تبك فالعقبى لاختوته غداً أو بعده فكما تدين تدان
وأشرف الجروى على الفسطاط وأراد أن يحرقها فخرج إليه
الفقهاء وسألوه الكف عن ذلك فانصرف عنها، ثم علم أن أهل

(١) هو طاهر بن الحسين قائد المأمون

الإسكندرية أخرجوا عامله ، ودعوا للسرى ، فسار إليهم في رمضان سنة ثلاث ومائتين ، وثار القبط بسخا فهزمهم الجروى فمدحه المعلى الطائى بقوله يخاطب الخليفة المأمون .

فقل لأمير المؤمنين نصيحة وما حاضر شيئا كآخر غائب
لقد حاطنا عبد العزيز بسيفه ولولاه كنا بين قتل وناهب
وسار الجروى إلى الاسكندرية فقتل في سنة خمس ومائتين واستطاع
السرى أن يهزم سلامة الطحاوى الثائر بالصعيد وفى ذلك قال المعلى
أراد الطحاوى التى لا شوى لها فأوقد نارا كان بالنار صاليا
ودب لأفطار البلاد بفتنة فجاشت بسقم لا يجيب مداويا
وراسله من كان يحفى بفاقة وأصبح ذا ميل إليه ماليا
جنت ما استحق القتل ياصاح كفه وكل امرىء يجزى بما كان جانيا

وتوفى السرى بالفسطاط بعد قتل الجروى بثلاثة أشهر وولى بعده
ابنه أبو النصر بن السرى ، وكان على بن عبد العزيز الجروى قد خلف
أباه ، فأرسل ابن السرى جيشا لمحاربة ابن الجروى ولكن هزم هذا
الجيش ، واكتفى ابن الجروى بذلك فلم يتبع الجيش المنهزم ، وحق
بعض المصريين عليه لذلك وظهر هذا فى قول سعيد بن عفير يخاطب
ابن الجروى

ألا من مبلغ عنى عليا رسالة من يلوم على الركوك
علام حبست جمعك مستكفا «بشط ينوف» فى ضنك ضنيك
وقد سنحت لك الغفران من رماك بجيشه الوهن الركيك
أمن بقيا فلا بقيا لمن لا يراها عند فرصته عليك

وفي سنة سبع ومائتين أرسل المأمون خالد بن يزيد بن يزيد الشيباني والياً على مصر فامتنع ابن السرى من تسليمها وحاربه ، فانضم ابن الجروى إلى جيش خالد ، واستمر القتال مدة طويلة ، فمل الجيشان الحرب ، وحدث أن ارتفع النيل في هذا الوقت فسار خالد إلى الحوف ، فلما رأى ابن الجروى ذلك أراد أن يخرج خالد بن يزيد عن مُلكه ، فمكر به حتى أنزله « نهيا » وهناك تركه ابن الجروى في جهد وصفه المعلى بقوله :

سلا خالد لما انجلى عنه شكه وأسلمه في عُدْوَةِ البحر خاذله
فزالت أمانيه غداة سما لنا بعارض جيش يمطر الموت وابله

فلما انكشف النيل سار ابن السرى إلى خالد وحاربه فأسر خالد
وفي ذلك قال المعلى :

ألا لا أرى خيلاً أضر له الوغى وأجبن في الهيجاء من خيل خالد
وقواده أشرار كل قبيلة تمالوا على إسلامه في الشدائد
فما أسروا منه جباناً معضداً ولكن أبا شبلين عبّل السواعد
فان يقتلوه يقتلوا منه سيداً شجاعاً جواداً ماجداً وابن ماجد
وإن كَفَقُوا عن قتله فهى منه لآل سرى في مناط القلائد

ولما رأى المأمون هذه الثورات والفتن قسم مصر بين ابن السرى وابن الجروى فولى كل واحد منهما ما في يديه ، فأقبل ابن الجروى على جمع الخراج ، فقاومه قوم من أهل الحوف ، وكتبوا إلى ابن السرى يستمدونه على ابن الجروى ، فتقابل الجيشان في « بُلُقَيْمَةِ » واستمر

القتال طويلاً حتى اضطر ابن الجروى إلى أن يفر إلى دمياط وفى ذلك قال المعلى :

ألا هل أتى أهل العراقين وقعة لنا بحمى بلقين شيبت الولدا
وما كان منا قتلهم عن جهالة خطاء ولكننا قتلناهم عمدا
ولما تبيئت المنية فى القنا نكصت تنادى حين ضل النداء سعدا
فوليت على ربع المحلة هارباً على أبله ما يركب الجور والقصدا
فكيف رأيت الله أنزل نصره علينا وولاك المذلة والطردا
سَهْدَى إلى المأمون منا نصائحاً نضمها طى الصحائف والبُرْدا
بفعل على والذى كان مجمعا عليه باظهار الخلاف الذى أبدا
وسار ابن السرى إلى تنيس ودمياط واضطر ابن الجروى إلى أن

يهرب إلى الفرما والعريش فخاطبه سعيد بن عفير بقوله

ألا يا على بن عبد العزيز إلى أين صرت تريد الفرارا
فَلَسْتُ بأول من كاده عدو فكراً عليه اعتكارا
وأجر مصيرك أن يسحبوا إليك فتوحا عظاما كبارا
فتدرك ثأرك من أهله وتلبس بعد الكُبو والفسارا (١)

فلما سمع ذلك ابن الجروى أغار على الفرما سنة تسع ومائتين وهرب أصحاب ابن السرى من تنيس ودمياط . وسار ابن الجروى حتى قابل جيش ابن السرى بشطنوف فهزم ابن الجروى ولحق بالعريش ، فدح المعلى الطائى ابن السرى بقوله

ألم تر خيله صَبَحَتْ عليا تَدِفُ على مناسجها النَّسَاعَا

(١) الفسار معرب كلمة فارسية (أفسر) بمعنى التاج .

فَوَلَّسَىٰ عَنْ عَسَاكِرِهِ وَخَلَىٰ عَلَى الْأَسَلِ الْمَدَائِنِ وَالرَّبَاعَا
 وَلَكِنْ فَاتٌ فَوْقَ أَقْبَّ نَهْدٍ كَرَجَعَ الطَّرْفَ لَا يَخْشَىٰ اصْطِلَاعَا
 فَحَسْبُكَ أَنْ قَوْمُكَ مِنْ جِذَامٍ وَسَعْدٌ لَا تَرَىٰ لَهُمْ اجْتِمَاعَا
 دَعْتَهُمْ طَاعَةً لَكَ فَاسْتَجَابُوا وَمَنْ عَجِبَ لِمَثَلِكَ أَنْ يَطَاعَا
 وَعَادَ ابْنَ الْجُرُومِ مَرَّةً أُخْرَىٰ سَنَةَ عَشْرٍ وَمِائَتَيْنِ فَمَلَكَ تَنِيْسَ
 وَدَمِيَاطَ وَهَزَمَ جَيْشَ ابْنِ السَّرِيِّ ، وَلَمْ تَهْدَأْ هَذِهِ الْفِتْنُ حَتَّىٰ دَخَلَ
 عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ مِصْرَ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ وَأَخَذَهَا مِنْ ابْنِ
 السَّرِيِّ ، كَمَا خَضَعَ لَهُ ابْنَ الْجُرُومِ .

وَقَامَتْ فِي مِصْرَ فِتْنٌ أُخْرَىٰ مِنْ أَجْلِ السُّلْطَانِ بَيْنَ الْأُمَوِيِّينَ
 وَالْعَبَّاسِيِّينَ ، وَيُحَدِّثُنَا يَاقُوتٌ أَنَّهُ فِي أَيَّامِ الْمَهْدِيِّ خَرَجَ دَحِيَّةُ الْأُمَوِيِّ
 بِمِصْرَ وَدَعَا لِنَفْسِهِ وَاسْتَمَرَ إِلَى أَيَّامِ الْهَادِي وَكَانَتِ الدَّوْلَةُ تَرْسَلُ إِلَيْهِ
 الْجِيُوشَ فَلَمْ تَسْتَطِعْ قَهْرَهُ وَكَانَتْ تُسَعِّمُ أُمَّ وَلَدَ دَحِيَّةٍ تَقَاتَلُ فِي طَلِيْعَةِ
 الْجَيْشِ لِأَسِيَا فِي وَاقِعَةِ بُوَيْطَ وَفِي هَذَا قَالَ شَاعِرُهُمْ :

فَلَا تَرْجِعِي يَا نَعْمَ عَنْ جَيْشِ ظَالِمٍ يَقُودُ جِيُوشَ الظَّالِمِينَ وَيَجْتَنِبُ
 وَكُرَىٰ بِنَا طَرْدَا عَلَىٰ كُلِّ سَانِحٍ إِلَيْنَا مَنَايَا الْكَافِرِينَ تُقَرَّبُ
 كِيَوْمٍ لَنَا لَا زَلَّتْ أَذْكَرُ يَوْمَنَا بَفَاؤِ وَيَوْمٍ فِي بُوَيْطَ عَصَبِصَبِ
 وَيَوْمٍ بِأَعْلَى الدَّيْرِ كَانَتْ نَحْوُسُهُ عَلَىٰ فِئَةِ الْفَضْلِ بْنِ صَالِحٍ تَتَعَبُ (١)
 فَهَذِهِ أَشْعَارٌ قِيلَتْ فِي حُرُوبٍ بَيْنَ جَيْشِ النَّائِثِينَ وَجِيُوشِ الْخَلِيفَةِ
 وَلَوْ لَمْ تَحْفَظْ هَذِهِ الْأَشْعَارُ مَا كُنَّا نَعْلَمُ شَيْئًا عَنْ هَذِهِ الْوَقَائِعِ فَانْ كَتَبَ
 التَّارِيخُ الَّتِي وَصَلْتُنَا لَمْ تَذْكَرْ تَفَاصِيلَ هَذِهِ الْحُرُوبِ بَلْ أَغْفَلْتَهَا وَلَكِنْ

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٣١١ (طبع مطبعة السعادة سنة ١٩٠٦ م) .

الشعراء يفخرون دائما بما يحرزه أهلهم من نصر فيسجلون الوقائع في أشعارهم .

ونلاحظ أن الشاعر استعمل في الآيات السابقة كلمة أيام التي كان يستعملها العرب منذ الجاهلية .

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن الحوادث السياسية المصرية ، والحروب الداخلية التي كانت في هذا العصر ، قد أثرت في الأدب أثرا كبيرا ، فقد اضطر الشعراء إلى أن يسجلوا هذه الحروب ، وأن يدافعوا عن المتحاربين ، ولكن أكثر هذا الشعر فقد ولو قدر لهذا الشعر البقاء ، لكان أصدق مرآة لهذه الحوادث الكثيرة المضطربة ، ولكن الذي وصلنا منه قدر يسير ، يعطينا صورة مصغرة مشوهة لهذه الحوادث .

ب — فتنة العصبية العربية :

ولعل أصدق صورة لعصبية القبائل في مصر هي هذه الحادثة التي ظهرت فيها العادات الجاهلية القديمة بأجلى مظاهرها . تلك هي حادثة « فرس مراد » المعروفة « بقضية جناح والزعفران » ، ذلك أن عشيرة « مراد » كان لهم فرس يفخرون بها ويسمونها الزعفران ، فأخرجت الفرس يوم الرهان ، كما أخرجت عشيرة « يحصب » فرسا لهم تسمى الجناح ، وجعل كل فريق لصاحبه الفرس المسبوق ، وجعلوا للسباق غايته ، فخرج الطائفتان ومعهم عامة أهل مصر ، فكان السابق فرس مراد في أول الأمر حتى كادت تدخل الغاية ، فخرج كمين من يحصب وضرب وجه الزعفران فتحيرت الفرس ، فسبقتها الجناح إلى

دخول الغاية . ساء مرادا ذلك واستلوا سيوفهم واقتتل الطائفتان قتالا عنيفا حتى اضطر الأمير ليث بن فضل إلى أن يخرج إليهم ويحجز بينهم وأحال أمرهم إلى القاضي عبدالرحمن العمرى الذى ولى سنة ٥١٨٥ وقد عرف هذا القاضى بحبه للبال وأخذه الرشوة ؛ فأنت يحصب بأموال عظيمة إلى القاضى ، فحكم لهم بالفرس ودفع إليهم الزعفران ولكن استمر النزاع حتى ولى القضاء القاضى البكرى الذى ولى سنة ٥١٩٤ فرد الفرس إلى مراد . هذا الحادث يذكرنا بصورة لها أيام الجاهليين هى قصة داحس والغبراء ، وكما كثر شعر الجاهليين فى قصتهم أنشد المصريون شعرا فى قصتهم لا سيما أن القاضى العمرى كان مكروها من المصريين ، ونقم عليه الشعراء فأخذوا هذا الحادث وسيلة إلى هجائه ، فمن ذلك قول يحيى الخولانى (١) .

إن كان مَهْرٌ أُخِي زَوْفَ أْفَاتِ بِهِ ريب الزمان عليه جور زنديق
فكم يدِ لَبْنِي زَوْفِ وَأَخْوَتِهِمْ فى آل فهِر تُغْصُ الشَّيْخَ بِالرِّيقِ
إن حَاكُمُ عَمْرَى جَارِ فى فِرْسٍ فسوف يرجعه عدل ابن صديق

ومن الطبيعى أن نجد شعراء دافعوا عن القاضى العمرى فى هذه القضية ، فمن ذلك قول عبد الله بن بجيرة من ولد معاوية بن حديج يرد على الشاعر يحيى الخولانى

طلبت فما نَأْتِ حَسَنَ الطَّلَبِ وَرُمْتَ عَظِيمًا وَلَمَّا تُصِيبِ
وعُوليت موتا على رميهم بقوس الضلال ونبل الكذب

(١) الكندى ص ٤٠٢ وما بعدها .

فإن كان في فرس عَتَبِكُمْ
وإلا فمهر كريم النجار
فعندي لكم فرس من قصب
قليل العظام كثير العصب
فأجابه يحيى

ألا أيها الشاعر المنتدب
ورايى مراد وَخَوْلَانَهَا
يحمى عن العمرى العَطَب
بنبل من الجهل غير الصيب
لعمرك ما أنقص العمرى
من الناس إلا كريم الحسب
ملا الأرض جورا بأحكامه
وأظهر فيها جميع الريب

ومن العصبية القبلية أيضا فخر الحضارمة إذا ولى أحدهم ففي سنة
تسع وتسعين ومائة ولى القضاء لهيعة بن عيسى الحضرمى فقال شاعرهم
لقد ولى القضاء بكل أرض
رجال ليس مثلهم رجال
من الغر الحضارمة الكرام
من الصيد الجحاجة الضخام^(١)

وقال يزيد بن مقسم الصدقى

يا حضرموت هنيئا ما خصصت به
من الحكومة بين العجم والعرب
في الجاهلية والاسلام يعرفه
أهل الرواية والتفتيش والطلب

ح - فتن بين العرب والمصريين :

ولون آخر من ألوان العصبية العربية هو سمو العرب بأنفسهم وتعاليمهم
على غيرهم من الشعوب ، حتى على مَنْ أسلم من هذه الشعوب ، فقد كون
العرب في مصر طبقة أرستقراطية - إن صح هذا التعبير - لم تقبل أن
يسمو إليها المصريون ، ولذا كانت العلاقات بين العرب والمصريين سيئة
في العصر العباسى وقام القبط بثورات عنيفة ابتغاء طلب المساواة بالعرب ،
ولكن هؤلاء استطاعوا أن يخمدوا الثورات المتوالية ، ونلح من الأشعار

(١) الكندى ص ٤٢٦

التي وصلتنا عن هذه الاضطرابات كيف كان العرب يترفعون على المصريين، حتى اضطر من أسلم منهم إلى أن يتخذ لنفسه نسباً عربياً حتى يتساوى بالعرب ولكن عرب مصر رفضوا أن ينتسب غير عربى إليهم ، ولعل قضية أهل الحرس تبين علاقة العرب بالمصريين ، ذلك أن جماعة من القبط أسلموا وعرفوا بأهل الحرس ، ولا أدري لهم سموا كذلك ، ويغلب على ظنى أنهم كانوا حرساً للأمرأه فعرفوا بذلك ، تحرس العرب بهؤلاء القوم وأذوهم فجمع أهل الحرس نقوداً من بينهم دفعوها إلى القاضى العمري لثبت لهم نسباً عربياً ، وخرج بعضهم إلى الرشيد ببغداد يدعون له نسباً ، كما أتوا بجمع من أعراب الحوف الشرقى وبعض أعراب الشام ورشوهم بالمال فشهدوا أمام القاضى أن أهل الحرس من العرب وأن نسبتهم إلى بنى حوتكة (من قضاعة) فقبل القاضى شهادتهم إلا شهادة حوى بن حوى بن معاذ العذرى ، وسجل لهم نسباً بذلك فثار عرب مصر ، وقام الشعراء يهجون القاضى وأهل الحرس ، من ذلك قول يحيى الخولانى فى هجاء حوى :

يا ليت أم حوى لم تلد ذكراً أو ليت أن حوى كان ذا خرس
كسا قضاعة عاراً فى شهادته لله در حوى شاهد الحرس
شهادة رجعت لو أنها قبلت لألحق الزور منها العير بالقرس
وقول يحيى الخولانى أيضاً :

ومن أعجب الأشياء أن عصابة من القبط فىنا أصبحوا قد تعربوا
وقالوا أبونا حوتك ، وأبوهم من القبط علج حبله يتذبذب
وجاءوا بأجلاف من الحوف فادعوا بأنهم منهم سفاها وأجلبوا
ألا لعن الرحمن من كان راضياً بهم رغما مادامت الشمس تغرب^(١)

وقال معلى بن المعلى الطائى فى هجاء القاضى العمرى :
كم كم تطول فى قُـرَّانك والجور يضحك من صـرَّاتك
تقضى نهارك بالهوى وتبيت بين مغنياتك
فاشرب على صـرْف الزمان بما ارتشيت من الحواتك
إن كنت قد ألحقتهم عرباً فزوجههم بناتك
وليكشففن بما أتيت صدور قوم عن مَساتك
وكأنتى بمنى تسعى إليك بكف فاتك
أفقرته من ماله بقضية أو لم يوثاك
لا تعجلن أبا الندى حتى تصير إلى وفاتك
إن المقامع تطلقن من الجحيم إلى ممالك
بل لو ملكت لسان أكنتم ما وصلت إلى صفاتك (١)

ونلاحظ أن الشاعر هنا كنى القاضى بأبى الندى وهى كنية اللص الذى
ظهر سنة إحدى وتسعين مائة، ثم نراه قد تهكم بالقاضى إذ دعاه أن يزوج
أهل الحرس من بناته، وهو حكم وضعى سار عليه المسلمون حتى أصبح من
الأحكام الفقهية ذلك أن المولى لا يتزوج عريية. وبعد أن عزل القاضى
العمرى، أرسل عرب مصر وفداً إلى الخليفة الأمين، فذكروا له ما فعل
العمرى بأهل الحرس، فكتب الأمين إلى القاضى البكرى يأمره أن لا يمنح
أحد من غير العرب للحاق بالعرب، وأن يرد أهل الحرس إلى ما كانوا عليه
من أنسابهم، فأمر البكرى أهل الحرس بإقامة البيعة، وجمع بعض أهل القناعة
والعدالة من مصر فشهدوا أن أهل الحرس من القبط الذين أسلبوا، فردهم
القاضى إلى أصلهم ومزق سجلهم، ففرح عرب مصر بذلك وقال معلى الطائى :

يا بني البظراء موتوا كمدأ واستخنوا عينا بتخريق السجل
لو أراد الله أن يجعلكم من بني العباس طرا لفعل
لكن الرحمن قد صيركم قبط مصر من القبط سفّل
كيف يا قبط تكونوا عربا ومريس أصلكم شر الجليل

وقال أبو رجب العلاء بن عاصم الخولاني

ولقد قمت بني الحباث عندما راموا العلاء وتحو تكوا وتعربوا
فرددتهم قبطا إلى آباؤهم ونسبت أصلهم الذي قد غيوا
وتركتهم مثلا لكل ملصق نسباً إذا التقت المحافل يُضرب

وقال يحيى الخولاني

اشكروا الله على إحسانه فله الحمد كثيراً والرغيب
رجع القبط إلى أصلهم بعد خزي طوقه وتعب
ودنانير رشوها قاضيها جاثرا قد كان فينا يفتصب
أخذ الأموال منهم خدعة وتولى عنهم ثم هرب
أبلغ البكري عنى أنه عادل في الحكم فراج الكرب (١)

كانت روح العصية العربية ظاهرة واضحة أيام الأمويين والعباسيين.
ما جعل القبط يشورون، وكان أشد هذه الثورات أيام المأمون، إذ اضطر
الخليفة نفسه إلى أن يحضر إلى مصر، وأن يقمع هذه الفتن بشدة وحزم
فلم يقم بعدها للمصريين قائمة، ثم أن العرب وجدوا أنفسهم في عهد
المعتصم محرومين مما كان لهم من مزايا، فخدمت روح العصية وصار

(١) راجع قضية أهل الحرس بكتاب الولاية والفضاء للسكندى ص ٣٩٧ — ٣٩٩

العرب كالمصريين سواء بسواء ، وبالرغم من أن بعض العلماء عطفوا على من أسلم من المصريين وعاملوهم كالعرب فولوا بعضهم الأعمال الهامة في الدولة ، ولكن هذا لم يرض جمهور العرب فسخطوا ، من ذلك ماروي أن بعض من أسلم من القبط وجدوا عطفًا من القاضي طهية ابن عيسى ، الذي ولي قضاء مصر مرتين في عهد المأمون ، فقد فسح هذا القاضي مجاله للمصريين ، وألان جانبه لهم وألحق طائفة منهم في أعمال الدولة ، فأسند كتابة القضاء إلى سعيد بن تليد — وكانت كتابة القضاء في ذلك العهد من أسمى ما يصبو إليه الفقهاء — كما اتخذ شهودًا جعلهم بطانته منهم معاوية الاسواني وسليمان بن برد وغيرهما في نحو من ثلاثين رجلاً فَتَقَوَّلَ العرب في القاضي مع علمهم بعلمه ودينه وسمو منزلته ، وقد ظهر أقوال المصريين في أشعارهم من ذلك ما قاله الشاعر أبو شبيب أنيس بن دارم

فَبَحَّحَ اللهُ زَمَانَا رَاسَ فِيهِ ابْنُ تَلِيدٍ
بَعْدَ مَقْرَاضِ وَخَيْطِ وَأُبَيْرَاتِ حَدِيدِ
وَأَبُو الزُّبَيْعِ خَنَاقِ غَرَامِيلِ الْعَبِيدِ
بَعْدَ سَيْفِ خَشْبِي وَسَهَامِ مِنْ حَدِيدِ
وَابْنِ تَدْرَاقِ الْأَفَانِ بْنِ الْبَلِيدِ
وَابْنِ بَكَارِ كِرَاكِيرِ وَغَطَّاسِ الثَّرِيدِ
وَأَبُو الرُّوسِ الْمَرِيْسِيِّ بْنِ دِبَاغِ الْجُلُودِ
وَاللَّقِيْطِ ابْنِ بَكِيْرِ نُطْفَةِ الْقَدَمِ الطَّرِيدِ
وَابْنِ سَهْمِ حَارِسِ الْجِيْزَةِ حُلُوَانِ الْبَرِيدِ

عصبة من طينة النيل ميامين الحدود
لبسوا بعد التبايين نفيسات البرود
لازموا المسجد ضلا لآ من الأمر الرشيد
لحوانيت بنوها بفنا كل عمود
وتسَمَمُوا وتكَنَّنُوا بعد جُرْجٍ وشنود
والأحوا بجباه من نطاح الحصر سود
تحت أميال طوال كبراطيل اليهود
نصبوها كالمقاعيد على روس القروود
وتراهم للوصايا وعدالات الشهود
في مرآه وجدال وقيام وقعود
وخشوع وابتغال وركوع وسجود
وعلى القسمة أضرى من تماسيح الصعيد
وأشاروا للهيدايا بأبي عبد الحميد^(١)

ومن ذلك أيضاً ما روى في قضية « ابن القطاس » ، فقد كان سعيد
ابن زياد الملقب بابن القطاس ممن عرف بين المصريين بالعلم والفضل ،
وكان أحد الشهود الذين قبل بعض القضاة أمثال طهية بن عيسى وابن
المنكدر وغيرهما شهادته ، كما كان أحد الذين يتولون التدريس في
المسجد ، فلما ولي محمد بن أبي الليث قضاء مصر رماه ابن القطاس
بالبدعة ، ودعا عليه ، فنقل ذلك إلى القاضي ، وأتى إلى القاضي من ذكر
له أن ابن القطاس مولى لم يجر عليه عتق ، وشهد آخرون بأنه مولى
رجل من الأزدي يقال له ابن الأبرش ، وادعى ابن الأبرش رقبته ،

(١) السكندی ص ٤٢٣

فأمر القاضي بحبس ابن القطاس خمسة أيام ونودي عليه في سوق الرقيق
فاشتره القاضي بدينار وأعتقه. وفي ذلك قال الجمل الأكبر في
مدح القاضي.

وبطشت بالقطشوس بطشة قائم بالحق غير مقصر ومبذر
ما زلت تفحص عن أمور شهوده في السر والعلن المبين الأظهر
فربطته في رقة ومنعته وطأ الحرائر وهو غير محر
هذا النداء ، وهذه هاد لهم إن جاء فيه بغير قلبس أقشر
يفقى وينظر في المكاتب دأباً والعبد غير مكاتب ومدبر (١)
وما لا شك فيه أن المصريين أنشدوا شعرا كثيرا جدا في علاقة
عرب مصر بالمصريين ولكن هذا الشعر فقد ولم يبق منه إلا قدر
يسير قد ذكرنا أكثره .

أثر محنة خلق القرآن

أصاب مصر من فتنه خلق القرآن ما أصاب الأقطار الإسلامية
الأخرى، فقد روى الكندي أن المأمون طلب إلى أخيه أبي اسحق
المعتصم أن يكتب إلى نصر بن عبد الله كيدر أمير مصر أن يمتحن
القضاة والشهود فمن أقر منهم أن القرآن مخلوق وكان عدلا قبلت
شهادته وأقر بموضعه ، وكان القاضي بمصر إذ ذاك هرون بن عبد الله
فامتحن وأقر بأن القرآن مخلوق ، وتبعه عامة الشهود وبعض الفقهاء ،
وهرب منهم من لم يوافق ، وورد كتاب المعتصم على القاضي هرون

(١) الولاية للكندي ص ٤٥٧

بجمل الفقهاء في المحنة فاستعفى هرون من ذلك، فكتب ابن أبي دؤاد إلى محمد بن أبي الليث بالقيام في المحنة، وذلك قبل ولايته القضاء، فحمل البويطي وخُشِنَام المحدث في جمع كثير غيرهما، ولما ولي الواثق سنة سبع وعشرين ومائتين أمر أن يؤخذ الناس بالمحنة، وورد كتابه على ابن أبي الليث الذي ولي القضاء سنة ست وعشرين ومائتين، فلم يبق أحد من فقيهه ولا محدث ولا معلم حتى أخذ بالمحنة وهرب كثير من الناس وملئت السجون بمن أنكر المحنة، كان «مطر» غلام ابن أبي الليث يأخذ قلانس العلماء أمثال هرون بن سعيد الأيلي ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيرهما ويسوقهم بعمائمهم، وفي هذا كله أنشد شعراء مصر، فمن ذلك ما قاله الحسين ابن عبد السلام المعروف بالجلجلا الكبير وكان منقطعا إلى مدح القاضي ابن أبي الليث في ذلك العصر

فحميت قول أبي حنيفة بالهدى	ومحمد واليوسفى الأذكر
وقى أبي ليلى وقول فريقهم	زفر القياس أخى الحجاج الأنظر
وحطمت قول الشافعى وصحبه	ومقالة ابن عليه لم تضجر
والمالكية بعد ذكر شائع	أخلمتها فكأنها لم تذكر
أعطتك السنة أتك ضميرها	وأنتك السنة بما لم تضر
فأطقت بالأيلي ^(١) ينق صائحا	في كل مجمع مشهد أو محضر
ومحمد الحكيم ^(٢) أنت أطقته	وأخاه ينق بالصياح الأجر
كل ينادى بالقران وخلقه	فشهرتهم بمقالة لم تشهر

(١) هو هرون بن سعيد الأيلي .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم .

لم ترض أن نطقت بها أفواههم حتى المساجد خلقه لم تنكر (١)

لما أريتهم الردى متصوراً زعموا بأن الله غير مصور (٢)

وكان أحمد بن صالح قد هرب إلى اليمن في هذه المحنة، ولزم يوسف ابن أبي طيبة منزله ولم يظهر، وحاول محمد بن سالم القطان الهرب ولكن ظفر به فحمل إلى العراق، وهرب ذو النون المصرى ثم رأى أن يرجع فأقر بالمحنة وإلى هذا كله أشار الجمل بقوله :

أَحْجَرْتُ يَوْسُفَ فِي خَزَانَةِ بَيْتِهِ فَطَوَّتَهُ عَنكَ وَطَالَمَا لَمْ يَجْجِرْ

كَفَرْتُ بِكَ الْأَرْضُونَ حِينَ سَأَلْتَهَا خَبَرَ ابْنِ صَالِحِ الْخَيْثِ الْأَكْفَرِ

جَحَدْتَهُ أَقْطَارَ الْبِلَادِ فَمَا عَلِيَ حَرَكَاتِهِ وَسُكُونِهِ مِنْ مَظْهَرِ

وَتَوَى ابْنَ سَالِمِ خَفِيَّةٍ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ امْتَطَى غُلَسَ الظَّلَامِ الْأَسْتَرِ

فَأَتَى بِهِ كَعْرِيحٍ أَوْ كَأَبِي النَّدَى وَالنَّاسَ بَيْنَ مَهْلِلٍ وَمَكْبَرِ (٣)

وأخذ القاضى فى اضطهاد الفقهاء، من ذلك أن الفقهاء وشيوخ

مصر إذ ذاك كانوا يرتدون القلانس الطوال ويبالغون فيها، فأمرهم

ابن أبى الليث بتركها، ومنعهم من لباسها وأمرهم أن يتشبهوا بزى القاضى

فلم يأبهوا بأمره، فانتظر حتى أتى إليه عدد منهم وهو فى مجلس حكمه،

فأمر غلاميه عبد الغنى ومطرا أن يضربا رؤوس الشيوخ حتى ألقوا

قلانسهم على الأرض، وأخذها الصبيان والرعاى يلعبون بها وفى ذلك

قال الجمل :

وأخفت أيام الطوال وأهلها فرموا بكل طويلة لم تُقَصِّرِ

(١) أمر القاضى ابن أبى الليث أن يكتب على المساجد بالفسطاط « لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق » فالشاعر أشار فى هذا البيت إلى ذلك .

(٢) السكندى ص ٤٥٢ - ٤٥٣

(٣) شرحه

ما زلت تأخذهم بطرح طواهم
 حتى تركتهم يرون لباسهم
 يتفزعون بكل قطعة خرقة
 فاذا خلاهم المكان مشوا بها
 فلئن ذعرت طواهم فطلما
 لبسوا الطوال لكل يوم شهادة
 مالى أراهم مطرقين كأنما
 دمغت رؤوسهم بحمى خبير^(١)

هذا بعض ما وصلنا عن محنة الفقهاء فى مصر ومن يدرى لعل
 المصريين أنشدوا فى ذلك شعرا كثيرا يخالفون به المعتزلة لاسيما فى
 مسألة خلق القرآن ، إذ كان للمعتزلة فى مصر حلقة زعيمها ابن صليح^(٢)
 كانت تدافع عن خلق القرآن ، ولكن يخيل إلى أن مذهب المعتزلة
 لم يجد له مكانا فى نفوس المصريين ، حتى أن سيديويه المصرى كان
 يقف فى جمع كثير ، وفى الحاضرين أبو عمران موسى بن رباح الفارسى
 المتكلم وأحد شيوخ المعتزلة بمصر ، فكان سيديويه يصيح ويقول :
 الدار دار كفر ، حسبكم أنه ما بقى فى هذه البلدة العظيمة أحد يقول
 القرآن مخلوق إلا أنا وهذا الشيخ أبو عمران ، فقام أبو عمران يعدو
 حافيا خوفا على نفسه حتى لحقه رجل بنعله^(٣).

بعض أغراض الشعر

لم تكن هذه كل أغراض الشعر المصرى فى هذا العصر بل نجد

(١) الكندى ص ٤٦١

(٢) القضاة للكندى ص ٤٥٢

(٣) أخبار سيديويه المصرى لابن زولاق ، نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

يجانب ذلك شعرا قيل في المدح والهجاء والرثاء أى فى الأغراض التى لا تتصل إلا بالشاعر وعواطفه وميوله ، وليس بعجيب أن نرى هذه الأغراض فى الشعر المصرى ، فكل الشعر العربى فى جميع عصوره لم يخل منها . ففى الجاهلية نرى الشعراء يمدحون ولكن مدحهم كان أقرب إلى الواقع ، وأبعد عن المبالغة ، ثم أخذ المدح يزداد مبالغة بازدياد الحضارة والركون إلى الرخاء ، واضطر الشعراء إلى التزلف والتلقى حتى ينالوا حظوة عند الأمراء والخلفاء . وفى الشعر المصرى نجد بعض الشعراء يقربون من شعراء الجاهليين فى صدق مدحهم ، ولا يسرفون فى وصف الممدوح بما ليس فيه ، فشعر سعيد بن عفيرة كان قريب الشبه من شعر زهير بن أبى سلمى الجاهلى كلاهما لم يمدح بقصد النوال ، وكلاهما كان يمدح خصال الرجل وخلقه أكثر من أى شىء آخر ولا لشىء ، ففى مدح سعيد لهبيرة بن هشام الذى عذب وكاد يقتل لأنه أجاز ابراهيم الطائى الشاعر على الوالى المطلب الخزاعى ولم يقبل هبيرة أن يسلم ابراهيم للوالى ، نرى الشاعر قد شبه هبيرة بالسموأل بن عاديا فى الوفاء . ومدحه بجلده على تحمل العذاب فى سبيل ذلك الوفاء .

لعمرى لقد أوفى ، وفاق وفاؤه	هبيرة فى الطائى وفاء سموأل
وقاه المنايا إذ أتاه بنفسه	وقد برقت فى عارض مهمل
فما انفك محبوسا ومطلب له	عليه قصيف بالوعيد المهول
فما زاده الإبعاد إلا توقرا	وصبرا ولم يخشع ولم يتفكل
إلى أن تجلت عنه أبيض ماجد	كريم الثنا فى المشهد المتدخل ^(١)

فسعيد هنا يمدح رجلا كريما وفيما ، ليس له سلطان ولا إمرة ،
ولم يطمع فيما كانت تصبو إليه نفوس الشعراء الآخرين . ونجد من
ناحية أخرى بين الشعراء المصريين من تكسب بشعره كالشاعر المعلى
الطائي الذي اتصل بكثير من الولاة والامراء ومدحهم ، بل كان
لا يتحرج من أن يمدح أحدهم ثم يمدح عدوه إذا صار الأمر بيد ذلك
العدو ، من ذلك مما قيل إنه اتصل بالسرى وابنه ومدحهما ، وكانا
ثأرين على الولاة ، ثم وقف بين يدي عبد الله بن طاهر تحت المنبر
وقال له : أصلح الله الأمير أنا المعلى الطائي ، وقد بلغ مني من جفاء
وغلظ فلا يغلظن علي قلبك ، ولا يستخفنك الذي بلغك ، أنا الذي
أقول :

يا أعظم الناس عفوا عند مقدره
وأظلم الناس عند الجود للبال
لو أصبح النيل يجرى ماؤه ذهباً
لما أشرت إلى خزن بمثقال
تغلي بما فيه رق الحمد تملكه
وليس شيء أعاض الحمد بالغالي
تفك باليسر كف العسر من زمن
إذا استطال على قوم بإقلال
لم تخل كففك من جود لمختبط
ومرهف قاتل في رأس قتال

وما بثنت رعييل الخيل في بلد
إلا عصفن بأرزاق وآجال
إن كنت منك على بال مننت به
فإن شكرك من قلبي على بالي^(١)

فسر الوالى وأجزل عطاءه، فالشاعر مدحه لجوده وطمعه في
صلاته. ولعل أكثر شعراء هذا العصر تكسبا بالشعر هو الحسين
ابن عبد السلام الشهير «بالجمل الأكبر»، إذ اتصل بالقاضى محمد
ابن أبى الليث ومدحه ولم يأبه لصوت المصريين الذين سخطوا على
القاضى، لسوء معاملته — وقدما مثلا من ذلك كله في حديثنا عن محنة
خلق القرآن — ثم نراه يتصل بأحمد بن المدبر والى خراج مصر، ويطلب
منه العطاء كما كان يفعل مروان بن أبى حفصة مع معن بن زائدة
الشيبانى، فقد قيل إن ابن المدبر كان من عادته أنه إذا مدحه شاعر
ولم يرض بشعره، أمر من يحمله إلى المسجد ويأمره أن يصلى
عددا معلوما يفرضه عليه، فعرف الشعراء ذلك فدخل عليه الجمل
الأكبر وأنشده:

قصدنا فى أبى حسن مديحا كما بالمدح تنتجع الولاية
فقلنا أكرم الثقلين طرا ومن كفيه دجلة والفرات
فقالوا يقبل المدحات لكن جوائزهم عليهم الصلاة
فقلت لهم وما تغنى صلاتى عيالى إنما تغنى الزكاة
فاما إذ أبى إلا صلاتى وعاقبتى الهموم الشاغلان

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨١ (المطبعة الرحمانية).

فيأمر لي بكسر الصاد منها فتصبح لي الصلّاة هي الصلّات
فيصلح لي على هذا حياتي ويصلح لي على هذا المات^(١)
وظل هذا الشاعر يتكسب بالمدح حتى ولى أحمد بن طولون فأثره
بمدحه وأخذ عطاه، فاعتبره كثير من المؤرخين شاعر ابن طولون
ولكن المنية عاجلت الشاعر في أوائل حكم الطولونيين أى في سنة
ثمان وخمسين ومائتين .

لانكاد نجد بين أيدينا من الشعر الذى بقى لنا من هذا العصر معانى
جديدة فى المدح بل اتخذ شعراء مصر نفس المعانى التى اتخذها غيرهم
من شعراء العرب من وصف الممدوح بالجود والكرم والشجاعة،
ولا نكاد نجد إلا أثراً قليلاً لمصر فى هذا الشعر كالذى رأيناه فى شعر
المعلى من ذكر « النيل » ، ولعل روح الفكاهة المصرية قد أثرت أيضاً فى
شعر الشعراء كالذى نراه فى الأبيات التى رويتها للجمل فى مدح ابن المدبر
كذلك نستطيع أن نقول عن الهجاء ، فقد رأينا كيف كان الشعراء
يهجون الولاة والقضاة فى مصر ، ويحصون مساوئهم ، وأكثر شعراء
هذا العصر هجاء هو الشاعر يحيى الخولاني الذى وقف بالمرصاد
للقاضى العمرى فرماه بالرشوة ، وكناه أبا الندى ، وهو كنية مصرية
خالصة لم يعرفها شعراء العرب . ولم يذكرها إلا المصريون ، وهجاء
أيضاً بأنه كان يحب سماع الغناء وفى ذلك يقول الشاعر يحيى

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨١ (المطبعة الرحمانية) وتحفة المجالس للسيوطى

مر بنا راكب على فرس

يامن رأى هر بنذا (١) على فرس

فقلت : من ذا اللعين ؟ قيل أبو

النسدا غدا مسرعا إلى عرس

كما يرى قينة ذكرت بها

تشدو بصوت يخال كالجرس

أصبح في المخزيات منغمساً

وليس في غيرها بمنغمس (٢)

كذلك الشاعر يحيى بن الفضيل الذي هجا الوالى عنبسة بن اسحق الضبي، ورماه بدين الخوارج وبالجنون، لأن الوالى كان يذهب إلى المسجد وهو ينادى في شهر رمضان بالسحور، فلم يعجب الشاعر ذلك وأرسل إلى الخليفة يقول:

من فنى يبلغ الإمام كتاباً عربياً ويقتضيه الجوابا

بئس والله ما صنعت لنا حين وليتنا أميراً مصابا

خارجياً يدين بالسيف فينا ويرى قتلنا جميعاً صوابا

مر يمشى إلى الصلاة نهراً وينادى السحور ضل وخابا (٣)

والشاعر اسحق بن معاذ بن مجاهد هجا القاضى المفضل بن فضالة

فقال :

(١) هر بنذ كزبرج مفرد هرابذة قومة بيت النار للهند وخدم نار الجوس .

(٢) الولاة والقضاة س ٤٠٠

(٣) الكندى ص ٢٠١

خَفَ اللهُ وَارْقُدْ وَاتَّدِ يَا مَفْضَلُ
فَانْكَ عَنْ فَصْلِ الْقَضَاءِ سَتَسْأَلُ
وَإِنَّكَ مَوْقُوفٌ بِهِ وَمُحْأَسَبُ
فَدُونُكَ ، فَانظُرْ كَيْفَ فِي الْحُكْمِ تَفْعَلُ
أَفَى الْعَدْلِ أَنْ أَقْضَى وَأَخْرَجَ مُتَعَبَا
وَأَتَدَى بِفَضْلِ مَنْكَ خَصْمِي وَتُدْخِلُ
وَيَفْتَحُ إِنْ يَدْنُو لَهُ الْبَابَ جَهْرَةً
وَيُغْلِقُ دُونِي إِنْ دَنَوْتُ وَيَقْفَلُ
وَتَقْبَلُ مِنْهُ فِي مَغْيَبِي شَهُودَهُ
وَيَبْنِي لِيَسْتَ إِذَا غَابَ تُقْبَلُ
فَهَا أَنْذَا أَصْبَحْتَ خَصْمَكَ فِي الَّذِي
قَضَيْتَ بِهِ وَالْحَقُّ مَا لَيْسَ بِجَهْلُ
فَاصْغِ إِلَى السَّمْعِ مِنْكَ وَأَنْبِي
بِأَيِّ وَجْهِ الْفَقْهِ أَصْبَحْتَ تَعْمَلُ (١)
وَقَوْلُ سَعِيدِ بْنِ عَفِيرٍ فِي هِجَاءِ الْوَالِي الْحُسَيْنِ بْنِ جَمِيلٍ سَنَةَ
تَسْعِينَ وَمِائَةَ
مَا كُنْتَ أَحْسَبُ أَنَّ الْحَيْنَ يَجْمَعُ مَا
أَمْسَى بِمَصْرَ مِنَ الْأَنْدَالِ فِي الْأَمْرِ
أَمَّا الْأَمِيرُ فَحَتَّاجٌ وَصَاحِبُهُ
عَلَى الْخِرَاجِ سَوَادِي مِنَ الْأَكْر

هذا الهنائي^(١) من الفسباط يخلفه
والباهلي^(٢) على أعماله الآخر
كل لصاحبه شكل يلائمه
فهم سواسية في اللؤم كالحمر
وما هُتامة إلا ظَلَفُ ذِي يَمِينِ
والباهليون مأوى اللؤم من مضر
فما يسوغ لنا عيش فينفعنا
مع ما نرى لهم من رقة الخطر^(٣)

ولم يصلنا شيء من الهجاء بين الشعراء كالذي نراه بين شعراء
الأقطار الإسلامية الأخرى، والهجاء الذي وصلنا يكاد يكون ذمًا للهجو
دون تعرض لأسرته، فلم يسرفوا في الهجاء كما لم يسرفوا في المدح.
أما الرثاء، فالمعروف أن من عادة المصريين منذ القدم الإسراف
في البكاء والنحيب والعيويل حزنا لوفاة قريب أو صديق، وشعراء
العرب كانوا يسرفون في الرثاء ويبيكون، ولكن ما وصلنا من الشعراء
المصري في الرثاء يختلف تمام الاختلاف عن عادة المصريين وشعراء
العرب، فقد قصر شعراء مصر رثاءهم على سرد مناقب الميت، وكيف
لاقى الموت بشجاعة وجلد، ويتلقى الشاعر نعي الميت بصبر، علما أن
هذا مصير كل حي كقول الشاعر سعيد بن عفير

(١) الهنائي هو كامل الهنائي الذي ولي الشرطة في ذلك الوقت

(٢) الباهلي هو معاوية بن سرد الذي ولي الشرطة بعد الهنائي

(٣) السكندی من ١٤٢ — ١٤٣

سأقت عمير إلى مصر منيته بأمره لم يكن فيها بمسعود
حتى أتته المنايا وهي ملتحف ثوبين من حبرات البأس والجدود
فاذهب حميداً فلا تبعه فكل فتى يوماً وإن كرمت أفعاله يودى (١)

وقول سعيد أيضاً في رثاء هبيرة بن هشام بن حديج الذي قتل في
حروبه مع السرى سنة مائتين :

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاقَى هَبِيرَةَ حَتَفَهُ
بِأَفْضَلِ مَا تُلْقَى الْحَتُوفُ السَّوَارِعُ
بِأَنْفِ حَمِيٍّ لَمْ تَخَالِطْهُ ذِلَّةٌ
وَعَرِضَ نَقِيٍّ لَمْ تَشْنِهُ الْمَطَامِعُ
عَشِيَّةً يَسْتَكْفِيهِ مُطَلِبُ الَّذِي
بِهِ ضَاقَ ذَرْعاً وَالْمَنَايَا كَوَارِعُ
فَمَا انْفَكَّ يَحْمِيهِ وَيَجْعَلُ نَفْسَهُ
لَهُ جَنَّةً حَتَّى احْتَوَتْهُ الْمَصَارِعُ
فَلَاقَى الْمَنَايَا فَوْقَ أُجْرَدَ سَابِحُ
وَفِي الْكَفِّ مَأْتُورٌ مِنَ الْهِنْدِ قَاطِعُ
فَبَيْنَا يَخْوِضُ الْهَوْلَ مِنْ غَمْرَاتِهِ
وَأَعْدَاؤُهُ مِنْ حَوْلِهِ قَدْ تَجَاشَعُوا
تَقَطَّرَ فِي أَهْوِيَّةٍ عَنِ جَوَادِهِ
فَصَادَفَهُ حَيْنٌ مِنَ الْمَوْتِ وَاقِعُ

فلم أر مقتولا أجل مصابه

على من يعادى والذين يجامع

من ابن حديج يوم أعلن نعيه

وقام به في الناس راه وسامع^(١)

وقد حفظت قصيدة في الرثاء تكاد تكون كاملة أنشدها الشاعر
المعلى الطائي يرثى جارية له قيل إنه كان يحبها لأدبها وعلمها ، وكانت
شاعرة ، وقيل أيضاً إن المعلى باعها بأربعة آلاف دينار ، فلما دخل
عليها قالت له : بعتنى يا معلى ؟ قال : نعم . قالت : والله لو ملكت منك
مثل ما تملك منى ما بعتك بالدنيا وما فيها . فاضطر المعلى إلى أن يرد
الدنانير وأن يستقيل صاحبه ويعتذر إلى صاحبه^(٢) وتوفيت هذه
الجارية بعد ثمانية أيام من هذا الحادث فرثاها المعلى بقصيدة أرى أنها
من آيات الشعر لجمال معناها ، وسمو عاطفتها ، ورشاقة لفظها

أخذ الشاعر يناجى الموت ويعاتبه كأنه شخص مائل أمام عينيه ،
ويتحدث إليه كما يتحدث إلى شخص يعرفه ، فهو يلوم الموت لأنه
اقتنص جاريته التي عبر عنها بشق نفسه ، فهو لا يستطيع أن يهنأ بالنصف
فقط ، وهو يلوم الموت ويستعطفه استعطافاً أملاً عليه حزنه لفقدائها ،
وجه لها ، فقال إن الموت لم يرحم شبابها ، ثم يأخذ في وصف عظامها
اللينة ، وشعرها وعينها ومشيتها ، ويترحم على ذلك كله وأخيراً يعاتب
الموت مرة أخرى لأنه ترك حبيته في قبر تلعب الريح بترابه ، وتمتد
إليه يد البلى ، وأن أحداً لا يستطيع زيارة هذا القبر لأن في زيارته

(١) الكندي ص ١٦٠

(٢) العقد الفريد ٢ ص ١٧٩

الملاك ، ثم يناشد القبر أن يبقى على محاسنها ، ويحفظ برها وظرها .
فالشاعر في هذه القصيدة حزين حقاً ، متألم أشد الألم لفراق جارته ،
ولكنه حزن هادىء . — إن صح هذا التعبير — لم يرسل الدمع ،
ولم ينتحب ، وهو في هذا الحزن يذكر أنه سيلتقى بها يوم القيامة :

ياموت كيف سَأَبْتَنِي «وصفاء» قَدَّمْتَهَا وَتَرَكْتَنِي خَلْفَا
هَلَا زَهَبْتُ بِنَا مَعَا فَلَقَدْ ظَفَرْتُ يَدَاكَ فَسَمْتَنِي خَسْفَا (١)
وَأَخَذْتُ شِقَّ النَّفْسِ مِنْ بَدْنِي فَقَبْرَتَهُ وَتَرَكْتُ لِي النَّصْفَا
فَعَلَيْكَ بِالسَّاقِي بِلَا أَجَلٍ فَاَلْمُوتُ بَعْدَ وَفَاتِهَا أَعْفَى (٢)
يَا مَوْتَ مَا أَبْقَيْتَ لِي أَحَدًا لِمَا رَفَعْتَ إِلَى الْبَلِي «وصفاء»
هَلَا رَحِمْتَ شِبَابَ غَانِيَةِ رِيًّا الْعِظَامَ وَشَعْرَهَا الْوَحْفَا (٣)
وَرَحِمْتَ عَيْنِي ظَامِيَةَ جَعَلْتَ بَيْنَ الرِّيَاضِ تَنَاظِرَ الْخَسْفَا (٤)
تَقْضَى إِذَا اتَّصَفْتَ مَرَابِضَةَ وَتَظَلُّ تَرَاعَاهُ إِذَا أَعْفَى
فَإِذَا مَشَى اخْتَلَفْتَ قَوَائِمَهُ وَقْتَ الرِّضَاعِ فَيَنْطَوِي ضَعْفَا
مَتَحِيرًا فِي الْمَشْيِ مَرْتَعِشَا يَخْطُو فَيَضْرِبُ ظَلْفَهُ الظَّلْفَا
فَكَأَنَّهُ «وصف» إِذَا جَعَلْتَ نَحْوِي تَحِيرٌ مَحَاجِرًا (٦) وَطَفَا (٧)
يَا مَوْتَ أَنْتَ كَذَا لِكُلِّ أَخٍ إِذَا يَصُونَ بِرِهِ الْإِلْفَا

(١) الحسف : الدل والهوان

(٢) أعفاه من الأمر برأه

(٣) الوحف : الشعر الكثير الأسود

(٤) الحشف مثلثة : ولد الظبي أول ما ولد

(٥) حار يحار ويمحتر واستعار . نظر إلى الشيء

(٦) محاجر جمع محجر : مدار بالعين

(٧) الوطف : كثرة شعر الحاجبين والعيين

خليتنى فرداً و بنت بها ما كنت قبلك حاملاً و كَفَاً (١)
فتركتها بالرغم فى جدت للريح ينف تربه نَسْفَا
دون المقطم لا يُلبَسُهَا فى زينة قلبا ولا شَنَفَا
أسكتها فى قعر مظلمة بيتا يصفح تربه السقفا
بيتا إذا مازاره أحدٌ عصفت به أيدى البلى عَصَفَا
لالتقى أبدا معاينة حتى نقوم لربنا صَفَا
لبست ثياب الختف جارية قد كنت ألبس دونها الختفا
فكأنها والنفس زاهقة غصن من الريحان قد جففا
ياقبر أبق على محاسنها لقد حويت البر والظرفا (٢)

فأنت ترى الشاعر عميقا فى حزنه ، مستسلما لما رزى به ، ولكنه لم يذكر بكاهه كغيره من الشعراء إذ لا تكاد نجد قصيدة فى الرثاء بدون دمع منهمر ، فالبكاء عند الشعراء مظهر من مظاهر الحزن وهو أيضا يدل على بساطة فى الحياة وسداجة فى الشعور ، فكما أن الطفل الصغير يبكى إذا تألم ، والمرأة تبكى إذا أغضبها شىء ، كذلك شعراء العرب كانوا يبكون إذا رثوا ، ولا أدرى لم لم يتبع شعراء مصر فى هذا العصر سُنَّة شعراء العرب أو طريقة المصريين فى المآتم .

أما حياة اللهو والمجون ومجالس الخمر والغزل فلا أكاد أجد لها ذكرا فيما وصلنا من الشعر فى هذا العصر ، ولا أستطيع أن أقول إنه لم يوجد فى مصر شعراء لهوا كما لها غيرهم ، وتغزلوا كما تغزل غيرهم ،

(١) الوكف : الأثم

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ١٧٩

وحياة مصر وأعيادها كانت تدعو إلى أن يتحدث عنها الشعراء،
ويكفى أن أنقل شيئا مما ذكره المقرئ عن أعياد المصريين، فقد قال
في حديثه عن عيد الشهيد، «ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد وكان من
أنزه أفرح مصر وهو الثامن من بشنس ويكون لذلك اليوم عيد ترحل
إليه النصارى من جميع القرى، ويركبون فيه الخيل، ويلعبون عليها،
ويخرج عامة أهل مصر على اختلاف طبقاتهم، وينصبون الخيم على
شطوط النيل وفي الجزائر ولا يبقى مغن ولا مغنية، ولا صاحب لهُو،
ولا رب ملعوب، ولا بغي، ولا مخنث، ولا ماجن، ولا خليع،
ولا فاتك، ولا فاسق، إلا ويخرج لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم
إلا خالقهم، وتصرف أموال لا تحصر، ويتجاهر هناك بما لا يحتمل
من المعاصى والفسوق، وتثور فتن، وتقتل أناس، ويباع من الخمر خاصة
في ذلك اليوم. وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائما بناحية شبرا (١)

وقد ظل هذا العيد بمصر إلى أن أمر بإبطاله الأمير بيبرس سنة ٥٧٠٢ هـ.
ومن هذه الأعياد أيضا عيد الغطاس وفيه يشارك المسلمون
النصارى، وفي هذا العيد لا يتناكرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل
والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر، والملاهي
والعزف والقصف، وهي أحسن ليلة تكون بمصر، وأشملها سرورا (٢)
وقد شاهد المسعودي عيد الغطاس سنة ثلاثين وثلثمائة هجرية ووصفها،
ومنع المصريون سنة سبع وستين وثلثمائة من إظهار ما كانوا يفعلونه

(١) المقرئ ١ - ص ١١٠

(٢) المقرئ ٢ - ص ٢٦

في الغطاس ، ثم سمح لهم سنة ثمان وثمانين وثلثمائة . وكذلك عيد الصليب ، وفيه كان المصريون يخرجون إلى خارج القسطنطينية ، ويتظاهرون بالمنكرات والمحرمات وقد أبطل هذا العيد سنة اثنتين وأربعمئة أيام الحاكم الفاطمي^(١)

من الطبيعي أنه كان بين الشعراء في هذا العصر من شارك الناس في لهوهم ، وعبيهم ، وأنشد شعرا في هذه الحياة الصاخبة الماجنة ، ولكن هذا الشعر فقد ولم يبق منه ما يدل عليه ، فلم يروه الرواة ، ولم يدونه المؤرخون ، ولا أستطيع أن أعلل ذلك . وكذلك لم يصلنا شعر في وصف الخمر مع أن الكندي يحدثنا أن العلويين خرجوا بمصر أيام الوالي يزيد بن حاتم ، فأرسل الوالي إلى أصحابه ، فجعلوا يأتونه سكارى ، فقال لهم : إن نضوحكم الليلة لكثير^(٢) . وخشى الوالي على بن سليمان عاقبة انتشار الخمر بين المصريين فأمر بمنع الملاهي والخمور في أيامه^(٣) ، ومع ذلك كله لم يصلنا شعر في مجالس الخمر ولا في وصفها . وكان بمصر قيان ومغنون شأنها في ذلك شأن كل الأقطار الإسلامية ، ويحدثنا الكندي أن القاضي العمري كان يشدو بأطراف الغناء على مغاني أهل المدينة ، ويبرز كثيراً في مجالسه ، ولا يتحاشى أن يقول هذا غنى به ابن سريح ، وهذا به الدلال وهذا من جيد غناء الغريض ، ولم يكن بمصر مُسَمِّعة إلا ركب إليها ، وسمع

(١) المفريزي ص ٢٠٩

(٢) الكندي ص ١١٣

(٣) الكندي ص ١١٣

غناهها، وربما قوم ما انكسر من غنائها، ويرى ذلك من الدين^(١) وقد هجاه خصومه بذلك فقال يحيى الخولاني: —

ألا قَسَمَ فاندبُ العرِبا وَبَكََّ الدينَ والحسِبا
ولا تنفك تبكى العد ل لما بان فاغتربا
لقد أحدثت قاضي السو ء في فسطاطنا عجبا
يظل نهاره يقضى بغير العدل منتصبا
ويسهر ليله لسا عه القينات والطربا
ويشربها معتقة عُقَّاراً تشبه الذهبا
ويعجبه سماع العود والمزمار يا عجبا
فيا للناس من قاض يحب اللهو واللعبا^(٢)

نستطيع أن ندرك كيف أخذ المصريون على القاضي كلفه بالغناء واعجابه بسماع العود والمزمار، وشرب الخمر، في حين أن خلفاء العباسيين في بغداد كانوا يلهون ويمجنون، ويظهرون اللهو والمجون ويشاركون في هذه الحياة الشعراء والندماء

الشعراء الوافدون

لم ينقطع في هذا العصر أيضاً وفود الشعراء على مصر لمدح الولاة والأمراء، بل كان بين الولاة أنفسهم من أنشد الشعر، كالوالي الفضل ابن صالح المتوفى سنة ١٧٢ هـ فقد كان شاعراً فصيحاً أديباً ومن شعره

(١) الكندي ص ٣٣٩

(٢) شرحه ص ٤٠٠

عاش الهوى واستشهد الصبر وعاش في الحزن والضُرِّ^١
وسهل التوديع يوم نوى ما كان قد وعَّره الهجر^(١)
والوالى عبد الله بن طاهر الذى ولى مصر سنة إحدى عشرة
وما تين كان بارع الأدب حسن الشعر^(٢) ومن شعره ما أرسله للخليفة
المأمون وقد أمره بالزيادة فى الجامع العتيق فكتب له ابن طاهر :
أخى أنت ومولاى ومن أشكر نِعْمَاهُ
فما أحببت من شيء فإني الدهر أهواه
وما تكره من شيء فإني لست أهواه
لك الله على ذلك لك الله لك الله^(٣)

وكان والى يزيد بن حاتم الذى ولى مصر سنة أربع وأربعين
ومائة مقصداً للناس لكرمه ، محباً للشعر وأهله^(٤) ، قصده كثير من
الشعراء منهم ربيعة بن ثابت الرقى ، قيل إنه مدح يزيد ، فتشاغل هذا
عنه ببعض الأمور ، واستبطأه ربيعة فرحل عن مصر وقال :
أرأنى ولا كفران لله راجعا بخفى حنين من نوال ابن حاتم
فبلغ هذا القول يزيد ، فأرسل فى استدعاء الشاعر ورده إلى مصر ،
فلما دخل عليه قال له : أنت القائل « أرأنى ولا كفران ؟ » قال : نعم .

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٦١

(٢) شرحه ج ٢ ص ١٩٢

(٣) شرحه وقد وردت هذه الأبيات فى كتاب الولاة للسكندى ص ١٨١ مع
اختلاف يسير ولكن السكندى روى أن ابن طاهر أرسل هذه الأبيات مع طلب
الامان لعبيد الله بن السرى الذى تحدثنا عنه

(٤) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢

قال : هل قلت غير هذا ؟ . قال : لا . قال : والله لترجعن بخفي حنين
مملوءة مالا ١١ فأمر بخلع خفيه ، وأن تملأ له مالا ، ثم قال له : أصلح
ما أفسدت من قولك . فما قاله الشاعر في مدح يزيد لما عزل عن مصر
بكي أهل مصر بالدموع السواجم

غداة غدا منها الأغر ابن حاتم^(١)

ويذكر السمعاني أن المسهر التميمي الشاعر وفد أيضاً على ابن حاتم
ومدحه وأجزل الأمير عظامه ، كما قصده الشاعر محمد بن عبد الله
ابن مسلم المعروف بابن المولى ومدحه بقصيدة طويلة منها :

وإذا تباع كريمة أو تُشترى

فسواك بائعها وأنت المشتري^(٢)

ومن قوله أيضاً في مدح يزيد :

يا واحد العرب الذي أضحى وليس له نظير

لو كان مثلك آخر ما كان في الدنيا فقير

ويحدثنا الطبري أن البطين الحمصي الشاعر وفد على مصر بصحبة
الوالي عبد الله بن طاهر^(٣) .

أبو نواس في مصر

وفي هذا العصر وفد أبو نواس على مصر ، ولمكانة أبي نواس في
الشعر ، ولكثرة ما حفظ لنا من شعره في مصر ، رأينا أن نطيل

(١) المقدم الفريد ج ١ ص ١٥٦ . والنجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢

(٢) النجوم ج ٢ ص ٢

(٣) تاريخ الطبري حوادث سنة ٢١٠ هـ

بعض الشيء في الحديث عنه في مصر .

حدثنا جامع أخبار أبي نواس^(١) أن الشاعر خرج إلى مصر
متكراً في زى الشطار مع سليمان بن أبي سهل ، فلما دخل على الخصيب
ازدراه هذا واستخف به ، ثم أرسل أبو نواس كتباً إلى الخصيب
فلم يستنشه ، فكان ينصرف مهموماً ، وعلم المصريون بوجود أبي نواس
بينهم ، فهرعوا إليه ، واستمعوا إلى شعره وكتبوه ، فأنشد بعضهم
هذا الشعر إلى الخصيب فاستحضره وأنشده قصيدته التي مطلعها :

أجارة بيتنا أبوك غيور وميسور ما يرجي لديك عسير
وهذه الرواية لا يصدقها عاقل إذ كيف يرفض أمير أن يستمع
لأبي نواس مع مكاتته في عالم الشعر إذ ذاك ؟ ففي الوقت الذي كان
ينشد فيه أبو نواس الخليفة في بغداد ، وينادم ولي العهد ، يرفض أمير
مصر أن يستمع إليه ! هذا ما لا أستطيع قبوله . وهناك رواية أخرى
ذكرها صاحب أخبار أبي نواس أيضاً ، تحدثنا أن الخصيب هو الذي
استزار أبا نواس فشرح هذا إليه وبينما هو في طريقه صادف قوماً
من أهل الأدب لهم شرف وهيبة ، فأنسهم ومضوا جميعاً حتى دخلوا
معهم مصر ، فسار أبو نواس إلى الخصيب الذي أحسن مقابله وسأله
عن خبره في رحلته واستنشه . هذه الرواية تناقض السابقة ، وهي
أقرب إلى الصواب لأن أبا نواس كان معروفاً في ذلك العصر في كل
البلاد الإسلامية وينشد شعره الأدباء بل زى بعضهم قد تتبع أخبار
أبي نواس وتنقلاته ، كالذي قيل إن النضر بن أمية الحمصي الشاعر

(١) أخبار أبي نواس نسخة خطية بدار الكتب المصرية

قال : إنه لما خرج أبو نواس من بغداد إلى مصر ، كتب الناس ببغداد إلى أهل الشام بذلك ، فلم يزل القوم في الشام يرقبون قدومه حتى قدم ويحدثنا السيوطي أن أهل الأدب بمصر لما عرفوا قدوم أبي نواس هرعوا إليه واستنشدوه ، فكان يجلس في المسجد الجامع والناس حوله ينشدون أشعاره وهم يكتبون (١) فهذا يدلنا على أن أبان نواس لم يكن بالشاعر المجهول عند المصريين وغير المصريين ، ولذلك فإني أرجح هذه الرواية الأخيرة أما الخصب الذي استقدم الشاعر فلا نكاد نعرف عنه شيئا ، ولم يذكره المزرخون بين ولاة مصر وأمرائها ، ولكن جامع ديوان أبي نواس قال : هو الخصب بن عبد الحميد العجمي ثم المرادي أمير مصر ، وهو دهقان من أهل المزار شريف الآباء ، وكان رئيسا في أرضه فانتقل إلى بغداد وصار كاتب مهبويه الرازي ثم انتقل إلى الإمارة (٢) . وفي حديث المقرئ عن المدن قال : منية الخصب ، هذه المدينة تنسب إلى الخصب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر (٣) ، ولكن كتب التاريخ لم تذكر الخصب أيضا بين ولاة خراج مصر ، وإذا أمعنا في دراسة ولاة مصر وأمرائها في عصر الرشيد ، نجد المؤرخين قد أهملوا ذكر صاحب الخراج في سنة ١٨٠ هـ وسنة ١٨٣ هـ وسنة ١٨٩ هـ أي أن الخصب كان أميراً على خراج مصر في إحدى هذه السنين ، والذي أرجحه أنه كان في سنة ١٨٩ هـ إذ هي السنة التي ولى فيها عبد الله بن محمد علي مصر وفي سنة ١٩٠ هـ جعل علي

(١) تحفة المجالس للسيوطي ص ٣٣٧

(٢) ديوان أبي نواس ص ٧٧ طبع مصر سنة ١٣٢٢

(٣) خطط للمقرئ ج ١ ص ٣٣١

الشرطة أحمد بن حوى ، وعلى الصلاة هاشم بن حديج ، وقد ورد ذكر هذين الأميرين فى شعر أبى نواس ، وإذن فقد كان أبو نواس فى مصر سنة ١٩٠ هـ .

تكاد تجمع الروايات على أن أول قصيدة أنشدها أبو نواس فى مصر هى قصيدته الرائية

أجارة بيتنا أبوك غيور وميسور ما يُرَجَى لَدَيْكَ عَسِير
وفىها يقول :

تقول التى عن بيتها خَفَّ مركبى
عزيز علينا أن نراك تسير

أما دون مصر للغنى متطلب

بلى ، إن أسباب الغنى لكثير

فقلت لها واسى — تعجلتها بوادر

جرت فجرى فى جريهن عبير

ذرىنى أكثر حاسديك برحلة

إلى بلد فيه الخصب — أمير (١)

وهو فى هذه القصيدة يصف رحلته من العراق ، ويذكر المدن التى مر بها ثم يحدثنا عن طمعه فى نوال الخصب ، بل هو فى كل شعره الذى أنشده فى مدح الخصب كان يتحدث دائما عن أمله فى العطاء الجزيل ، ويمنى نفسه بالمال الكثير

يا ابنتى أبشرى بيرة مصر وتمسى وأسرفى فى الأمانى

أنا فى ذمة الخصب مقيم حيث لا تعتدى صروف الزمان

قد علقنا من الخصب جبالا آمنتنا طوارق الحدان (٢)

(١) ديوان أبى نواس ص ٨٠ وأخبار أبى نواس لابن منظور ص ٢٣٧

(٢) ديوان أبى نواس ص ٧٨

وقوله أيضا:

وإني جـديـر إذ بلغتك بالمني
وأنت بما أملت منك جدير
وفي قصيدة أخرى قال
أنت الخصيب وهذه مصر
فتدفقا فكلًا كما بحر
لا تقعدا بي عن مدى أمل
شيئا فالكما به عنذر
ويحق لي إذ صرت بينكما
ألا يحل بساحتى فقر
النيل ينعش مأؤه مصرا
ونداك ينعش أهله الغمر (١)

فلولا هذا الطمع في المال ما أتى أبو نواس من بغداد إلى مصر
وقد ولد الأمل في نفسه ثقة بأن الخصيب سيغدق عليه العطاء فإذا
الشاعر صادق في مدحه للخصيب مغتبط بحضوره إلى مصر، عظيم الأمل
في الثروة، والخصيب كان يعطف على الشاعر ويعطيه، حتى قال
ابن منظور إن الخصيب أعطاه أول يوم ألف دينار، وأعطاه مثلها
ثاني يوم، وأعطاه ألفاً أخرى ثالث يوم، وقربه الخصيب إليه ونادمه.
وهذا المدح الذي أنشده أبو نواس للخصيب يختلف عن مدح
المتنبى لكافور الاخشيدى، إذ كان المتنبى كاذباً في مدحه، كان يصانع

كافورا ويجماله ، ويخشى نزواته ، وكان يظهر في شعره التكلف في المدح ، ومع ذلك فقد كانت نهاية أيام الشاعرين في مصر تكاد تكون واحدة ، إذ اضطر أبو نواس أخيرا إلى أن يهجو الخصيب ، وأن يرميه بالبخل ، وقيل إن سبب هذا الهجاء هو أن أبا نواس كان يكره شراب مصر ، وكان الخصيب يخص نفسه بشراب يحمل إليه ، فغضب أبو نواس وهجاه بقوله :

يخص خصيب بالشراب ويرتجى
لديه نوالا إن ذا لعجيب
وليس خصيب بالخصيب لضيفه
ولكنه وعر المحل جديب
فن كان ذا أهل بمصر وثروة
فإني بها صفر اليدين غريب
وهجاه مرة أخرى بقوله :

نفس الخصيب جميعه كذب
وحديثه جلسه كرب
تبكي الثياب عليه معوله
أن قد يجر ذيوها كلب
وقال مرة أخرى :

خبز الخصيب معلق بالكوكب
يحمى بكل مثقف ومسطب
جعل الطعام على بنيه محرما
قوتا وحلله لمن لم يسغب

فإذا هم رأوا الرغيف تطربوا

طرب الصيام إلى أذان المغرب (١)

وهكذا انتقل أبو نواس من مدح الخصب إلى هجائه ، ويغلب على ظني أن الخصب لم يف بوعده لأبي نواس ، أو أن أبا نواس كان يطمع في أضعاف ما ناله من الخصب ، كما كان الحال بين كافر والمتنبي بعد ذلك بقرن ونصف تقريبا

ونجد في ديوان أبي نواس بعض قصائد في هجاء هاشم بن حديج السكندی ، وفي كتاب أخبار أبي نواس عدة أبيات في هجاء معاوية ابن حديج الفيلسوف ، مما يدل على أن أبا نواس كان على صلة ببني حديج الذين كان لهم شأن كبير في تاريخ مصر الإسلامية ، ومؤسس هذه الأسرة في مصر هو معاوية بن حديج التجيبي السكندی ، وفد على مصر في جيش الفتح ، وكان رسول عمرو بن العاص إلى الخليفة يبشره بفتح الاسكندرية ، وكان رابع أربعة عينهم عمرو على خطط القسوطا وبعد مقتل الخليفة الثالث كان ابن حديج زعيم العثمانية بمصر ، إذ بايعه المصريون على الطلب بدم الخليفة المقتول ، فقاوم محمد بن أبي حذيفة ولكن ابن حديج اضطر إلى أن يهرب إلى دمشق ، ثم عاد إلى مصر لانتزاعها من أيدي العلويين ، وهو الذي قتل محمد بن أبي بكر وألقاه في جيفة حمار وأحرقه . كان هذا الرجل رأس أسرة بني حديج الذين أصبح منهم بعض الأمراء والقضاة كعبد الرحمن بن معاوية بن حديج الذي خرج ببيعة أهل مصر للوليد بن عبد الملك الأموي ، وعبد الله بن

عبد الرحمن بن معاوية الذي ولي مصر من قبل أبي جعفر المنصور سنة ١٥٢ ، وفي سنة ١٩٠ — وهي السنة التي فيها كان أبو نواس في مصر كجارجحت — صرف عبد الله بن محمد العباسي عن ولاية مصر ، فخرج واستخلف عليها هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن ، وهو الذي هجاه أبو نواس .

أما سبب هذا الهجاء فقد ذكر جامع ديوان أبي نواس أن الشاعر مدح هاشماً فلم يعطه شيئاً فهجاه ، ونقل عن كتاب الروضة للبرد أن هاشماً أراد أن يستبقى أبا نواس عنده في مصر فرفض هذا البقاء ، وخرج من مصر يهجو هاشماً ويهجو المصريين .

قفوا معشر الراحلين اسمعوا أنبئكم عن بني كنده
وردنا على هاشم مصره فبارت تجارتنا عنده
رأيتك عند حضور الخوا ن شديدا على العبد والعبيده^(١)
وزراه في هذا الهجاء يعير بني حديج بقتل محمد بن أبي بكر .
فإن حديجا له هجرة ولكنها زمن الرده
وما كان إيمانكم بالرسول سوى قتلكم صهره بعده
وما كان قاتله في الرجال بحمل لظهر ولا رشده^(٢)
وقوله :

يا هاشم بن حديج ليس فخركم
بقتل صهر رسول الله بالسدد

(١) ديوان أبي نواس ص ١٣٨

(٢) شرحه ص ١٣٩

أدرجتم في اهاب العير جثته

فبئس ما قدمت أيديكم لغد

ولكن يخيّل الى أن هناك سبباً آخر لهجائه بنى حديج يضاف إلى ما ذكره جامع ديوان أبي نواس ، فقد كانت المنافسة التي بين أحمد بن حوى العذرى وهاشم بن حديج شديدة جداً ، وتجلت هذه المنافسة فى قضية أهل الحرس التي تحدثنا عنها ، وكان أبو نواس شديد الصلة بابن حوى حتى أن الشاعر هجاكل المصرين إلا ابن حوى

دم المكارم بالفسطاط مسفوح

والجود قد ضاع فيها وهو مطروح

يا أهل مصر لقد غبتم بأجمعكم

لما حوى قصب السبق المسامح

أموالكم جمّة والبخل عارضها

والنيل مع جوده فيه التماسيح

لولا ندى ابن حوى أحمد نطقت

منى المفاصل فيكم والجواريح^(١)

وفى قصيدته السينية التي هجا بها هاشم بن حديج قال

ما منك سلبى ولا أطلالهما الدرّس

ولا نواطق من طير ولا خرس

ياهاشم بن حديج لو عددت أبا

مثل القلمس لم يعلق بك الدنس

(١) ديوان أبي نواس ص ١٢٧ — ١٢٨

إذ أصبح الملك النعمان وافده
ومن قضاة أسرى عنده حبس
فابتاعهم بإخاء الدهر ما عمروا
فلم ينل مثلها من مثله أنس
أورحت مثل حوى فى مكارمه
هيهات منك حوى حين يلتمس (١)

ومع ذلك كله فقد عاد أبو نواس إلى نفسه ، وذكر نسبه فى اليمينية
وأن اليمينية تجمع بينه وبين هاشم بن حديج ، فعاتب نفسه واعتذر إلى
هاشم عن هذا الهجاء

أهاشم خذ منى رضاك وإن أتى
رضاك على نفسى فغير ملوم
فأقسم ماجاوزت بالشتم والذى
وعرضى وما مزقت غير أديمى
فعدت بحقوى هاشم فأجارنى
كريم أراه فوق كل كريم
وإن امرأ أغضى على مثل زلتى
وإن جرحت فيه لعين حلیم
تطاول فوق الناس حتى كأنما
يرون به نجماً أمام نجوم (٢)

(١) ديوان أبى نواس ص ١٣٩

(٢) شرحه ص ١٢٦

أما صلة أبي نواس بشعراء مصر ، فحدثنا السيوطي أن أدباء مصر
وشعراءها تسابقوا لمصاحبة أبي نواس ، وكتابة شعره ، وكان بينهم
رجل يعرف بالحسن بن عمر الأجهري ، كان شاعراً ضعيف الشأن ،
فأراد أن يعلى شأنه ، فهجا أبا نواس بقوله

ألا قل للنواصي الضعيف الحال والقدر
خبرنا منك أحوالا فلم نحمدك في الخبر
وما إن ذعت بالمنظر ولكن ذعت بالذکر

وكان هذا الشاعر من أوحش الناس صورة ، فنظر إليه النواصي
وقال : بماذا أهجوك ، وبأى شيء أصفك ، وقد سبقني الله تعالى إلى
توحيش منظرک ، وتقييح مخبرک ، وهل أكون إن قلت شيئاً إلا سارقاً
من ربي ، ومتكلفاً ما قد كفاني . فقال له بعض من معه من المصريين :
على كل حال لا يقول هذا إنه أفجمك ، فقال النواصي

بما أهجوك لا أدري لسانى فيك لا يجرى
إذا فكرت في هجو ك أبقيت على شعري

وحدثنا صاحب أخبار أبي نواس قصة دعاة أبي نواس وهوه مع
الفتيان الثلاثة ، وهذا الشعر الذى أنشده فى أصحابه هؤلاء ، كل هذا
يدلنا على أن أبا نواس اشترك مع الشعب المصرى فى لهوه ومجونه .
لابى نواس أشعار كثيرة قيلت فى مصر ولكنها لم تصل إلينا
فيقول جامع شعره إن لابی نواس بمصر قصائد لا يعرفها أهل العراق
ويروى ديك الجن وقد دخل مصر بعد أن تركها أبو نواس أنه
وجد للنواصي أشعاراً كثيرة منها .

إذا ذكرت بغداد لي فكأنما تحرك في قلبي شباه سنان
وأوبة مشتاق بغير دراهم إلى أهله من أعظم الحدائق

وروى حمزة الأصفهاني أنه وجد رسالة في شعر أبي نواس وقد
سقط منها الشعر الذي قاله بالشام ومصر، مع أن المصريين يروون
للنواصي أشعاراً كثيرة لم تقع إلى أهل العراق، قال وقدم علينا رجل
من حمص حافظ لشعر أبي نواس وزعم أن أباه كان قد لقي أبا نواس
بحمص فكتب عنه قصائد له أنشدها في مصر.

وفي كتاب أخبار الحسن بن هانيء لابن منظور نجد روايات كثيرة
تدلنا على أن أبا نواس كان صديقاً لأحمد بن يوسف المعروف بابن
الداية. ولكنني أعتقد أن أحمد بن يوسف هذا لم يقابل أبا نواس لأن ابن
الداية توفي بمصر بعد وفاة أبي نواس بنحو قرن، أي بعد انتهاء الدولة
الطولونية. فقد وهم إذن ابن منظور حين روى عن ابن الداية أنه كان
صديقاً لأبي نواس، وربما كان أحمد بن يوسف كاتب العباسيين المعروف
هو صاحب أبي نواس فوهم ابن منظور وظنه ابن الداية لتشابه
اسميهما.

خرج أبو نواس من مصر بعد أن مكث فيها سنة كما ذكر صاحب
أخباره، وقد هجا مصر والمصريين بالآيات التي ذكرتها سابقاً، ثم نراه
يهجو النيل أيضاً

أضمرت للنيل هجرانا وتقلية إذ قيل لي إنما التمساح في النيل
وفي شعر أبي نواس في مصر، نجد أثر مصر واضحاً قوياً، فمثلاً

هو يذكر دائما قصة (موسى فرعون) التي كانت في مصر ، فتراه قد شبه شعره بعضا موسى تلقف ما يقول غيره من الشعراء
فقد قيل إن أبا نواس لما دخل لأول مرة عند الخصيب رأى جماعة من الشعراء أسن منه ، فطلب من الخصيب أن ينشدوا قبله، فلما أنشدوا تبسم أبو نواس وقال : أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تلقف ما يأفكون ، ثم أنشده قصيدته الرائية وفيها يقول :
وأطرق حيات البلاد لحية خصيية التصميم حين تسور
ومدح الخصيب مرة أخرى بقوله :

حية تصرع الرجال إذا ما صارعوا رأيه على الأذقان
وحذر المصريين من الاستمرار في الفتنة والثورة بقوله :
منحتكم يا أهل مصر نصيحتي ألا فخذوا من ناصح بنصيب
فإن يك باق إفك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب
رماكم أمير المؤمنين بحية أكل لحيات البلاد شروب

ولا أكاد أعرف لا نبي نواس شعراً في هذا المعنى أنشده في غير مصر ، مما يدل على أن هذا المعنى من أثر مصر في شعر أبي نواس ، ثم ذكر النيل مراراً وما به من التماسيح ، وهو معنى مصرى لا يتأتى لشاعر لم ير النيل ، ولم يسمع عما به من التماسيح

ووفد على مصر أيضا الشاعر الهجاء دعبل بن علي الخزاعي طمعا في نوال أحد أقاربه المطلب بن عبد الله الخزاعي والى مصر ، ومدحه دعبل أولا بقصيدته التي فيها

أبعد مصر وبعده مطلب ترجو الغنى إن ذا من العجب
إن كاثرونا جئنا بأسرته أو واحدونا جئنا بمطلب
فولاه المطلب إقليم أسوان فمكث به أياما ولعله لم يرض بما ناله
فغضب ، ولم ينبج المطلب من هجائه إذ قال فيه :

أمطلب أنت مستعذب حميا الأفاعى ومستقبل
وعاديت قوما فما ضرهم وشرفت قوما فلم ينبلوا

فاضطر الوالى إلى أن يعزله وكان المطلب يقول كلما قابل دعبل
ما تفكرت فى قولك قط « وإن كاثرونا جئنا بأسرته » إلا كنت
أحب الناس إلى ، ولا تفكرت والله فى قولك لى « وعاديت قوما » إلا
كنت أبغض الناس إلى (١)

وحدث أنه عزل المطلب من مصر فلم يقبل أن يسلمها لمن خلفه
فتحاربا فانهم المطلب واضطر إلى أن يفر إلى مكة فقال دعبل فى
ذلك :

فكيف رأيت سيوف الحريش ووقعة مولى بنى ضبة
أحجتك أسيافهم كارها وما لك فى الحج من رغبة (٢)
يريد بمولى بنى ضبة السرى بن الحكم الوالى الذى جاء بعد
المطلب .

ولقد سعدت مصر سنة تسع وتسعين ومائة بوفود الإمام محمد بن

(١) تراجع أخبار دعبل بمصر ج ١٨ ص ٤٨ من كتاب الأغاني

(٢) الولاة والفضاة للكندى ص ١٦١

إدريس الشافعي على مصر بصحبة عبد الله ابن الوالى العباس بن موسى
وقيل إن الشافعي قدم مصر بعد أن أحس بالشر في بغداد ، وأن الفتنة
اشتدت في إظهار القول بخلق القرآن ، فهرب من بغداد إلى مصر (١)
ومهما يكن السبب الذى جاء من أجله الشافعي إلى مصر فإنه أقام بها
ناشراً لأرائه وعلمه ملازماً للاشتغال بجامع عمرو بزاوية الحشاية
التي عرفت به (٢)

كان الشافعي شاعراً ويحدثنا السيوطي أن الشافعي اجتمع بعبدالله بن
هشام صاحب السيرة وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة (٣) ومع
ذلك فالشافعي كان يهتم بالفقه أكثر من اهتمامه بالشعر ولا أنه كان
يقول :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد (٤)

كان مجيء هؤلاء الشعراء إلى مصر من العوامل التي ساعدت روح
الشاعرية المصرية وأيقظت ما كمن منها ، ومن الجائز أن بعض
الشعراء المصريين كانوا يحاولون تقليد الشعراء الوافدين ، وقد رأينا
كيف كان يجتمع المصريون في المسجد الجامع لاستماع شعر أبي نواس
وكيف اهتموا به ، فهذا يدل على نمو الروح الأدبية في مصر وتطورها

(١) ثمرات الأوراق مطبوع على هامش محاضرة الأدياء ص ٤٤

(٢) الانتصار بواسطة عقد الأمصار لابن دقماق ج ٤ ص ١٤٠

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠٦

(٤) راجع ما كتبه آتفا عن الشافعي

شعراء مصريون راحلون

يمتاز هذا العصر أيضا بظهور شعراء مصريين ، أو بمن أخذوا بحظ من الثقافة في مصر ، وقضوا فيها شطرا من حياتهم الأولى ، ثم غادروها إلى مقر الخلافة ، حيث اتصلوا بالخليفة ورجاله ، ومع أننا نستطيع أن نسمى هؤلاء الشعراء مصريين أو متمصرين — إن صح هذا التعبير — فإن شعرهم اصطبغ بصبغة البلاد التي حلوا بها فلم يعد لهم أية صلة بمصر ، ولذلك لا يعدهم الأدباء من المصريين ، فشاعر كأبي تمام مهما قيل عن أصله ومولده ، فلا شك أنه جاء مصر وهو صغير ، وكان يستقى الماء في المسجد الجامع ، وجالس الأدباء والعلماء في مصر ، وحفظ في مصر الآلاف من الأراجيز والقصائد التي ساعدته على تهيئة ملكة الاختيار من شعر العرب ، وجعلته يجمع منها حماسه ، وفي مصر قال أبو تمام أول شعره ، وما زال في مصر حتى شاع ذكره فبلغ الخليفة العباسي المعتصم خبره فاستقدمه وأحسن إليه (١) ومكث أبو تمام بالعراق وخراسان حتى آخر أيام حياته

لم يكن أبو تمام مصرى المولد ولكنه قضى شطرا من حياته فيها كما قضى أكثر أيام حياته بعيدا عنها ، ومع ذلك فالمصريون يعتبرونه واحداً منهم بل يغالون ويدعون أنه شاعرهم الأكبر ، ويفخرون به حتى عده الكندي أحد فضائل مصر (٢) وذلك لنبوغته وشهرته الواسعة

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٣٢٢

(٢) فضائل مصر للكندي نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٢٢ (تاريخ)

وكثرة الشعر الذى أنشده ، ولعله أول رجل تخرج فى المدرسة المصرية
تروى له هذا العدد الكبير من القصائد

وحياة أبى تمام فى مصر غامضة أشد الغموض إذ لم يصلنا عنه
شيئاً كثيراً فى مصر ، ولا نعرف عن أخذ علومه ، كما لا نعرف شيئاً عن
اتصاله بأشراف المصريين وشعرائهم

ولكن الذى نلاحظه على شعر أبى تمام فى مصر هو عدم الاكثار
من الزينة البديعية والتلاعب اللفظى ، فإن هذه الآيات القليلة التى
وصلتنا من شعره الذى أنشده فى مصر تدلنا على أن أبى تمام تبع شعراء
مصر فى ذلك الوقت فى ألفاظهم ومعانيهم ، بالرغم من محاولته أحياناً
إلى التلاعب بالألفاظ ، ومع ذلك ، فلم يبق لنا من شعره فى مصر سوى
هذه الآيات القليلة التى لا نستطيع بها أن نحكم على شعره

ولعل أول ما وصلنا من شعره بمصر قصيدته التى مدح بها
عبدالله بن طاهر حين قدم مصر وهزم عبيد الله بن السرى الثائر بمصر
سنة إحدى وعشرين ومائتين وفيها يقول :

لعمري لقد كانت بمصر وقية

أقامت على قصد الهدى كل مائل

على الخندق الأقصى وما كان حوله

وما قد يليه من فضاء وساحل^(١)

وأنشده أبو تمام شعراً فى الحروب التى كانت بمصر فى هذا العهد
من ذلك قصيدته فى رثاء عمير بن الوليد الوالى الذى قتل يوم الثلاثاء

(١) الولاية للسكندى ص ١٨١

ثلاث عشرة من ربيع الآخر عام أربعة ومائتين وقد قتل في حرب
بينه وبين أهل الحوف وفي هذه القصيدة ظهر أثر حفظه للأشعار
ولعادات الجاهلية من بكاء على الميت ولطم الخدود، وهي نفس عادات
المصريين التي لم يشر إليها الشعراء المصريون وإنما تشاهد كل يوم.

أعيدى النوح معولة أعيدى

وزيدى في بكائك ثم زيدى

وقومى فى نساء حاسرات

خوامش للنحور وللخدود

هو الخطبُ الذى ابتدع الرزايا

وقال لأعين الثقلين جودى

ألا رزئت خراسان فتاها

غداة ثوى عمير بن الوليد

ألا رزئت بمسئول منيل

ألا رزئت بمتلاف مفيد

ألا إن الندى والجود حلاً

بحيث حللت من حفر الصعيد

بنفسى أنت من ملك رمته

منبئته بسهم ردى سديد

واستمر في بكائه ونحيبه ثم انتقل إلى ذكر الميت فوصفه بالشجاعة

فى القتال والجود والسخاء

ويا يوم الثلاثاء اعتمدنا

بفقد فيك للسند العميد

فكم أسخنت فينا من عيون
وكم أعثرت فينا من جدود^(١)
ضاق أبو تمام ذرعا بما هو فيه من فقر وإملاق وكان يطمع
في المال الكثير:

لقد طلعت في وجه مصر بوجهة
بلا طالع سعد ولا طائر سهل
وساوس آمال ومذهب همة
مخيممة بين المطية والرجل
نأيت فلا مال حويت ولم أقم
فأمتع إذ فجعت بالمال والأهل
لثام طعام أو كرام بزعمهم
سواسية ما أشبه الحول بالقبل^(٢)

واضطر إلى أن يرحل من مصر غير آسف على فراقها وإن حن
إليها بعد خروجه منها فذكر إخوانه بالقسطاط
بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا
بالرقتين وبالقسطاط إخواني
وما أظن النوى ترضى بما صنعت
حتى تشافه بي أقصى خراسان

(١) الكندي ص ١٨٦ وديوان أبي تمام (طبعة محمد جمال ترخيص نظاره
لمعارف نمرة ٤١٣) والجزء الخامس من نهاية الأرب ص ٢٠٤
(٢) ديوان أبي تمام ص ٤٢١

خلفت بالأفق الغربي لى سكننا

قد كان عيشى به حلواً بحلوان (١)

ماتى الموسوس :

وهناك شاعر آخر يختلف عن أبى تمام اختلافا تاما ذلك هو محمد بن القاسم ويكنى أبا الحسين ، ويعرف بماتى الموسوس لأنه كان بعقله شىء من الجنون ، هذا الرجل مصرى المولد والنشأة ، لكنه خرج من مصر ولم نعرف متى خرج ، إذ لم نعرث على شىء من أخباره غير أن أبا الفرج يحدثنا أن هذا الشاعر « قدم مدينة السلام ولقيه جماعة من شيوخنا منهم أبو العباس بن عمار وأبو الحسن الأسدى وغيرهما (٢) وقد وصفه أحد الأدباء لمحمد بن عبد الله بن طاهر وقد طلب أحداً لمنادمته فقال له : قد خطر ببالى من ليس علينا بمنادمته ثقل ، قد خلا من إبرام المجالسين ، وبرىء من ثقل المؤانسين ، خفيف الوطأة إذا أدنيتته ، سريع الوثبة إذا أمرته (٣)

لم يصلنا عن هذا الرجل سوى أخبار فى جنونه ، وأبيات قليلة مبعثرة فى كتب الأدب تحملنا على القول بأن الشاعر كان كلفا بالغزل ووصف مجالس الخمر واللهو ، وبرع فى هذه الفنون . وقد تأثر بالقدماء فوقف على الديار وبكى الأطلال . وكان يحفظ كثيراً من الشعر ويرويه لأبى العباس بن عمار وهذا يكتب عنه ، قال ابن عمار (٤) كان

(١) شرحه ص ٣٢٣

(٢) الأغاني - ٢٠ ص ٨٤

(٣) ذيل ابن خلكان - ٢ ص ٢٦٢

(٤) الاغانى - ٢٠ ص ٨٤

« مان ، يالفنى ، وكان مليح الإِشَادِ حلوه ، رقيق الشعر غزله ، فكان
ينشد فى الشىء ثم يخالط فيقطعه ، وكان يوماً جالسا إلى جنبي فأشددنى
للعريان البصرى قوله :

ما أنصفتك العيون لم تكف
وقد رأيت الحبيب لم يقف
إلى آخر القصيدة فسألته أن يملها على ففعل ، ثم قال: أكتب ، فعارضه
أبو الحسين المصرى يعنى مانا نفسه فقال
أقفر مغنى الديار بالنجف
وحلت عما عهدت من لطف
طويت عنها الرضا مذمة
لما انطوى غصن عيشها الأنف
حللت عن سكرة الصبابة من
خوف إلهى بمعرك قذف
سئمت ورد الصبا فقد يبست
منى بنات الخدور والخزف
سلوت عن نهد نسين إلى
حسن قوام واللحظ فى وطف
وتوفى هذا الرجل سنة خمس وأربعين ومائتين

لمحة عن أشهر الشعراء في ذلك العصر

١ — سعيد بن عفير :

هو سعيد بن كثير بن عفير بن مسلمة بن يزيد بن الأسود الأنصاري ويكنى أبا عثمان ، ولد بمصر سنة ست وأربعين ومائة ، وأتم علومه الدينية بمصر ، ثم رحل إلى بغداد فالمدينة حيث سمع الموطأ من الامام مالك ، وعاد إلى مصر فروى الحديث عن الليث بن سعد ، وابن لهيعة ، وصار أحد المحدثين الثقات ، وعنه أخذ البخاري والنسائي ، وابن عبدالحكم وبكار بن قتيبه وغيرهم^(١) وأخذ بخط وافر من العلوم الأدبية فدرس علم الأنساب والتاريخ وحفظ أيام العرب وآثرها ، ووقائعها ، والمناقب والمثالب ، وكان في ذلك كله عالما كبيرا « وكان أدبيا فصيح اللسان حسن البيان ، لاتمل مجالسته . ولا ينزف علمه ، ويقال إن مصر لم تخرج أجمع للعلوم منه »^(٢) وكان عبد الله بن طاهر يقول : رأيت بمصر من عجائب الدنيا ثلاثة أشياء ، النيل والهرمين وابن عفير^(٣) . وبجانب هذا كله كان الشاعر ذكيا سريع البديهة ، حاضر الجواب فقد حدثنا ابن زولاق أن المأمون لما قدم مصر سنة سبع عشرة ومائتين جلس بقبة الهواء وحضرته سعيد بن عفير ، فقال المأمون : لعن الله

(١) حسن المحاضرة في مواضع متفرقة ، ومسالك الأبصار للعمري في باب المحدثين
(٢) نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية
(٣) تهذيب التهذيب > ٤ ص ٧٤
(٣) البلدان للهمداني ص ٦٨

فرعون حيث يقول : أليس لي ملك مصر ، فلو رأى العراق وخصبها
فقال سعيد بن عفير : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا فإن الله عز وجل
قال : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » فما
ظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله هذا بقيته !!^(١) .

ويحدثنا السيوطي^(٢) أن ابن عفير ولي قضاء مصر ولكنه لم أجد
له ذكرا بين القضاة في كتاب الكندي ، ولا في رفع الإصر عن قضاة
مصر لا بن حجر العسقلاني ، ولكنه كان صديقا للقضاة ، وكانوا
يرجعون إليه في كثير من المسائل الفقهية ، ويثقون بشهادته ، كما كان
أحد الذين جعل إليهم التحكيم في قضية أهل الحرس التي مر ذكرها ،
كما كان له رأى في اختيار قاضي مصر سنة اثنتي عشرة ومائتين ، فقد
قيل إن عبد الله بن طاهر أمر بإحضار وجوه أهل مصر ، فحضر عدد
كبير بينهم سعيد بن عفير ، فطلب إليهم ابن طاهر أن يختاروا قاضيا من
بينهم ، فرشح بعضهم أصبغ بن فرج الفقيه العالم ، فعارضه سعيد بن عفير
وقال : ليس هذا الرجل كما وصفت ، هذا رجل بذى طويل اللسان ،
وسجع سعيد في وصفه . فقام أصبغ فقال : إن الأمير أمر أن يحضر
في مجلسه الفقهاء وأهل العلم ، لا الشعراء ولا الكهنة^(٣) . من هذا الحديث
نستطيع أن ندرك أن ابن عفير عرف بين معاصريه بالشعر ، وهجاء
خصوصه بذلك .

(١) فضائل مصر وإخبارها لابن زولاق (نسخة خطية بمكتبة الأزهر رقم ٦٦٩)

(٢) حسن المحاضرة ١٢ ص ١٦٨

(٣) القضاة للكندي ص ٤٣٤

اتصل ابن عفير بالحوادث التي كانت في عهده ، وأنشد الشعر في كل الاضطرابات التي كانت في مصر إذ ذاك ، لاسيما ما كان منها بين سنة ثمان وستين ومائة وسنة تسع ومائتين وقد ظهر في شعره روح العصية العربية وقد ذكرنا صوراً من شعره في ذلك .

وكان ابن عفير رجلاً كريم النفس لم يتملق رئيساً ، ولم يمدح أميراً بقصد العطاء ، فلم يتكسب بشعره كغيره من الشعراء ، بل بالعكس من ذلك ، نراه قد هجا الوالي المطلب الخزاعي ومدح معارضه هبيرة بن هاشم ، ورثى أبا بشر الأنصاري الذي قتله الوالي^(١) .

لم يصلنا كل شعر هذا الرجل وإنما هي مقطعات قصيرة صغيرة ، لا نستطيع أن نعرف منها شاعريته ، ولا أدرى كيف قال الأستاذ «جوست» إن رثاء ابن عفير أرقى ما وصل إليه الشعر العربي في كتاب الكندي وأجمله^(٢) . ولكن الأستاذ «جوست» كغيره من المستشرقين لا يستطيعون أن يتذوقوا الشعر العربي مهما بلغ علمهم وثقافتهم في العلوم العربية ، لأن ذوقهم الفني متأثر بالبيئة التي هم فيها ، وخاضع لألوان الحياة التي يحيونها ، وهي تختلف تمام الاختلاف عن البيئة والحياة العربية ، والذوق لا يأتي بالعلم والدرس فقط بل هو خاضع قبل كل شيء لما يحيط بالناقد من ظروف الحياة ، فالمستشرق يستطيع أن يحكم على شعر أنشد بلغته وقد يكون دقيقاً في حكمه ، حكيماً في نقده ؛ ولكنه لا يستطيع أن يحكم على شعر عربي لبعده من بيئة هذا الشعر ، ثم

(١) الكندي ص ١٥٦

(٢) الكندي ص ٤٣

إن الأستاذ جوست قد حكم على الشاعر بهذه المقطعات القصيرة الصغيرة ، وهي عندي لا تكفى لأن ترينا رقة الشعر وجماله ، فالناقد لا يحكم على شاعر بقصيدة قالها ، وإلا كنا كالقدماء الذين كانوا يفضلون شاعرا على آخر لببت قاله حتى سخر منهم مروان بن أبي حفصة فقد قيل إنه كان يروى شعرا لزهير ، وقال زهير والله أشعر الناس ، ثم أنشد للأعشى ، وقال الأعشى ، أشعر الناس ، ثم أنشد لامرئ القيس وقال امرؤ القيس أشعر الناس ، ثم ضحك وقال : والناس والله أشعر الناس .

ومهما يكن من شيء فإن ابن عفير لم يكن شاعرا فحسب ، فقد كان عالما محدثا وفقها ، وأظن ان علم الرجل يفسد في كثير من الأحيان شعره إذا أخضع فنه لعلمه ، ويخرجه من الشعر الطبيعي إلى الشعر القريب من النظم ، لأن الشاعر العالم يخضع لعقله أكثر مما يخضع لعواطفه وشعوره ، أما إذا استطاع أن يخضع علمه لفنه فهنا نستطيع أن نتذوق الشعر الفنى القوى الذى لا يدانيه شعر آخر .

وتوفى سعيد بن عفير كما قال الذهبي سنة ست وعشرين ومائتين (١) .

المعلی الطائی

لا نعرف عن هذا الشاعر إلا شيئا قليلا ، ولم يتحدث عنه المؤرخون إلا بقدر لا يسمح لنا أن نعرف شخصيته ، وكل ما نعرفه أنه كان معاصرا لابن عفير ، ولكنه لم يبلغ من العلم ما بلغه صاحبه ، ويخيل إلى أنه

(١) تاريخ الاسلام للذهبي نسخة خطية بدار الكتب المصرية

انقطع إلى الشعر والتكسب به ، فقد مدح الولاة ، واتصل بهم جميعا ،
ودافع عن سياستهم ، وهجا أعداءهم ، فكان كغيره من الشعراء المادحين
المتكسبين بشعرهم ، فكان يمدح الوالى فإذا عزل الوالى يمدح من يأتى
بعده ، وقد رأينا يمدح المطلب الخزاعى وابن السرى ، ثم يمدح عبدالله
ابن الطاهر الذى قتل ابن السرى ، ويحدثنا ابن سعيد فى كتابه
« المغرب فى أخبار المغرب » أن المعلى ممن عاصر أبى نواس (١) ، فمن
الجانز أن يكون قد اتصل بأبى نواس لما وفد هذا على مصر ، ولكننا
لا نعلم تماما مدى هذا الاتصال إذ لم يصلنا شئ من أخبارهما . ويروى
ابن سعيد هذه الآيات الشهيرة للمعلى :

لولا بُنَيَّات كزُغَب القِطَا مُجْمَعَنَ من بعض إلى بعض
لسكان لى مضطربٌ واسع فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا أ كبادنا تمشى على الأرض
إن هبّت الریح على بعضهم أشفقت العين من الغمض (٢)
ولكن أبى تمام فى حماسته ينسبها لحطان بن المعلى (٣) ، ورواها ابن
عبد ربه منسوبة إلى المعلى (٤) ولا أستطيع أن أجزم لمن هذه الآيات
وإن كنت أميل إلى الأخذ بقول أبى تمام لأنه كان معاصرا للمعلى .
ويخيل إلى أن المعلى الطائى كان صاحب لهُو ومجون . ولعل هذه

(١) المغرب ص ١٠١

(٢) شرحه

(٣) ديوان الحماسة ص ١٠١ (مطبعة السعادة سنة ١٩١٣)

(٤) العقد الفريد ج ١ ص ٣٦٤

الآبيات القلييلة التي رواها أبو الفرج في الأغاني تؤيد أن المعلى كان يشرب الخمر كما كان يشربها كثير من الشعراء فهو يذكر الخمر بقوله :

باكر صبوحك صبيحة النيروز

واشرب بكأس مترع وبكوز

ضحك الربيع إليك عن نواره

آس ونسرين ومرماحوز (١)

الجمال الأكبر:

اسمه الحسين بن عبد السلام ، ويعد في طليعة شعراء هذا العصر فقد تمتع بشهرة فائقة في دولة الشعر ، واتصل بكثير من الأمراء والقضاة ، ولد سنة سبعين ومائة ، وتلقى العلم بمصر حتى إذا وفد الشافعي على مصر ، صحبه الجمل وأخذ عنه ولا نعلم شيئاً عن حياة هذا الرجل أيضاً ، سوى أنه كان يتكسب بشعره ، فمدح الولاة وغيرهم ابتغاء الأموال والهبات ، فقد مدح المأمون بمصر ، كما مدح عبد الله ابن طاهر ، وأكثر مدائحه التي وصلتنا أنشدها في مدح القاضي محمد ابن ابى الليث ، وظل الشاعر يعرض شعره على الأمراء حتى كان ابن المدبر فاتصل به ، ثم اتصل بأحمد بن طولون ، وخص به فاتخذه شاعره ونديمه ، وعرف عن الجمل شره في الطعام ، وقذارة الثوب ودناءة النفس (٢) ولست أدري كيف نعته ابن يونس بهذه الصفات ، في حين أننا نجد الجمل يقول في إحدى قصائده :

(١) الأغاني ١٧ ص ١٢٧

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٤ ص ٧٦

إذا أظمأتك أكف اللثام كفتك القناعة شبعاً ورياً
فكن رجلاً رجله في الثرى وهامة همته في الثريا
أيا لنسائل ذي ثروة تراه بما في يديه أياً
فإن إراقة ماء الحيسا ة دون إراقة ماء المحيا (١)
ومن الجائز أن الجمل كان من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون
وعرف الجمل بشيء من الظرف ، وشهد له بذلك ، فإن ابن سعيد في
حديثه عن الجمل الأصغر قال : لقيه كلقب الاكبر وكذلك اسمه ،
وكان ينحو في الظرافة والتطايب منحاه (٢)

وكما عرف الجمل بالمدح فقد عرف بالهجاء ، فقد روى أن الحسين
ابن عبد السلام بكر إلى سليمان بن وهب عامل الخراج بمصر ، فلم
يمكنه الحاجب من الدخول ، وأدخل شاعرين آخرين هما ابن شعوة
وحمديوه ؛ فلم يستطع الجمل صبراً ؛ وأرسل إلى سليمان أبياتاً منها :
ولعمري لئن حجبتنا عن الشيبخ فلا عن وجه هناك وجيه
لا ولا عن طعامه التافه النز الذي جوله لظام بنيه
بل حجبتنا به عن الحسيف والمسبخ وذاك التبريق والتمويه
فجزى الله حاجبنا فظا كل خير عنا إذا يجزيه (٣)
وقد روينا له أبياتاً كثيرة عن الحوادث التي كانت بمصر في ذلك
العصر وتوفي هذا الشاعر سنة ثمان وخمسين ومائتين من الهجرة .

(١) شرحه

(٢) المغرب ص ١٠٢

(٣) العقد الفريد ١ ص ٤١

الفصل الثالث

الشعر في عهد الطولونيين والأخشيديين

نستطيع أى نقدر لهذا العصر قيمته الأدبية إذا عرفنا أن الدولة العباسية اضمحل أمرها، وفقدت سلطانها، وانقسمت إلى دويلات صغيرة صار الأمر فيها إلى حكامها، ولم يبق للخليفة العباسى إلا الدعاء فى الخطبة، بل كثيراً ما كان الولاية يقطعون خطبة الخليفة العباسى، فصار أمير كل دويلة مستقلاً فى شئون دويلته. وتنافس الأمراء فيما بينهم، فكان بينهم حروب، وأراد كل أمير أن يعرف فضله، وتعالى كلمته، فشجع الأمراء العلم، وحبب كل أمير إلى العلماء أن يفدوا عليه، واتخذ الأمراء من الشعراء وسيلة لنشر سلطانهم وازدياد نفوذهم فأغروا الشعراء بالأموال والهبات، وتنافس الشعراء فى خدمة الأمراء، فكانت فى الأقطار الإسلامية نهضة شعرية كبيرة، وابتدأ ظهور الشعر الإقليمى — إن صح أن نسميه كذلك — إذ ظهر فى الشعر عناصر الأقاليم المختلفة، وميزات الدول المتباينة، وأصبح فى كل إقليم شعراء، وحفظ كل إقليم الشعر الذى أنشد فيه، فبعد أن كانت بغداد هى مركز الحياة الأدبية وقلبها النابض، صار الشعراء يقصدون الأقاليم المختلفة كما كانوا يقصدون بغداد من قبل، وأصبحت النهضة الأدبية متفرقة فى الأقاليم، وكثرت الرحلات العلمية إلى مختلف الأمصار، وأكثر الأمراء عطاء ونوالاً هو أعظمهم حظاً من وفود الشعراء والعلماء.

وكان الطولونيون بمصر أهل كرم وبذخ، يعطون الأموال الكثيرة، ويهبون الهدايا ويمدون السمط لكل طارق، واستقدموا الشعراء والأدباء، وقربوهم ووصلوهم، فكونوا حولهم بلاطاً أديباً أشبه ما يكون ببلاط خلفاء العباسيين، فأنتجت هذه الحياة في مصر أيام الطولونيين شعراً كثيراً، واجتمع في مصر عدد من الشعراء قل أن يجود الدهر بمثلهم حتى بالغ القاضي أبو عمرو عثمان النابلسي في عددهم، إذ نقل عنه المقرئ أنه قال في كتابه «حسن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة» رأيت كتاباً قدر اثنتي عشرة كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذي لأحمد بن طولون. قال: فإذا كان أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة كم يكون شعرهم؟ (١) ومع ما في هذا القول من مبالغة فإن بنى طولون جمعوا حولهم عدداً كبيراً من الشعراء فكثرت بذلك الشعراء المتكسبون، فلم يأت الأمير أمراً إلا ظهر في شعر الشعراء، فمثلاً في الخلاف الذي كان بين أحمد بن طولون والموفق العباسي سنة تسع وستين ومائتين نجد شعراء ابن طولون قد دافعوا عنه، ومدحوه لأنه خلع الموفق عن ولاية العهد، وأمر بجهاده وحربه، من ذلك ما قاله قعدان بن عمرو.

طال الهدى بابن طولون الأمير كما

يزهوه الدين عن دين وإسلام

قاد الجيوش من الفسطاط يقدّمها

منه على الهول ماضٍ غير محجّام

(١) خطط المقرئ ص ٢ من ١٢٤

فِي جَحْفَلٍ لِلْمَنَايَا فِي مَقَانِبِهِ
مَكَامِنٌ بَيْنَ رَايَاتٍ وَأَعْلَامٍ
يَسْمُو بِهِ مِنْ بَنِي سَامٍ غَطَارِقَةٌ
بِيضٌ وَسُودٌ أَسْوَدٌ مِنْ بَنِي حَامٍ
لَوْ أَنَّ رُوحَ بَنِي كَنْدَجٍ مُعَلَّقَةٌ^(١)
بِالْمَشْتَرَى لَمْ يَفْتَهُ أَوْ بِبِهْرَامٍ
حَاطَ الْخَلَاقَةَ وَالدُنْيَا خَلِيفَتَنَا
بِصَارِمٍ مِنْ سِيُوفِ اللَّهِ صَمْصَامٍ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ هُبُّوا نَاصِرِينَ لَهُ
مَعَ الْأَمِيرِ بِدُهُمِ الْخَيْلِ فِي اللَّامِ
لَيْسَتْ صَلَاةُ مُصَلِّيكُمْ بِجَائِزَةٌ
وَلَا الصِّيَامُ بِمَقْبُولٍ لِصِيَّامٍ
حَتَّى يَرَى السَّيِّدُ الْمَيْمُونُ ذَبَّكُمْ
عَنِ الْإِمَامِ بِأَطْرَافِ الْقَنَّا الدَّامِي^(٢)
وَكَقَوْلِ الشَّاعِرِ مَنْصَفِ بْنِ خَلِيفَةِ الْهَذَلِيِّ
يَا عُرَّةَ الدُّنْيَا الَّذِي أَعْمَالُهُ
عُرْرٌ بِهَا كُلُّ الْوَرَى تَتَعَلَّقُ
أَنْتَ الْأَمِيرُ عَلَى الشَّامِ وَتَغْرُهَا
وَالرَّقَّتَيْنِ وَمَا حَوَاهِ الْمَشْرِقِ

(١) يقصد الشاعر هنا إسحاق بن كنداج الذي أسر الخليفة المعتمد أثناء فراره من الموفق في طريقه إلى ابن طولون
(٢) الكندي ص ٢٢٧

وإليك مصرُ وبرقةٌ وحجازها
كلُّ إليك فؤاده متشوق
هتَكَ الخِلافةَ ، صاعِدُ^(١) وخليله
« اسحق » لعبا والحسود الأخرق
أسيافنا يبيض المنون فلَمَيَسَتْهَا
بِنَجِيعِ مَنْ خذل الإِمامَ تَخَلَّقَ
تُمَسِّي وتُصْبِحُ ضاربا من دونه
بمهندٍ منه الحُثُوفُ تُفَرِّقُ
يَتَلَوُّكَ « سَعْدُ » ، والمُقَدِّمُ « تَيْسَتُكَ »
« واللادقي » وذو الحفيظة يَلْحَقُ^(٢)

وفي أيام خمارويه بن أحمد بن طولون خرج خمارويه لحرب إسحق
ابن كنداج سنة ثلاث وسبعين ومائتين فهزم ابن كنداج وتبعه خمارويه
حتى بلغ « سر من رأى » فدحه القاسم بن يحيى المريني
أثانا أبو الجيش الأمير يُمْنُهُ
فَشَرَّدَ عَنَا الجورَ وافْتَقَرَ العُسْرُ
فإنَّ يَكُ أرضُ الرقتين به اكتست
ضياءً وإشراقا لقد أظلمت مصر
فسائل به إسحق إذ سار نحوه
بجيش كعروض النيل يقدّمه النصر

(١) هو صاعد بن مخلد الذي ساعد ابن كنداج في أسر المعتد

(٢) السكندی ص ٢٢٨ وقد وردت الايات الثلاثة الاولى في النجوم الزاهرة

ج ٣ ص ٢٠ غير منسوبة لاحد في رثاء ابن طولون ، وهذا خطأ كما يفهم من الشعر

فأبلسَ إذ قیل الأمير یالس
وأضحی ضعیف العقید إذ عُقِد الجَمْرُ
ولما رأى الجيش ابنُ كُنْدَجَ مقبلا
أرته المنایا الحمرَ أعلامه الحمر
فولی شديدا ذا ارتباع كأنه
بكل بلاد طائرته ماله وكره
لئن سرَّ اسحق النجاة بنفسه
لقد ساءه في جمعه القتل والأسر
فلا يُغَبَطَنَّ بالعیش من بعد هذه
فقد كسرتُه كسرة ما لها جبر (١)

وقد خص القاسم بن يحيى بن معاوية المريعي شعره في مدح خمارويه
وقال فيه كل مدائح حتى سئل مرة أن يرحل عن مصر فقال :

وكيف رحيلي عن بلاد غدا بها
أبوالجيش والنيل الذي ملأ الأرض (٢)

وما كادت تدول دولة الطولونيين ، وتعود مصر مرة أخرى إلى
حكم العباسيين سنة اثنتين وتسعين ومائتين حتى رأينا الشعراء يرثون
الطولونيين ، ويأسفون على أيامهم الزاهرة ، بل نجد شاعرا هو سعيد
القاص ينظم تاريخهم في قصيدة أرى أن أثبتها هنا لما فيها من إشادة
بأفعال الطولونيين ومنشئاتهم

(١) الكندي ص ٢٣٦ - ٢٣٧

(٢) الجزء الثالث من كتاب المغرب (نسخة خطية بدار الكتب المصرية)

جری دمعه ما بین سحر إلى نحر
ولم یَجْر حتى أسلمته يد الصبر
وبات وقیدا للذی خامر الحشا
یئن كما أن الأسیر من الأسر
وهل یستطیع الصبر من كان ذا أسی
بیت علی جمر و یضجی علی جمر
تتابع أحداث یضیع صبره
وغدر من الأيام والدهر ذو غدر
أصاب علی رغم الأتوف وجدعها
ذوی الدین والدنیا بقاصمة الظهر
طوی زینة الدنیا ومصباح أهلها
بفقـد بنی طولون والأنجم الزهر
فبادوا وأضحوا بعد عزٍّ ومنعة
أحادیث لا تخفی علی کل ذی حجر
وكان أبو العباس أحمد ماجدا
جمیل المحیّا لا یدیت علی وتر
كان لیالی الدهر كانت لحسنها
وإشراقها فی عصره لیلة القدر
یدل علی فضل ابن طولون همّة
محلقة بین السّمّا کین والغفر

فإن كنتَ تبغى شاهداً ذا عدالةٍ
يخبرُ عنه بالجلسيِّ من الأمر
فبالجبل الغربيِّ خطلة يشكر
له مسجد يفتى عن المنطق الهذريِّ
يدلُّ ذوى الألباب أن بناءه
وبانيه لا بالضنين ولا العمر
بناه بأجر وساج وعمر
وبالمرمر المسنون والجص والصخر
بعيد مدى الأفطار سام بناؤه
وثيق المبانى من عمود ومن جذر
فسيح الرحاب يُحسّر الطرف دونه
رقيق النسيم طيبُ العرف والنشر
وتنورُ فرعونَ الذى فوق قلة
على شاهق عال على جبل وعز
بنى مسجداً فيه يروق بناؤه
ويهدى به فى الليل إن ضل من يسرى
تخال سنا قنديه وضياه
سهيلاً إذا ما لاح فى الليل للسفر
وعين معينُ الشرب عينُ زكية
وغير أجاج للرواة وللظهر

كَأَنَّ وَفُودَ النَّيْلِ فِي جَنَابَتِهَا
تَرُوحُ وَتَغْدُو بَيْنَ مَدٍّ إِلَى جَزْرٍ
فَأَرَقَاهَا^(١) مَسْتَنْبِطًا لِمَعِينِهَا
مِنَ الْأَرْضِ مِنْ بَطْنِ عَمِيقٍ إِلَى ظَهْرِ
بِنَاءِ لَوِّ انَّ الْجَنِّ جَاءَتْ بِمِثْلِهِ
لَقِيْلٌ لَقَدْ جَاءَ بِمَسْتَفْظَعٍ نَكَرٍ
يَمْرُ عَلَى أَرْضِ الْمَعَاوِرِ كُلِّهَا
وَشُعْبَانَ وَالْأَحْمُورِ وَالْحَيِّ مِنْ بَشَرٍ
قَبَائِلُ لَانُوءُ السَّحَابِ يَمْدُهَا
وَلَا النَّيْلُ يَرُويهَا وَلَا جَدُولٌ يَجْرِي
وَلَا تَنْسُ مَارِسَاتَانَهُ وَاتْسَاعَهُ
وَتَوْسِعَةَ الْأَرْزَاقِ لِلْحَوْلِ وَالشَّهْرِ
وَمَا فِيهِ مِنْ قُوَّامِهِ وَكُفَّاتِهِ
وَرَفَقَتِهِمْ بِالْمُعْتَفِينَ ذَوِي الْفَقْرِ
فَلَلْمَيْتِ الْمَقْبُورِ حُسْنُ جِهَازِهِ
وَاللَّحْيِ رَفَقٌ فِي عِلَاجٍ وَفِي جَبْرِ
وَإِنْ جِثَّتْ رَأْسُ الْجَسْرِ فَانظُرْ تَأْمُلًا
إِلَى الْحِصْنِ أَوْ فَاعْبُرْ إِلَيْهِ عَلَى الْجَسْرِ
تَرَى أَثْرًا لَمْ يَبْقَ مِنْ يَسْتِطِيعُهُ
مِنَ النَّاسِ فِي بَدْوِ الْبِلَادِ وَلَا حَضَرِ

(١) فِي الْفَامُوسِ أَرَقَا : أَصْلَحَ وَفَسَدَ مِنَ الْأَضْدَادِ

مآثر لا تبلى وإن باد ربهما
ومجدٌ يؤدَّى واريثه إلى الفخر
لقد ضُمَّنَّ القبرَ المقدرَ ذرْعُهُ
أجل إذا ما قيس من قُبَّتِي حَجْرُ
وقام أبو الجيش ابنه بعد موته
كما قام ليث الغاب في الأسَلِ الشمر
أنته المنايا وهو في أمن داره
فأصبح مسلوبا من النهى والأمر
كذلك الليالي من أعارته بهجة
فيالك من ناب حديد ومن ظفُر
وَوَرَّثَ هرون ابنه تاج ماجد
كذلك أبو الأشبال ذوالناب والهصر
وقد كان جيش قبـله في محله
ولكن جيشا كان مستنقص العمر
فقام بأمر الملك هرون مدة
على كظظ من ضيق باع ومن حصر
وما زال حتى زال والدهر كاشع
عقاربُه من كل ناحية تسرى
تذكرتهم لما مَضَوْا فتابعوا
كما ارفض سلك من جمان ومن شذر

فمن يبك شيئا ضاع من بعد أهله
لفقدهم فليك حُزنا على مصر
ليك نبى طولون إذ بان عصرهم
فبورك من دهر وبورك من عصر^(١)

ولهذا الشاعر أيضا عدة قصائد في مدح الطولونيين يصف فيها جميعا ازدهار الحياة في مصر، وقوة البلاد في عصرهم وما كانت ترتع فيه من نعيم ورخاء .

على أن هؤلاء الشعراء الذين أكثروا من مدح الطولونيين وخلعوا عليهم هذه الصفات والألقاب الشعرية التي نراها دائما في مدح شعراء العرب، لم يلبثوا أن تحولوا إلى مدح الأمراء والولاة العباسيين الذي أبادوا ملك الطولونيين، وأخرجوا قوادهم ومواليهم، فخلت منهم الديار المصرية وأحلوا بالطولونيين التطريد والتشريد ففي حين نرى شاعرا كاسماعيل بن أبي هاشم قد مدح الطولونيين بعدة قصائد كقوله بعد أن دالت دولتهم:

قفْ وَفَقَّةً بَفناء باب الساج
والقصر ذى الشَّرَفاتِ والأبراج
وربوع قوم أزعجوا عن دارهم
بعد الإقامة أيمًا إزعاج
كانوا مصايحًا إذا ظلمَ الدُّجى
يسرى بها السارون في الإءلاج

(١) خطط المغربي ج ٢ ص ١١٩

وَكأَنِّ وَجُوهَهُمْ إِذَا أَبْصَرَتْهَا
من فضة مصبوغة أو عاج
كَانُوا لِيُونَا لَا يُرَامُ حِمَاهُمْ
في كل ملحة وكل هياج
فانظر إلى آثارهم تلقى لهم
علماً بكل ثنية وفجاج
وعليهم ما عشت لا أدع البكا
مع كل ذي نظر وطرفٍ ساج^(١)

هذا القول يظهر فيه الوفاء للطلوليين والإخلاص لهم ونراه قد
استمر على وفائه وإخلاصه ، يدلنا على ذلك شعره في ثورة محمد بن علي
الخليجي^(٢) وكان أحد جند الطولونيين الذين أسرهم محمد بن سليمان القائد ،
وسار بهم إلى الشام ، وفي دمشق حدثت نفس ابن الخليجي أن يعود
إلى مصر ، ويعيد الطولونيين إلى ملكهم ، وكشف بذلك بعض أصفياه
فأجمعوا كلمتهم على ذلك ، وساروا معه حتى استولوا على الرملة باسم
إبراهيم بن خمارويه ، واجتمع إليه خلق كثير سار بهم إلى مصر وهزم
جيوش عيسى التوشري الوالي حتى استطاع ابن الخليجي أن يستولى

(١) المخطوط ٢ ص ١١٩ والسكندی ص ١٣٢ — ٢٥٣

(٢) سمي هذا الرجل في السكندی ص ٢٥٩ بـ ابن الخليج وفي القرظي ص ٢
ص ١٢٤ ، ولكن صاحب النجوم الزاهرة ص ٣ ص ١٩٢ سماه الخنجي ، وفي
مروج الذهب ج ٤ ص ٢١٧ سمي بالخليجي وكذلك في تاريخ الطبري ص ١١ ص ٣٩٣
والذي يصح عندي أنه ابن الخليج أو الخليجي لقول الشاعر في مدحه
وكان أبوك خليج العفاة
وبحر الثغور التي عالها

على الفسطاط في ذى القعدة سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وأرسل
الخليفة المكتفي بالله جيشا لقتاله وعليهم أبو الأغر خليفة بن المبارك
وغيره فقاتلهم ابن الخليجي بمنية الأصبع وهزمهم سنة ثلاث وتسعين
ومائتين (١) فمدحه الشعراء منهم اسماعيل بن هاشم بقوله :

أميرنا يابن البهليل العُسررُ شَقِيَتْ من عدونا أبي الأغر
صدورنا وقيت من كل حذرُ إذ جاء في الشوك إينوا والشجر
في جمحفل كموج بحر قد زخر يتبعه أهل البوادي والحضر
صبرت إذ لاقيته وما صبر فر في أسرع من ملح البصر
يقطر منه بوله قطر المطر أحدث فوق سرجه وما شعر
شفيقتنا من تُرْ كهم مع الخزر ثم عفا أميرنا لما قدر (٢)

فهو هنا قد حفظ وفاء الطولونيين حتى أنه مدح ابن الخليجي الذي
عمل على إعادة دولة الطولونيين ولكن من الجائز أن يكون الشاعر قد
مدحه خوفاً منه ، ومع ذلك فقد مدح أحد صنائع الطولونيين وهو
بخلاف الشاعر سعيد القاص ، فقد رأينا قصيدته التي تحدث فيها عن
الطولونيين ، ومع ذلك فقد مدح القائد بدر الحمامي الذي هزم ابن
الخليجي سنة ثلاث وتسعين ومائتين بقوله :

حالتُ معارفهم إلى إنكار وغدا الخميسُ لهم بيوم بوار
وتقاطعوا وتدابروا وتنافروا وتلاعنوا فيها كأهل النار
وأسوك بين مُعَدَّرٍ في عُذْرِهِ وخجلٍ وبين مصرح الإقرار

(١) النجوم الزاهرة ٣ > ص ١٥١ وما بعدها

(٢) الكندي ص ٢٥٩

وتزعزعت تلك الرماح فصورت ركنَ المقطم في شفير هار
طلّعت نجوم في الرماح بروحها فسقطن إذ طلعت نجوم قُدار
لما انجلي ذلك الغبار رأيتهم صرعى وقد لبسوا برسيم عُبار
فأسعد بنصر الله والفتح الذي عظمت به النعمى على الأبرار (١)

فهذا شاعر متقلب في مدحه يمدح ذا السلطان والإمارة دون نظر
إلى مبدأ أو عقيدة مثله في ذلك مثل الشاعر أحمد بن محمد الحبشي الذي
مدح القائد محمد بن سليمان الكاتب لما دخل مصر وانتزعها من أيدي
الطولونيين — فقد أنشد هذا الشاعر قصيدة بائنة تكاد تكون هي
نفسها قصيدة أبي تمام التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
فالشاعر المصري في قصيدته أخذ معاني قصيدة أبي تمام وأودعها
شعره بل أخذ ألفاظ أبي تمام وصنع منها قصيدته وفيها يقول :

الحمد لله إقراراً بما وهباً
قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبا
الله أصدق هذا الفتح لا كذب
فسوء عاقبة المشوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيا محمداه
وفرّج الظلم والإظلام والكربا
لا ريب رب هياج يقتضى دعة
وفي القصاص حياة تذهب الرّيبا

رمى الإمامُ به عذراء غادرة
فافتض عذرتها بالسيف واقتضبا
محمدُ بنُ سليمان أعزَّهُمُ
نفساً وأكرمهم في الذاهبين أبا
سرى بأسدِ الشرى لولم يروا بشرا
أضحى عربهم الخطى لا القضبا
حُسم القضاء على اليعموم حين أتوا
مثل الدثني يتمحون الدببة الدأبا
إيها علوتَ على الأيام مرتبة
أبا على ترى من دونها الرتبا
لما أطال بنو طولون خطبتهم
من الخطوب وعافت منهم الخطبا
هارت بهرون من ذكراك بقتعته
وشيب الرعبُ شيانا وقد رعبا
وكم ترى لهم من جنة أنف
ومن نعيم جنى من غدرهم عطبا
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم
كأنها من زمان غابر ذهباً^(١)

ولأترك مقارنته هذه القصيدة المصرية بقصيدة أبي تمام المعروفة
التي أنشدها في مدح المعتصم ويذكر فيها فتح عمورية إذ ليس هنا مجال

(١) خطط المغربي ص ٢٠٨ من ١١٨ والكندى ص ٢٤٨

البحث عن ذلك وأكتفى بالإشارة إليها ، وأعود إلى الشاعر أحمد ابن محمد الحبشي فأقول إنه كغيره من الشعراء الذين يمدحون أصحاب السلطان ويتغيرون بتغير الولاة والأمراء فهو في هذه القصيدة مدح عدو الطولونيين فلما استولى ابن الخليجي على مصر وأراد أن يعيد ملك الطولونيين نراه قد مدح الأمير لانتصاره على جيوش العباسيين بقوله :

غَضِبْتَ لِمِصْرَ وَمَا نَالَهَا	وَسَرَدْتَ بِالْحُوفِ مَنْ غَالَهَا
تَلَاقَيْتَهَا بَعْدَ إِدْبَارِهَا	وَأَقْبَلْتَ تَطَلُّبَ إِقْبَالِهَا
وَكَادَتْ تُؤَوِّهُ شَوْقًا إِلَيْكَ	وَتُظْهِرُ بِالشُّوقِ بِلْبَالِهَا
وَمَا شَوْقَهَا كَانَ مِنْ طَبْعِهَا	وَلَكِنْ رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا
لَقَدْ فَرَّجَ اللَّهُ كَرْبَ النُّفُوسِ	وَبَلَّغَهَا فِيكَ آمَالَهَا
وَلَمَّا رَأَيْتَ أَنَّكَ فِي مِصْرِنَا	مِنْحَنَا الْإِمَارَةَ إِجْلَالِهَا
وَمَا زِلْتَ تَطْلُبُهَا هِمَّةً	وَتَرْكَبُ بِالسُّيْفِ أَهْوَالَهَا
وَتُعَلِّمُ نَفْسَكَ أَنَّ الْأُمُورَ	إِمَّا عَلَيْهَا وَإِمَّا لَهَا
تَمَنُّونَا لِقَاكَ فَلَمَّا رَأَوْكَ	رَأَوْا لِلنِّيَّةِ إِضْلَالَهَا
وَمَرُّوا يَطْبِعُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ	رَأَوْهُ الْمُنَايَا وَإِنْزَالَهَا
وَكَانَ أَبُوكَ خَلِيجَ الْعَفَاةِ	وَبِحَرِّ الثَّغُورِ الَّتِي عَالَهَا
بِهِ كَانَتْ الرُّومُ فِي أَمْنِهَا	تُفَرِّغُ لِلذَّنْبِ أَطْفَالَهَا (١)

نستطيع من ذلك كله أن ندرك أن عدداً كبيراً من الشعراء ظهرُوا في هذا العصر ، وأنشدوا شعراً في مدح الأمراء وأن كثيراً منهم

تقلب في المدح بتقلب الأحوال السياسية في البلد ، إذ لا همّ لأمثال هؤلاء الشعراء إلا إرضاء الأمير مهما كان هذا الأمير .

على أنه وجد بعض الشعراء الذين اتخذوا لأنفسهم رأياً خاصاً ، ومذهباً دافعوا عنه غير آبهين بأمر أو سلطان ، ففي الوقت الذي كان فيه أحمد بن طولون في منتهى قوته واتساع سلطانه ، وفي الوقت الذي تقرب فيه الشعراء إليه وحاولوا إرضاءه وطمعوا في نواله وتحدثوا عن نعمه وأياديه على البلاد ، في هذا الوقت نجد شاعراً من شعراء الطولونيين هو محمد بن داؤد قد أكثر من هجاء أحمد بن طولون فلم يأت الأمير عملاً إلا هجاء هذا الشاعر حتى إذا أقام الأمير المنشئات النافعة نجد الشاعر قد اتخذ هذه المنشئات وسيلة لهجاء الأمير دون خوف ، فمثلاً قد بنى الأمير المارستان سنة تسع وخمسين ومائتين فهجاه الشاعر محمد بن داؤد بقوله :

ألا أيها الأغفال إيهأ تأملوا
وهل يوقظ الأذهانَ غَيْرُ التأمّل
ألم تعلموا أن ابن طولون نِقْمَةٌ
تُسَيِّرُ من سُفل إليكم ومن عل
ولولا جنایاتُ الذنوب لما عَسَلَتْ
عايكم يد العلج السخيف المجهل
فياليت مارستانه نِيطَ باستيه
وما فيه من عِلْجٍ عُسْلٌ مُقَلَّل

تكم ضجة للناس من خلفِ سِثْرِهِ
تضج إلى قلب عن الله مُغْفَلٌ (١)
ولمابني أحمد بن طولون المراكب الحربية واتخذ الحصن في الجزيرة
هجاه الشاعر ابن داؤد بقوله .

لما سُوى ابن بُغَا بالرقتين مَلا
ساقيه زَرَقاً إلى الكعبين والعقب
بني الجزيرة حصناً يَسْتَجِنُّ به
بالعَسْفِ والضرب، والصُّنَاعُ في تعب
وراقبَ الجيزة القصوى فخذقها
وكاد يُصْعَقُ من خوفٍ ومن رعب
له مراكب فوق النيل راكدة
فما سوى القار للنظار والخشب
يُرَى عليها لِبَاسٌ الذل مذ بنيت
بالشط ممنوعة من عِزَّةِ الطلب
فما بناها لغزو الروم مُحْتَسِبا
لكن بناها غداة الروع للهرب (٢)

وظل هذا الشاعر يهجو أحمد بن طولون حتى توفي الأمير فلم
يقطع عن هجائه بل رماه بأشد أنواع الهجاء ولم يتورع عن بسط
لسانه في الأمير حتى بعد وفاته من ذلك قوله :

(١) شرحه

(٢) نخطط المفريزي ص ٣٠ ص ٢٩٣ والسكندی ص ٢١٨

مضى غير مفقود وما كان عمره
سوى نقمة للخلق شنعاء صيَّلم
لقد زيد في اليعموم بالرجس لعنة
ولم يُسْتَقَ بالمرجوس تُرْبُ المقطم
ولم تبك الأرضون لكن تبسمت
سروراً ولولا موته لم تبسم
ببشره إبليسُ عند قدومه
عليه بأحمى بقعة في جهنم
لقد طهرت الأرض من سوء فعله
ومن وجهه ذاك السكرية المورم
فلا سقيت أجدائه صوبُ مزنة
وأنتى وفيها شر أولاد آدم^(١)

ولا أدري سبب هذا الهجاء الذي لا أكاد أعرف مثيلاً له في
الهجاء العربي فإن الشعراء كانوا أمام حرمة الموت يتورعون عن هجاء
الموتى ولكن هذا الشاعر المصري كان موتورا — كما يخيل إليّ —
فلم يكفه أن يظهر فرحه لموت الأمير بل هجاه بهذه الأبيات وبغيرها
مما يدل على أن المصريين في هذا العصر اتخذوا الشعر وسيلة لهجاء
الموتى وهو الأمر الذي لم نره في شعر المصريين قبل ذلك العصر .
وفي هذا العصر أيضاً ظهر في الشعر المصري فن لم نجد له مثيلاً
في العصور السابقة، بل لا نجد له مثيلاً في الشعر العربي إلا في شعر

(١) الكندي ص ٢٣٢

الأندلسيين ، فمؤرخو الأدب العربي قالوا إن الأندلسيين امتازوا برثاء الممالك والبلدان كلما اختطف عدوهم منها شيئاً ، وأشاد مؤرخو الأدب بقصيدة ابن عبدون الأندلسي التي رثى بها دولة بني الألفس والتي مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالآثر فما البكاء على الأشباح والصور

ومن يقرأ الشعر المصري في هذا العصر يجد أن هذا الفن كان معروفاً في مصر ، وأن شعراء مصر أكثروا في الحديث عنه ، فبعد أن دالت دولة الطولونيين ، وعاد الأمر إلى الخليفة العباسي ودمرت القطائع ، وخرّب الميدان قام شعراء مصر يرثون أيام الطولونيين ، وما بنوه ، ويعدّون مفاخرهم ، ويصفون دورهم ، ويأسفون على ما لحق هذه المنشآت الجميلة من التدمير والحراب ، والترحم على الأيام الجميلة التي قضوها بين هذه المباني مثل قول الشاعر محمد بن طشويه :

من لم ير الهدمَ للبيدان لم يرَهُ
تبارك الله ما أعلاه وأقدَرَهُ
لو أن عينَ الذي أنشاه تبصُرُهُ
والحادثات تعاديه لأكبره
كانت عيونُ الورى تُغشى لهيبته
إذا أضاف إليه الملكُ عسكرَهُ
أين الملوك التي كانت تحل به
وأين من كان بالاعتقان دبرَهُ

وأين من كان يحميه ويحرسه
من كل ليث يهابُ الليثُ منظره
صاح الزمان بمن فيه ففرقهم
وحط ريبَ البلي فيه فدعثره
وأخلق الدهر منه حُسنَ جدته
مِثْلَ الكتابِ محاصرانِ أسطره
دُكَّتْ مناظره واجتثَّ جوسمته
كأنما الخسفُ فاجأه فدمره
أو هبَّ إعصارُ نارٍ في جوانبه
فعداد معروفته للعين منكره
كم كان يأوى إليه في مقاصيره
أحوى أغنَّ غضيض الطرف أحوره
كم كان فيه لهم من مشربٍ غدق
فعبَّ طرفُ الردى فيه فكدره
أين ابن طولون بانيه وساكنه
أماته الملكُ الأعلى فأقبره
ما أوضح الأمر لو صحت لنا فيكره
طوبى لمن خصه رشدٌ فذكره (١)
وقال اسماعيل بن أبي هاشم :

(١) خطط المقرئى ج ٢ ص ١٢١ والسكندى ص ٢٦٣

يامنزلا لبني طولون قد دَثرَا

سقاك صوبُ الغواذى القطر والمطرا

يامنزلا صرت أجفوه وأهجره

وكان يعدل عندى السمع والبصرا

بالله عندك علم من أحببتنا

أم هل سمعت لهم من بعدنا خيرا (١)

وكقصيدة سعيد العاص التي مر ذكرها ، فمن ذلك نستطيع أن ندرك أن الشعراء المصريين أخذوا بنصيب وافر من هذا الفن الذى لم يكثر فيه غيرهم من شعراء الشرق ، كما يدلنا ذلك أيضا على تطور الشعر فى مصر ، فبعد أن كان الشعر المصرى فى العصور السابقة يكاد يكون صورة من الشعر العربى فى الأقطار الأخرى من حيث المعانى والخيال ، مع تغير المعانى والخيال بالحياة وبعض الصور المصرية ، وبعد أن كان الشعر شعر مناسبات — إن صح هذا التعبير — أصبح الشعر فى عصر الطولونيين والأخشيديين يأخذ مظهراً آخر لم نعرفه من قبل ، وقد رأينا الشعراء فى العصر السابق يأخذون بحظ وافر من الثقافات المختلفة ، وبعضهم صاحبوا الأئمة وأخذوا عنهم ، تطور الشعراء فى عصر الطولونيين فقد ترك أكثرهم العلم ، واهتموا بالفن الشعرى والتكسب به ، حقيقة وجد بعض الشعراء فى ذلك العصر أتقنوا كثيرا من فنون العلم ، فكان منهم الكتاب أمثال جعفر بن محمد ابن جدار وصالح بن رشدين وغيرهما ، وكان منهم المؤلفون

(١) شرحه > ٢ ص ١٢٢ والكندى ص ٢٦٦

أمثال ابن الداية الذي تحدثنا عنه سابقا ، والحسن بن علي الاسدي
صاحب كتاب الانيس الذي وصفه بقوله :

فيه ما يشتهي الأديب من العـ

لم وفيه جلاء هم النـفوس

فيه ما شئت من بدور معان

ضاحكات إلى وجوه شمس^(١)

كما كان بين شعراء ذلك العصر بعض الفقهاء أمثال منصور الفقيه
والحداد القاضي ، ومنهم المتكلمون كابن الجبي الشهير بسيدويه المصري ،
وبالغ بعضهم في إطالة القصائد كالذي يروي عن قصيدة محمد بن
أحمد بن الربيع بن سليمان الاسواني التي لا يعلم في الوجود أطول منها ،
سئل قبل موته بستين كم بلغت قصيدتك إلى الآن قال : ثلاثين ومائة
ألف بيت وقد ضمن قصيدته هذه كثيرا من الاخبار وقصص الأنبياء
وبعض العلوم والآراء الفقهية وعلوم الطب^(٢) ، وبالرغم من وجود
هؤلاء الشعراء العلماء كان أكثر شعراء ذلك العصر يهتمون بالشعر
دون غيره .

وفي الشعر المصري في هذا العصر كثير من الحكم والأبيات التي
جرت مجرى الأمثال ، وكثير من أشعار الزهد كالتي نراها في أشعار
منصور الفقيه وابن طباطبا وغيرهما .

(١) بنية الدهر للتعالي ج ١ ص ٣٢٧

(٢) فوات الوفيات للصفدي ج ١ ص ٤٤٤ نسخة خطية بالمكتبة التيبورية

أثر اللهب في الشعر:

والظاهرة التي يجب أن نلاحظها على شعراء هذا العصر هي انغماس الشعراء في تيار اللهب والمجون، فقد غمرهم الترف، فأخذوا بحظ وافر منه، وكثر المجون في هذا العصر، وازداد بازدياد ثروة البلاد، فرغب الشعب المصري في هذه الحياة الماجنة، والمصري بطبيعته ميال إلى الفكاهة والدعابة، وإذا ذكر في العراق جماعة أبي نواس ففى مصر جماعة محمد بن عاصم وسعيد بن فاخر قاضى البقر شاعر الاخشيد، وأبى هريرة بن أبى العصام وغيرهم.

وقد ساعد على وجود هذه الحياة بمصر بذخ الأمراء وإسرافهم، وأخذهم بحياة التعميم وشرب الخمر والإسراف في شربها وسماع الغناء، واللهب بالجوارى والقيان كما كان يفعل خلفاء بنى العباس.

فأحمد بن طولون مع تمسكه بأهداب الدين، وكثرة علمه، وما كان يؤثر عنه أنه كان يبكر كل يوم فيخرج لسماع قراءة الأئمة في المحراب (١) كان مع ذلك كله يشرب الخمر ويسمع الغناء، ويقرب المغنين.

حدثنا ابن الداية قال: قال أحمد بن أيمن: كنا عند أحمد بن طولون فقال لكنين المغنى أشتهى صوتا ما سمعته منذ خرجت من سر من رأى، فقال: وما هو ياسيدى؟ فقال هذا البيت:

ألا شفيتم غليلا لا أفارقه نفسى فدأؤك من ذى غلة صادى
فملى التبيد وما استهوانى من تقريب أحمد بن طولون وإيناسه
على أن قلت: أنا أحسنه !! ففرح ابن طولون، واندفعت أغنيه إياه

(١) الأذكياء لابن الجوزى ص ٤٩ (طبعة سنة ١٢٧٧ هـ)

— وكان أحمد بن أيمن ذاجثة عظيمة ، وعقيرة جهيرة حسنة الإيقاع —
فطرب طربا شديدا ثم صفق بيديه ، فسبقته إلى سخف الطرب ،
وقمت فرقصت على إيقاع اللحن فزاد سروره (١).

وعرف خمارويه بن أحمد بن طولون باللهو والمجون ، والبذخ في
الحياة والإسراف في الشراب حتى حدثنا التنوخي أن خمارويه كان
إذا قعد للشرب يشرب أربعين رطلا من نبيذ مصر المعروف بالشبروى ،
ومن يشرب منه رطلا يستطيع أن يشرب من غيره أرتالا (٢) ، وهذا
لا شك إسراف من التنوخي أيضا ، ولكنه يدلنا على أن خمارويه كان
كلفا بالشراب . ووجد بعض البلدان عرفت بصنع الخنور كمدينة أبوان
(بالقرب من دمياط) كان أهلها نصارى ويعمل فيها الشراب الفائق
فينسب إليها فيقال بوني (٣) .

ولا ننسى الأديرة الكثيرة التي كان ينزح إليها الشعراء وغيرهم من
أصحاب اللهو والمجون ، فكما كان العراقيون يذهبون إلى دير عبدوس
وغيره من الأديرة . كذلك ذهب المصريون إلى دير القصير ودير نهبيا
ودير مارحنا وغيرها ، وكان خمارويه يذهب كثيرا إلى دير القصير
إذ بنى لنفسه غرفة في أعلى الدير ذات أربع طاقات إلى أربع جهات ،
وكان يذهب إلى هذا الدير مظهرا إعجابه بصورة مريم العذراء التي كانت
في هيكل الدير ، ويشرب على النظر إلى هذه الصورة (٤) . وكان الشعراء

(١) سيرة ابن طولون لابن الدايم ص ٤٩

(٢) نسوار المحاضرة لتنوخي ص ٢٦١

(٣) معجم البلدان ج ١ ص ٩٣

(٤) ورقة رقم ١٢٤ من كتاب الديارات لأبي الحسن الغابشتي نسخة خطية بدار

الكتب المصرية

يذهبون إلى هذا الدير ، ووصفوه في شعرهم ، وذكروا طيبه ونزعتهم به ، ثم لهوهم ومجونهم ، وأيامهم التي قضوها فيه . من ذلك قول أبي هريرة ابن أبي العصام وكان من شعراء الأخشيديين .

كم لي بدير القُصَّير من قَصْف

مع كل ذى صَبَّوة وذى ظَرْف

لهوت فيه بشادنٍ عَنِج

يقصر عنه بدائع الوصف (١)

ويحدثنا المقرئ أن الحاكم بأمر الله الفاطمي أمر بهدم هذا الدير في رمضان سنة أربع مائة . أما دير مارحنا فقد كان على شاطئ بركة الحبش وبقره بئر تعرف ببئر نجاتي عليها جُمُيْنَة يجتمع الناس إليها ويشربون عندها (٢) ومن الشعراء الذين كانوا يذهبون إلى هذا الدير الشاعر العباس بن البصرى ، قال عنه الشاشتي : وكان ابن البصرى هذا من الخلاء المجان ، وله شعر يجري مجرى الهزل والطيب ، وخدم أبا القاسم أونوجور بن الأخشيد فأحسن إليه وكساه ، وصار يركب معه ، وكان يلبس طيلسانا أزرق يتشبه بالقضاة ، وكان أونوجور قد حمله على بردون أصفر غليظ بطيء السير ، فكان إذا سار مع أقوام من إخوانه قال لهم : صفوا لي موضعكم حتى ألحق بكم ! وكان مليح المجالسة كثير النادرة ، وكان يبيع الصيدلة في مسجد عبد الله بمصر (٣) . وقد قال هذا الشاعر في دير مارحنا :

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٣٢١

(٢) ورقه ١٢٦ من كتاب الديارات

(٣) » » » ١٣٠ » » »

يا حامل الكأس أدرها واستقيني
قد عَرَ الشوقُ فؤادي فاندَعَرَ
أما ترى البركة ما أحسنها
إذ تداعى الطير فيها فصَفَرَ
أما ترى نوراً لها أما ترى
حسن مسيل مائها إذا انحدر
كأنما صفر الدنانير بها
مبذولة ليس بها من مُتَجَر
كأنما الجوهر في ألوانه
نُثر في تلك النواحي فانتثر
كأنما كف جواد ولَعَتْ
في ذلك الروض بتبديد البدر
وأبيض النرجس في أجفانه
دمع الندى لولا التشاجي لقطر
ونظرة الورد إلى أترابه
نظرة معشوق بلحظ منكسر
دعني فما أهلك إلا بالجوى
ما عيشة العاشق إلا في كدر^(١)

ولابن البصري شعر كثير في الأديرة التي كانت بمصر لاسيما في
دير نهبيا بالقرب من الجزيرة، قال ابن فضل الله العمري عن هذا الدير
«وديرها (أى دير نهبيا) هذا من أطيبها موصفا، وأجلها موقعا، عامر

(١) ورقة ١٢٨ من كتاب الديارات

برهبانه وسكانه ، وله في النيل منظر عجب ، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته ، ويزيد في حسن متزهاته ، فإذا تصرف الماء أظهرت أرضه غرائب النوار ، وعجائب الزهور المشرقة الأنوار ، وله خليج ينساب انسياب أرقم ، وعليه شطوط كأنها بالديباج ترقم ،^(١) وفي هذا الدير قال ابن البصرى :

يامن إذا سكر النديم بكأسه
عُريتُ لواحظه بسكر الفئيق
طلع الصباح فأستقيني تلك التي
مُظلمت فشبَّهَ لونها بالزئبق
والنقَّ الصباح بنور وجهك إنه
لا يلتقى الفرحان حتى نلتقى
قلبي الذي لم يُببق فيه هواكم
إلا بقيته نار شوق قد بقي
أو ما ترى وجه الربيع وقد زهت
أنواره بنهاره المتألق
وتجاوبت أطياره وتبسمت
أشجاره من ثغر زهر مُورق
لم يَغندُها ظل الرذاذ ببرده
حتى تفتح كل جفن مُطبَّق
والبدر في وسط السماء كأنه
وجَّهٌ ملبح من قناع أزرق

(١) مسالك الأبحار ج ١ ص ٣٦٢

ياللديارات الملاح وما بها
من طيب يوم مرّ لي بتشوق
أيام كنتُ وكان لي شغلُ بها
وأسيرُ شوق صبايتي لم يطلق
يادير « نهيا » ماذ كرتك ساعة
ألا تذكرت الشباب بمفرقي
والدهر غَضُ والزمان مساعد
ومقامنا وميئتنا بالجوسق
يادير « نهيا » إن ذُكرت فإني
أسعى إليك على الخيول السبق
وإذا شئلت عن الطيور وصيدها
وجنوسها فاصدق وإن لم تصدق
فالغرّ فالكروان فالقارور إذ
يشجيك في طيرانه المتحلق
أشهدت حربَ الطير في غيطانه
لما تحرق منه كل محرق؟
والزُمُجَ الغضبانَ في رهط له
ينحط بين مُرَعَدٍ ومُبَرِّقٍ
ورأيت للبازي سطوة موسر
ولغـيره ذل الفقير المملق
كم قد صبوت بغرّتي في شرّتي
وقطعت أوقاتي برمي البندق

وخلعت في طلب المجون حبابي
حتى نسبت إلى فعال الأخرق
ومهاجر ومكاسر ومنافر
قلق الفؤاد به وإن لم يقلق
لو عين التفاح حمرة خده
لصبا إلى ديباج ذاك الروق
يا حامل السيف الغداة وطرفه
أمضى من السيف الحسام المطلق
إرفق بعبدك لا تطل أشجانه
وارفق به يا صاحب الثغر النقي (١)

ولم يقتصر اللهو على أن يصف الشعراء هذه الأديرة بهذا الوصف الجميل الرقيق، وذكر الطرد والصيد كالذي رأيناه في قصيدة ابن البصري السابقة، بل نجد كثيرا من الشعراء يصفون مجالس الخمر ويذكرون بمجونهم وفحشهم ويعرضون بالدين، فثلا الشاعر سعيد بن فاخر المعروف بقاضي البقر وكان شاعر الأخشيدي وابنه (٢) قال:

حي على الكأس في الصباح مطر-رحا نصح كل لاح
وانتهب العيش ماتأتى فأنت منه على جَنَاح
واجرني من عقول قوم عمّوا عن الشرب والملاح
يارب دعني بلا صلاح يارب ذرني بلا فلاح
يدي مَدَى الدهر فوق ردْف وراحتي تحت كأس راح (٣)

(١) ورقه ١٢٩ و ١٣٠ من الديارات

(٢) المغرب في حلى أخبار المغرب ص ١٠٣

(٣) المغرب ص ١٠٣

فهذا الشاعر المصري الذى أنشد مثل هذا الشعر لا يقل فى الفجور والعبث عن أشد شعراء العراق مجوناً وفسقاً ، فهو هنا قد تهكم بالدين ، ودعا الله أن يديم عليه ذلك التهاون بالدين مما يدل على أن حياة اللهو كان لها أثر كبير فى شعراء ذلك العصر .

لم يكن قاضى البقر وحده الذى أنشد مثل هذا المجون والفحش بل نجد الشاعر أبا هريرة أحمد بن أبى العصام وهو من شعراء أواخر الدولة الأخشيدية قد اتهمك فى اللذات ، وأسرف فى اللهو ، وأدمن على الشراب ، فوصف الخمر ومجالس اللهو ، وكان كزميله قاضى البقر متهاوناً فى دينه ، لم يخش صاحب زندقة ولا سلطان ، وكان كزميله يتهمك بالدين ، بل هو أشد تهكما من زميله بفرائض الإسلام :

مجلس لا يرى الإله به غَيِّير مصَلِّ بلا وضوء وطهر
سجِّد للسكر ووس من دون تسبيح سوى نعمة لعودٍ وزمر^(١)

إذن ظهر اللهو والمجون فى الشعر المصرى فى هذا العصر ، ولم يبال الشعراء المصرى بالشعور الدينى الذى كان يسود البلاد . ونعجب إذا عرفنا أن مثل هذا الشعر صدر عن شعراء على اتصال وثيق بالأمراء فهل نفهم من ذلك أن أمراء مصر فى هذا العصر تهاونوا بالدين إلى حد أنهم سمحوا للشعراء المتصلين بهم أن يعبثوا بمثل هذه الأشعار .

الواقع أن أمراء مصر فى ذلك العصر قد أكثروا من الترف والنعيم ، وأرادوا أن يتمثلوا بخلفاء العباسيين فى لهوهم ومجونهم ،

وشاركهم الشعراء والكتاب في اللهو ، وإن كان الشعور الديني ،
والتمسك بأهداب الدين يعم البلاد ، يحدثنا المقرئ أن أحمد بن طولون
كان قد اتخذ حجرة بقربه فيها رجال سماهم المكبرين ، يبئتهم في
كل ليلة أربعة يتعاقبون الليل ، ويكبرون ويسبحون ، ويقرأون القرآن
تطريبا بالأحان ، ويتوسلون بقصائد زهدية ، فلما ولي خمارويه أفرمهم على
حالمهم ، وأجراهم على رسمهم ، وكان يجلس للشرب مع حظاياه في الليل
وقيانه تغنين ، فإذا سمع أصوات هؤلاء يذكرون الله والقدح في يده ،
وضعه بالأرض وأسكت مغنياته ، وذكر الله معهم ، حتى يسكت
القوم ، لا يضجره ذلك ولا يعيظه أن قطع عليه ما كان فيه من لذة
بالسمع (١) مما يدل على أن الشعور الديني كان متغلغلا في نفس الأمير
ولكنه كان يأخذ بحظه من اللهو . وشارك الشعراء أمراءهم في هذا اللهو
وأخذ الشعراء يدعون بعضهم بعضا على مجالس اللهو كما كان يفعل
شعراء العراق ، فالشاعر المصري عبد الله بن محمد بن أبي الجوع — وكان
من شعراء الأخشيديين ، وصادق أبا الطيب المتنبي في مصر وروى
عنه ، وكان من أكبر علماء اللغة في عصره — دعا بعض أخوانه بقوله :

شعبان قد صار نضوا	ولم نقد فيه لهما
وليس ذلك منا	جهلا ولا كان سهوا
فبالمودة إلا	بكرت المقصف عدوا
حتى تقوم فترفوا	ما خرَّق الدهر رفوا
من بعد تقديم جدى	مسنن ظل يشوى

له ثلاثون يوما يحبوا إلى الضرع حبوا
لما اتزعت حشاه عوَضته البقل حشوا
وقد عنيت بجام ملائته لك حلوى
وقهوة بنت كرم صفت من الدم صفوا
ما شعشعت قط إلا سطت على الهم سطوا
جَنَّبَتْهَا كُلَّ وَغْدٍ يَمْحُو المَحاسنِ مَحْوَا
إلا إذا ما اقتنصنا عذب الخلائق حلوا
وشادن ذى دلال يشدوا فيليك شدوا
إما غناء وإما عجائبها عنه تروى
حتى تظل بمفاهيه من وفارك خلوا
وعندنا لك ورد يحدو المسرة حدوا
ريحانه لا يوازي لونا وعطرا وسروا
فما اعتذارك في أن تفتى زمانك صحوا
وأنت بعد قليل بالصوم والله تطوى^(١)

وهكذا أصبح الشعر المصرى أداة للمراسلة بين الأصدقاء .
وبالشعر وصف الداعون ما أعدوا للزائرين من ألوان الأكل
والشرب وما يتبع ذلك من ألوان اللهو والطرب . وهذا كله يدلنا على
تطور الحياة المصرية ، وتطور الشعر بتطور الحياة نفسها .

الطبيعة في الشعر المصري :

ويظهر تطور الشعر المصري في هذا الفن الذى أجاده كثير من شعراء مصر في ذلك العصر ، وهو فن الوصف ، فالطبيعة وما فيها من جمال بعثت على إغراء الشعراء على وصفها ، وشعراء مصر الذين لم يكن لهم نصيب في وصف جمال الطبيعة قبل عصر الطولونيين ، أو قل إنه لم يصلنا عنهم شيئاً في الوصف قبل عصر الطولونيين ، أصبح عندهم وصف الطبيعة فنا يقصد لذاته ، بعد أن صقلت الحياة الجديدة مزاج الشعراء وصفت قريحتهم ، ولعل الشاعر ابن طباطبا العلوى كان أقدر شعراء مصر في هذا العصر على الوصف ، وكان له من فنه بل من حياته ما جعله في طبيعة شعراء الوصف ، فهو شاعر قال الشعر حبا في الفن الشعرى ، وعن طبيعة رجل فنان ، ولم يقصد لغرض آخر سوى اللذة الفنية ، فاستطاع أن يتمتع نظره وحواسه بما حوله من الطبيعة ، وما فيها من جمال وبهاء فتأثر بما رآه ، وأنشد الشعر تحت تأثير جمال الطبيعة الذى فتن به ، وأخذ في تشبيه الموصوف وسبغ عليه من الخيال ، وألبسه ثوباً يتفق مع مزاجه الشعرى الفنى ، ففى وصفه للهِلال قال :

وكان الهلال لما تبدى

شطر طوق المرأة للتذهيب

أو كقوس قد انحنى أو كنبؤى^(١)

أو كنون فى مهرب مكتوب^(٢)

(١) النبؤى : الحفير حول الحباء أو الخيمة لمنع السيل

(٢) المغرب ص ٥٠

ووصف البركة بقوله :

كم ليلة ساهرت أنجمها التي
عَرَصَات^(١) أرض ماؤها كسمائها
قد سيرت فيها النجوم كأنما
قلات السماء يدور في أرجائها
أحسين بها بحراً إذ التبس الدجى
كانت نجوم الليل من حصائها
ترنو إلى الجوزاء وهى غريقة
تبغى النجاة ولات حين نجائها
تظفون وترسب في اصطيفاق مياهها
لامستعان لها سوى إنمائها
والبدر يخفق وسطها فكأنه
قلب لها قد ريع في أحشائها^(٢)

وقد ذكرنا كيف كان شعراء مصر يذهبون إلى الأديرة وغيرها من أماكن اللهو ، وكيف كانوا يصفون هذه البقاع ، ويتحدثون بطبيعتها وجمالها ، ويترنمون بجمال طبيعتها ، مما يدلنا على أن شعراء هذا العصر قد دقت شعورهم ، ورق فئهم ، فوصفوا الطبيعة وجمالها ، ولا أشك أن شعراً كثيراً قد أنشد في الوصف ، ولكن هذا الشعر فقد ، ولم يبق منه إلا أبيات قليلة ، وهى إن دلت على شيء فهى تدل على أن

(١) عرصات وعراس وأعراس جمع عرصة كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء

(٢) حلبة الكعبيت ص ٣٣٩ (مطبعة الوطن ص ١٢٩٩ هـ)

الشاعر المصري نظر حوله فرأى ما لم يره غيره ، فأوحى إليه الشعر ،
ووصف مارآه ، وماجال في خاطره ، وصفا قربه إلى الطبيعة فأدرکہا ،
وفي هذا اللون من الفن يتجلى فن الشاعر المرهف الحس ، الدقيق
الشعور ، الطبيعي الشعر . وهذا اللون نجده يغلب على شعراء هذا العصر
نما يميزهم عن شعراء العصور السابقة ، فإننا لم نعهد أحداً من شعراء
العصور السابقة قال مثل الذي أنشده الشاعر صالح بن موسى في
وصف البركة :

أو ماترى حُسْنِ الرِّيا ض وما اكتسين من الزَّهَرِ
وجه الربيع وحبذا وجه الربيع إذا ظهر
الوشى ينشُرُ والملا حِف والمطارف والحبر
هذا البنفسج في الحداد بغير حزن قد ظهر
وأنى البهار بصفرة فلكل حُسْنٍ قد بهر
وكان آذريونه كاسات خمر تبدر
وكانما المنشور عقود في جوانبه اتثر
والأقحوان فضاحك عن عَسْجِدٍ فيه درر
وشقائق النعمان كال أعلام ثم لمن نظر
وتورد الورد الذكى وفاح مسكاً في السحر
وتجاوبت طير العصو ن بكل لحن مُشْتَهَر
فمُغَرِّدٍ حَسَنٍ الغنا شداً وآخر قد زمر
وتسرفت أنفاسنا بنسيم أنفاس السحر (١)

(١) الديارات للشابثي ورقة ١٢٨ وما بعدها

من ذلك كله نستطيع أن ندرك إلى أي حد تطور الشعر في مصر في هذا العصر ، كما نلاحظ أن الشعراء عنوا بالمعاني كما أنهم عنوا بالألفاظ ، وتنسيقها وأكثرها من التشبيهات الرائعة التي أضافت إلى شعرهم جمالا ، كما نجد بعض الشعراء قد كلف بالزينة اللفظية وتعتمدها كما كان يتكلفها أصحاب مسلم وأبي تمام ، وفي حديثنا عن الشاعر ابن جدار سنجد كيف تلاعب هذا الشاعر باللفظ تلاعبا غريباً لم نجد له مثيلاً عند شعراء البديع .

أغراض أخرى للشعر :

أما فنون الشعر التي طرقتها شعراء مصر في هذا العصر فقد تحدثنا عن أكثرها كما أننا نجد شعراً كثيراً في الرثاء كقصيدة محمد بن الحسن ابن زكريا في رثاء الأخشيذ التي أولها :

في الرزايا روائع الأوجال والبرايا دَرِيَّةُ الآجال
وكذا الليل والنهار اعتبار للورى في تفكر الآحوال
كل شيء وإن تهادى مدهاه قصره للفناء أو للزوال ^(١)
وكقول مهلهل بن يموت في رثاء الأخشيذ أيضاً :

أى عزٍّ مضى من الإيِّسلام ! أى ركن أضحى حديث انهدام
ذاق موتا محمد بن طنجج هو ليث الشرى وغيث الغمام
فقد الناس مولى الإيِّنام فهم سامعون كالأنعام
مات رب العُلا وراعى الرعايا والسرايا وكافل الأيتام ^(٢)

(١) هذه القصيدة بأكملها في نهاية الأرب للنورى ج ٥ ص ١٨٤

(٢) * * * * * ص ١٨٦

أما الهجاء فقد ذكرنا هجاء ابن أبي داؤد في ابن طولون — وظهر في هذا العصر الهجاء بين الشعراء ، كالذي كان بين صالح بن مؤنس ، وعبد الله بن أبي الجوع^(١) ، وفي هجائهما نرى شيئاً من الفحش كالذي كان في هجاء جرير والفرزدق ، وكان هناك لون آخر من الهجاء لم يكن بين الشعراء ، إنما كان هجاء بين العلماء كالذي رأيناه في العصور السابقة ، وبخاصة هجاء القضاة ، فابن سكرة الشاعر هجا الحسين بن أبي الشوارب القاضي المتوفى سنة ٣٤٩ هـ بقوله :

ولقد جنى قاضي القضاة حُسَيْنٌ نَجْلُ أبنِ الشوارب
هذا الذي هَتَكَ الشرايِعَ بالبدايِعِ والمثالب
هذا المضمَّرُ للفروج وللدماء بغير رَاكِبِ^(٢)

وبالرغم من أن القاضي محمد بن أحمد بن الحداد — الذي ولى قضاء مصر سنة أربع وعشرين وثلثمائة من الهجرة — كان عالماً فقيهاً حتى قال عنه ابن زولاق : كان فقيهاً متعبداً يحسن علوماً كثيرة منها علم القرآن وعلم الحديث والأسماء والكنى والرواة والنحو واللغة واختلاف العلماء وسير الجاهلية وأيام الناس والأنساب ويحفظ شعراً كثيراً . غير مطعون عليه في قول ولا فعل مجموعاً على صيانة وطهارة وكان من محاسن مصر حاذقاً بعلم القضاء حسن التوقيعات . .^(٣) بالرغم من ذلك كله فلم يتركه خصومه من الهجاء فقد رميت في ولايته رقعة في الجامع فيها أبيات شعر منها :

(١) راجع بذيمة الدهر ج ١ ص ٣٠٩ و ٣١٠

(٢) السكندی ص ٥٤٦

(٣) شرحه ص ٥٥١

قولوا لحدادنا الفقيه العالم الماهر الوجيه
 وَايْتِ حَكْمًا بغير عهدٍ وغير عَقْدٍ نظرت فيه
 ثم أبحث الفُرُوجَ لما وَقَعَتْ فيها على البَدِ بِهِ
 هذى فعال حملت فيها وِزْرُكٍ مَعَ وِزْرٍ مَنْ يَلِيهِ
 وهل ترى ذا ولست فيه بجائز من مخالفيه
 أنكرت حالاً من ابن عمرو ما أنت فيه ومرتضيه
 والمكرفى الناس داء سرء والعجب أيضاً لمرتديه (١)

ولما بلغت هذه الآيات محمد بن موسى المعروف بسيبويه المصرى
 مدح ابن الحداد بقصيدة جاء فيها :

ما يضر البحر أمسى زاخرا إن رمى فيه صبي بحجر
 والقاضى محمد بن بدر الذى ولى قضاء مصر ثلاث مرات آخرها سنة
 تسع وعشرين وثلاثمائة ، هجاء زميله القاضى ابن وليد — الذى عزل
 عن القضاء سنة ستة وثلاثين وثلاثمائة — بقصيدة طويلة منها :

لو كنت تَخَشَى قَضِيَّاتِ المَعَادِ لَمَّا
 أَلْسَقَيْتَ فى كُلِّ أَمْرٍ فاضح عَمَّا
 أَعْمَى عن الرُّشْدِ فى كُلِّ الأُمُورِ فَقَدِ
 أَصْبَحْتَ فى الدين بين الناس مُتَّهَمًا
 يا ابن الوليد تَدَبَّرْ ما أتيت به
 ولا تكن للهوى مستكلاً عَمَّمًا

لو كنت تسمع قول الحق معتقداً
أو كنت تخشى عذاب الله معتصماً
لَمَا استعنت بحماد اللعين وما
رأيت أنت له في صالح قَدَمَا
جعلته كاتباً يُمنّضى الأمور ولم
يَمَسَّ في العلم قرطاساً ولا قَلِيباً^(١)

فهذا الهجاء يكاد يكون صورة لهجاء العلماء الذي رأيناه في العصر السابق للعصر الطولوني .

من هذا كله نستطيع أن ندرك تطور الحياة العامة في مصر ، وتطور الحياة العقلية والأدبية فيها ، وأن نقول إن مصر كانت عظمة الحظ من العلوم الإسلامية والأدبية العربية ، وساهمت في هذه الألوان المختلفة من الثقافات ، فظهر الأدب المصري مصطبغاً بالصبغة المصرية الخاصة فاختلف الأدب المصري عن الأدب في الأقطار الإسلامية الأخرى .

الشعراء الوافدون :

وكانت الحياة في مصر أيام الطولونيين والأخشيديين تجذب إليها شعراء وعلماء الأقطار الأخرى ، وتحبب إليهم المقام في مصر أو الرحلة إليها ، وسأحاول أن ألم ببعض هؤلاء الشعراء الذين وفدوا على مصر في ذلك العصر .

(١) السكندی ص ٥٧٠

المتنبي في مصر :

إذا تحدثت عن المتنبي في مصر فلن أتحدث عن وفوده على كافور الأخشيدى ومدحه لهذا الأمير ثم هجائه له ، هذا كله معروف متداول ، حدث عنه كثير من الأدباء والمؤرخين ، وألموا بجميع نواحيه ، ولكنى سأحاول الحديث عما تركه الأدباء والمؤرخون ، ولم يتحدثوا عنه ، فلا أشك أن المتنبي كانت له صلة ببعض المصريين وأنه أنشد شعراً في بعض الشخصيات المصرية غير كافور الأخشيدى وفاتك ، كما تحدثنا بعض الروايات أن من شعراء مصر من نقد المتنبي وعاب شعره . وإذن فحياة المتنبي في مصر تكاد تكون حلقة من سلسلة حياته في حلب ، وأن العلماء والشعراء الذين كانوا في خدمة سيف الدولة الذين هاجموه واضطروه إلى الرحيل عنهم ، وجد أمثالهم في خدمة أمير مصر فهاجموه واضطروه إلى الرحيل أيضاً .

وجد المتنبي في مصر خصماً قويا في شخص الوزير جعفر بن الفضل ابن الفرات المعروف بابن حنزابه ، الذي وزر لأنوجور بن الأخشيد ثم لأخيه أبي الحسن على ثم لكافور إلى أن انقضت دولة الأخشيديين ، وكان عالماً محدثاً كما كان مكرماً لأهل العلم والحديث ، وقد رحل إليه أبو الحسن الدارقطنى وصنف له مسنداً ، وكتب الدارقطنى عنه مجالسه^(١) ، كان يطمع ابن حنزابه في أن يمدحه المتنبي كغيره من الشعراء ، وروى ابن خلكان أن المتنبي نظم قصيدته التي أولها :

(١) راجع ترجمته في ياقوت ج ٧ ص ١٦٣ (طبعة فريد رفاعى بك) وابن خلكان

نَادِ هَوَاكَ صَبْرَتِ أُمِّ لَمْ تَصْبِرَا
وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

في مدح الوزير ابن حنزابة ، فلما لم يرضه صرفها عنه ، ولم ينشده إياها فلما توجه إلى عضد الدولة حول القصيدة إلى مدح ابن العميد^(١) ، فمغنى هذا أن الوزير كان حاقدا على المتنبي لأن الشاعر لم يمدحه ، وكان الشاعر حاقداً على الوزير لأن الوزير لم يرضه ، فكانت نتيجة ذلك أن أخذ الوزير يغري الشعراء والعلماء بمعارضة المتنبي ، وكانت فرصة للشعراء المصريين الذين كانوا يحقدون على المتنبي ما بلغه من قوة الشعر وذيوع الصيت ، فكثرت حساد المتنبي في مصر ، منهم أبو القاسم ابن أبي العفير الأنصارى الشاعر ، الذى قيل إنه كان في حضرة كافور الأخشيدى والوزير ابن حنزابة وأبى بكر بن صالح وكان المتنبي حاضراً ذلك المجلس ، فعارض المتنبي قول الأنصارى :

« نظر المحب إلى الحبيب غرام ،

فقال المتنبي : إن العرب لا تقول إليه غرام ، وإنما تقول له . فقال الأنصارى : تقول إليه ولديه وله وحروف الحذف ينوب بعضها عن بعض !!^(٢) ويخيل إلى أن أبابكر بن صالح وابن حنزابة انتصرا للشاعر المصرى لأنه مدحهما وعرض بالمتنبي فى قوله :

أما الثناء فصادر بك وارد

بادر بما تُسدى إلى وعائد

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١١١

(٢) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٣٣

لك يا أبا بكر إلى صنائع
أينقطن أحوالي وجدتي راقد
أوليتني نعماً متى أنكرتها
شهدت علي مواهب وفوائد
وقصائد لي فيك لولا أنها
كلم شهدت بأنهن مشاهد
ولهن في عين الولي شواهد
تتري وفي عين العدو جلامد
لما تعرض لي بمقت حاسد
أبدى الملام وكيف يرضى الحاسد
ما زال ينشد قائماً حتى إذا
أنشدت عارضني لاني قاعد
في مجلس أما الوزير فنسكب
فيه يؤيده وأنت الساعد
ولي ولا أنا شاكر لسؤاله
فيه ولا هو للإجابة حامد (١)

وورد في كتاب الصيغ المنبى أن محمد بن موسى الملقب بسيدويه كان
يقول: مدح الناس المتنبي على قوله
ومن نكده الدنيا على الحر أن يبرى
عدواً له ما من صداقته بد

ولو قال : ما من مداراته أو مداجاته بد لكان أحسن وأجود ،
واجتاز المتنبي به ، فوقف عليه وقال : أيها الشيخ أحب أن أراك . فقال
له : رعاك الله وحياك . فقال له : بلغني أنك أنكرت عليّ قولي
« عدوا له ما من صداقته بد » فما كان الصواب عندك ؟ فقال له :
الصداقة مشتقة من الصدق في المودة ، ولا يسمى الصديق صديقا وهو
كاذب في مودته ، فالصداقة إذن ضد العداوة ، ولا موقع لها في هذا
الموضع ، ولو قلت ما من مداراته أو مداجاته لأصبت ، هذا رجل منا
(يريد نفسه) قال :

أتاني في قيص اللّازِ يَسْعَى
عَدُوٌّ لِي يُلقِبُ بالحبيب

فقال المتنبي : أمع هذا غيره ؟ قال : نعم
وقد عبث الشراب بوجنتيه فصيرَّ خده كسنا اللهب
فقلت له متى استعملت هذا لقد أقبلت في زى عجيب
فقال الشمس أهدت لي قيصاً ملىح اللون من نسج المغيب
فتوبى والمدام ولون خدى قريب من قريب من قريب (١)
فتبسم المتنبي وانصرف ، وسيدويه يصيح عليه : أبكم الرجل وجلائل
الله . . (٢) وهذا الشاعر الذي عارض المتنبي هو أبو بكر محمد بن موسى

(١) يفهم من كتاب الصبح المنى أن هذه الأبيات لسيدويه المصري ، ولكن هذه
الأبيات وردت في بئيمة الدهر ج ١ ص ٣٣٨ منسوبة إلى محمد بن عباس البصري
وأنا أرجح رواية البئيمة لان هذه الأبيات لا تصدر عن رجل كسيدويه عرف بشدة
تدينه بينما عرف ابن البصري باللهوكا رأينا .

(٢) الصبح المنى ص ٦٣ وأخبار سيدويه المصري لابن زولاق نسخة خطية بدار
الكتب المصرية رقم ١٢٠ ع تاريخ

ابن عبد العزيز الكندي ولد بمصر سنة أربع وثلاثين ومائتين وتوفي في صفر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة . كان عالماً بعلوم القرآن والحديث أخذ عن النسائي وإسحق بن إبراهيم المنجنيقي والطحاوي وغيرهم وكان يعرف من النحو والغريب ما لقب بسببه بسيبويه ، وتفقه على مذهب الشافعي وتلمذ لأبي بكر بن الحداد ، وأخذ علم الاعتزال عن الواسطي وجه المتكلمين بمصر إذ ذاك ، وكان يظهر الكلام في الاعتزال في الطرق والأسواق فيحتمل لما هو عليه ، وكان شاعراً من فحول الشعراء جالس أنوجور بن الأخشيد أمير مصر ، والحسين بن محمد المادرائي وزير مصر ، وناديهما ، كما كان محبوباً عند جميع المصريين (١)

وبجانب هؤلاء الشعراء الذين عارضوا المتنبي ، وجد آخرون صحبوا المتنبي وأخذوا عنه وحدثنا الثعالبي عن كثير منهم أمثال عبد الله بن محمد بن أبي الجوع (٢) وصالح بن رشدين الكاتب وكان أحد أئمة الكتاب المهرة في سائر الآداب صحب المتنبي وروى شعره (٣) إذن انقسم الشعراء في مصر بين حاسد للمتنبي وبين صديق له يروى عنه ، كما انقسم أمراء مصر في أمره ، فكان ابن حنزابة الوزير ساخطاً عليه لأن الشاعر لم يمدحه ، ولذلك هجاه المتنبي مع هجائه لكافور فقد قيل إن المتنبي قصد الوزير بقوله :

(١) راجع أخبار سيبويه المصري في معجم الأدباء . وبتيمة الدهر وكتاب أخبار سيبويه المصري

(٢) بتيمة الدهر ج ١ ص ٣١٤

(٣) شرحه ص ٣١٧

وكم ذابصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبسكا
بها نبطى من أهل السواد يدرس أنساب أهل الفلا^(١)
أراد بالنبطى الوزير ابن حنزابه ، بينما مدح المتنبي رجلا من قيس
هو عبد العزيز الخزاعى زعيم أهل الحوف ، وهو الذى هيا للمتنبي
وسائل الهروب من مصر ، ولذلك قال فيه المتنبي :

لئن مر بالفسطاط عيشى فقد حلا

بعبد العزيز الماجد الطرفين

تناول وُدِّي من بعيد فناله

جرى سابقاً فى المجد ليس برين

إذن اتصل المتنبي بالمصريين ، كما ألقى عليه بعض العلوم فى مصر
وقد أثبت الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام أن المتنبي قرأ كتاب
« المقصور والممدود » لابن ولاد وأنه أخذ على مؤلفه غلطات^(٢)
كما تحدث الأستاذ الدكتور طه حسين بك طويلا عن أثر مصر فى شعر
المتنبي^(٣) فليرجع إلى ما كتبه ففهما كل الغناء .

الناشئان الأكبر والأصغر

أما الناشئ الأكبر ، فهو أبو العباس عبد الله بن محمد المعروف بابن
شرشير أو الناشئ الأكبر ولد بالأنبار ، وأقام زمنا طويلا ببغداد ،

(١) مسالك الأبصار للعمرى نسخة خطية بدار الكتب المصرية . وابن خلكان

ج ١ ص ١١٢

(٢) راجع ذكرى ابن الطيب للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام ص ٣٠٧

وما بعدها

(٣) مع المتنبي للأستاذ الدكتور طه حسين بك من ص ٥١١ إلى ٦٤٦

وبها أنشد جل شعره ، وتلقى علومه التي عرف بها ، وتكسب بهذه العلوم ، فداع فضله ، وانقاد له الشعر وفنونه ، حتى أنه استطاع أن يعارض أشعار القدماء ، وباتساع علمه في الكلام أن ينقض علل النحاة ، فرماه أعداؤه بالوسوسة ، ووشوا به ، فخاف قوة أعدائه ، فخرج إلى مصر يتجر بعلومه^(١) . لم نعلم أن الناشئ الأكبر اتصل بأمير من أمراء مصر ، إذ أخذ من علمه وقوة فطنته مكتسبا يغنيه عن سؤال الأمراء ، فحك في مصر يعلم ما حذقه حتى توفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين .

كان هذا الشاعر قليل الحظ بعد مماته كما كان بائسا في حياته ، فلم يعن بشعره أحد حتى ضاع ديوانه ، ولم يصلنا من شعره إلا النزر اليسير ، مع أن الرواة أجمعوا على أن الناشئ الأكبر يعد في طبقة ابن الرومي والبحتري وأنظارهما^(٢) ثم هو يمتاز عن غيره من الشعراء بسعة اطلاعه في العلوم ، وكان أستاذاً أبي الحسن الأشعري المعتزلي صاحب المذهب المعروف ، وقد وصلنا شيء من نظمه في الكلام يدلنا على مقدرته واطلاعه ، فمن ذلك قوله :

ونحن أناس يعرفُ الناسَ فضلتنا
بألسُننا زينتُ صُدُورَ المحافلِ
تتير وجوه الحق عند جوابنا
إذا أظلمتْ يوماً وجوهُ المسائلِ

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٦٣

(٢) شرحه

صمتنا فلم تترك مجالاً لصامت

وقلنا فلم تترك مقالاً لسائل (١)

ويروى البغدادي في تاريخه أن للناشيء قصيدة واحدة في فنون من العلم على روى واحد تبلغ أربعة آلاف بيت ، وروى ابن كثير في « البداية والنهاية » قصيدة للناشيء في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم وهي طويلة تبلغ نحو ألف بيت ، ووصفها ابن كثير بقوله « وهذه القصيدة تدل على فضيلته وبراعته وفصاحته وبلاغته ، وعلمه وفهمه ، وحفظه وحسن لفظه ، وإطلاعه واضطلاعه ، واقتداره على نظم هذا النسب الشريف في سلك شعره ، وغوصه على هذه المعاني التي هي جواهر نفيسة من قاموس بحره » (٢) ، وأورد الحصري في كتابه « زهر الآداب » مقالاً من كتاب للناشيء في الشعر ، أوضح فيه معنى الشعر وأغراضه (٣) .

ولست أدري أى شعر الناشيء قيل في مصر ، وأى كتبه التي ذكرها المؤرخون ألفت بها ، ولا شك أن الحياة العقلية والحياة الأدبية في مصر كان لها أثر كبير في هذا الشاعر ، وربما أنشد الناشيء بمصر بعض أشعاره في الصيد . فقد رأينا شعراء مصر في هذا العصر كانوا يذهبون إلى الصحراء وتلال المقطم للبطاردة والصيد ، وقالوا أشعاراً في ذلك ، فربما قلدهم الناشيء وتحدث في جوارح الصيد وآلاته ، وما

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ٣

(٢) البداية والنهاية نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية

(٣) زهر الآداب ج ٣ ص ٤٩

يتعلق به ، وربما أخذ كشاجم شيئاً من أشعار الناشء مستشهداً بها عند ما وضع كتابه في المصايد والمطارد .

أما الناشء الأصغر فهو علي بن عبد الله بن وصيف وكان متكلماً بارعاً كسميه^(١) أخذ علم الكلام عن أبي سهل بن نوبخت المتكلم ، كما كان من كبار الشيعة ، وفد على الكوفة سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وأملى شعره بجامعها ، وكان المتنبي وهو صبي يحضر مجلسه^(٢) ، ووفد على سيف الدولة بجلب ومدحه ، ويحدثنا ياقوت أن الناشء الأصغر قصد كافورا بمصر وامتدحه ، وامتدح ابن حنزابة وكان ينادمه^(٣) ولكن لم يصلنا شيء من شعره في مصر ، وتوفي سنة ست وستين وثلاثمائة ببغداد .

كشاجم

وفد على مصر في ذلك العصر الشاعر الأديب أبو الفتح محمود ابن الحسين المعروف بكشاجم . وهو من أهل إقليم الرملة الذي كان تابعا لمصر في ذلك العصر ، ونفهم من ديوانه أنه جاء مصر عدة مرات . وكان كلما بعد عنها حن إليها ، وإلى ما بها من رياض وحوادث ، وإلى حياة اللهو والمجون مما تصبو إليه نفس كشاجم الماجنة :

قد كان شوقى إلى مصرٍ يُؤرِّقُنِي

فاليوم عُدتُ وعادت مصرٌ لى دارا

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٤

(٢) شرحه

(٣) معجم الادباء ج ٥ ص ٢٣٥ (طبعة مرجوليوت)

أغدو إلى الجيزة الفيحاء مصطحبا
طورا وطورا أَرَجِي السَّيْرَ أطوارا
بيننا أسامى رئيسا في رئاسته
إذ رُحْتُ أُحْسَبُ في الحانات خَمَّارا
أما الشباب فقد صاحبت شرم
وقد قَضَيْتُ لَباناتِ وأوطارا
من شادنٍ من بنى الأقباطِ يَعْتَقِدُ ما
بين الكتيب وبين الخصر رنارا (١)

أخذ كشاجم بحظ وافر من حياة اللهو التي كانت بمصر، وذهب
كما ذهب شعراء مصر إلى الأديرة، ففي دير القصير كان كشاجم
يتصيد الطباء لطعامه، أو ليتخذ من لحمها ما يأكله مع شرابه، بين عزف
القيان وغنائهن.

سلامٌ على دَيْرِ القصيرِ وسجنِهِ جَناتِ حلوانِ إلى النَّخَلاتِ
منازلٌ كانت لى بهن مآربٍ وكانت مواخيرى ومنتزهاتى
هنالك تصفو لى مشاربُ لَدَنِّى وتصحب أيام السرور حياتى (٢)
فهذا يدلنا على أن الشاعر اختلط بالمصريين، ولها كما لمهوا،
والتمس من مجونهم ما تحدث به في هذا الشعر، وتأثر بالبيئة المصرية
الخالصة فوصفها في شعره.

تدلنا حياة كشاجم على أن الشاعر كان متكسبا بشعره، ولاندرى

(١) ديوان كشاجم طبع بيروت سنة ١٣١٣ هـ

(٢) ديوان كشاجم

بمن اتصل من المصريين ، وإن كنت أرجح أنه مدح كافوراً ، ثم عاد
فهجاه ، وعرض به في أشعاره ، فقد قيل إن الشاعر كان له غلام اسمه
كافور فكان يهجو غلامه ويعرض بالأمير :

حَكَيْتَ سَمِيكَ فِي بَرْدِهِ وَأَخْطَاكَ اللَّوْنُ وَالرَّائِحَةُ
كَذَلِكَ هَجَا الْقَاضِي عَبْدَ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْخَصِيبِ الْمُتَوَفَى سَنَةَ
سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثِمِائَةَ ، وَكَانَ الْقَاضِي قَدْ اشْتَرَى دَاراً كَبِيرَةً ،
وَعَمَرَهَا ، وَأَقَامَ فِيهَا دَعْوَةَ عَظِيمَةً فَقَالَ كَشَاجِمُ :

اشْتَرَى الدَّارَ الكَبِيرَةَ وَدَعَا فِيهَا الْوَكِيرَةَ

صَغَّرَ الْبَابَ وَفِي تَصْغِيرِهِ أَشْأَمُ طِيرِهِ

قَبْرَهُ لَا شَكَّ فِيهَا بَعْدَ أَيَّامٍ يَسِيرِهِ (١)

وَقَالَ فِيهِ أَيْضاً :

قَبِحَ اللَّهُ الْخَصِيصِي فَمَا أَقْبَحَ أَمْرَهُ

اشْتَرَى الدَّارَ الَّتِي كَانَتْ قَدِيمًا لِبْنِ شَعْرِهِ

وَهِيَ الدَّارُ الَّتِي يَبْتَزُّ فِيهَا اللَّهُ عَمْرَهُ

لَا يَتِمُّ الْحَوْلُ حَتَّى يَجْعَلَ الْمَجْلِسَ قَبْرَهُ (٢)

ومهما يكن من شيء فإن كشاجما كان فقيراً ، متكسباً بشعره ، ولكنه
لم يستطع أن يفوز بالمال الذي كان يريده ، ولعل غروره واعتقاده
بأنه نابغة عبقرى ، وأنه أشعر خلق الله وأكثرهم تأدباً ، لعل هذا كله
كان سبباً في شقائه ، فقد زعم أنه نبي الشعر :

(١) الكندي ص ٥٧٨

(٢) شرحه

على أنى نبي الشعر قد جئت على قتره
ويخيل إلى أن كشاجما اتخذ مصر مقراً له ، فقد ترك بها أولاده
وأسرته ، فقد روى الثعالبي أن الشاعر المصري الهجاء صالح بن مؤنس
هجأ ابني كشاجم أبا النصر وأبا الفرج بقوله :

يا ابني كشاجم أتما مستعملان مجربان
مات المشوم أبوكما فخلقتاه على المكان
وقرقتما في عصرنا ففعلتما فعل القران
لغلاء أسعار الطعا م وميتة الملك الهيجان^(١)

ووفد على مصر في ذلك العصر أبو الفيض سوار بن شراة
الشاعر الذي اتصل ببعض أدباء مصر وشعرائها ، وقد ذكرنا أنه كان
صديقاً وفيابن الداية ، وكان سبب انتشار شعر ابن الداية في العراق
كما وفد على مصر عدد كبير غير الذين تحدثنا عنهم ، وقد يطول بنا
الامر لو تحدثنا عنهم جميعاً . كما رحل عدد كبير من شعراء المصريين
إلى الأقطار الأخرى ، فالشاعر المغنم المصري أبو الحسن محمد بن سلمى
الشيبياني كان من شعراء سيف الدولة^(٢) ، ورحل كثير من العلماء في
طلب العلم كغيرهم من علماء وشعراء الأقطار الأخرى ، فكانت الرحلة
في طلب العلم من أكبر المؤثرات التي ساعدت على انتشار الثقافات
المختلفة ، وألوان المذاهب الأدبية والعلمية

(١) ينبئة الدهر ج ١ ص ٣١٢

(٢) الفهرست ص ٢٤٠

لمحة عن أشهر شعراء ذلك العصر

ابن جدار :

هو أبو القاسم جعفر بن محمد بن أحمد بن جدار ، ذكره الصولي في كتاب « أخبار شعراء مصر » وقال : لم يكن بمصر مثله ، كثير الشعر حسن البلاغة ، عالم ، له ديوان شعر ، ومكاتبات كثيرة حسنة . . (١) ، كان كاتباً من كتاب الطولونيين ، وشاعرا من شعرائهم ، واختص بالعباس بن أحمد بن طولون ، فكان ينهى إليه كل ما كان يسمعه من الأخبار ، وينقل إليه ما يدور بقصر ابن طولون ، ويروي الحصري : أن أبا حفص عمر بن أيوب كاتب أحمد بن طولون قال لابن جدار : يا أبا جعفر ، إنما مجلس المدام مجلس حرمة ، وداعية أنس ، ومسرح لبانة ، ونداء هم ، ومرتع هو ، ومعهد سرور ، وإنما توسطته عند من لا يتهم غيبه ، ولا يخشى عتبه ، وقد اتصل بي ما تنهيه إلى أميرنا أبي الفضل ، أعز الله أمره ، من أخبار مجالستي ، فلا تفعل . . . فاعتذر ابن جدار وحلف ما فعل ، وقام من مجلسه (٢) .

وكان لشعر ابن جدار أثر كبير في عصيان العباس بن أحمد بن طولون ، فقد قيل إن العباس لما هم بالانخلاع عن طاعة أبيه ، كان مرتبك الرأي ، ولما كان جدار أنشده قصيدة يحرضه فيها على العصيان ، وجاء في هذه القصيدة .

(١) معجم الادباء ج ٥ ص ٤١٥

(٢) زهرة الآداب ج ٢ ص ١٤٣

إذا هممت فلا ترجع وقم وثب

فأنت أرفع من يسمو إلى الرتب^(١)

ولما استبد العباس بالسلطان استوزر ابن جدار ، وخرج معه إلى بركة ، ولكن ظفر به أحمد بن طولون حين سيق له ولده الثائر ، وأصحابه الذين أيدوه في حركته ، بل الذين دفعوه إليها ، فبنيت دكة عظيمة رفيعة السمك ، وأحضر ابن جدار من خاصة العباس ، فضرب ثلثمائة سوط ، وقطعت يداه ورجلاه ، وألقى من الدكة سنة ثمان وستين ومائتين^(٢)

كان ابن جدار صاحب لهو ، يميل إلى المجون ، مع أن غزله الذي وصلنا يدلنا على أنه عفيف ، مع رقة وعاطفه ، من ذلك قوله في قينته

أعجب بها وقتن بجمالها ، وطرب لصوتها

جاءت بوجه كأنه قمر

على قوام كأنه عَصْنُ

ترنو بعينين من لِيَانِهما

من وَسَنٍ في جفونها وسن

عَنَّتْ فلم يَبْسُقَ في جارحة

إلا تمنى لو أنها أَدُنُّ^(٣)

ومع ميله إلى اللهو نراه قد أظهر شدة تدينه في بعض أشعاره ،

(١) المغرب ص ٨٦

(٢) المقرئ ص ٢ من ١١٥ والسكندی ص ٢٢٤

(٣) معجم لادباء ج ٥ ص ٤١٥

فكان يطلب العفو، ويستغفر ربه، حتى نكاد نشك أن هذه الأشعار

في الزهد هي من قول ابن جدار

يارب لي ألف ذنب إن تعفُ يارب فاعفِ جَمًّا
فابرد بعفو غليل قلب كأن فيه رسيس حمي^(١)

ويمتاز شعر ابن جدار بكثرة تلاعبه بالألفاظ وتشبيهاته، ولكن لم يصلنا من ديوانه الذي حدثنا عنه ياقوت عن الصولي إلا عدة أبيات قليلة مبعثرة في الكتب، ومن شعره الذي أظهر فيه صنعته البيانية، وتكلفه في قول الشعر حتى أن ابن عبد ربه قال عندما روى هذا الشعر: وقد يأتي من الشعر ما هو خارج عن طبقة الشعر منفرد في غرائبه وبديع صنعته، ولطيف تشبيهه كقول جعفر بن جدار كاتب ابن طولون^(٢).

وظفلة رخصّة المرأى لَيْسَتْ تُجَلِّي وَلَا تُسَمِّي
ألا وسلك من السلالى تُعْجِزُ من يُخْرِجُ المَعْمَى
من طفلة بضّة لِعُوب تَلْقَاكَ بالحسن مُسْتَتْمَا
منهن ريا وكيف ريا رِيا إذا لاقت المشما
تسحب ذيلين من خلوق قد أفنيا زعفران قما
كأنا أحنيا عليها من طيب ما بشرا وشما
فألفيا زعفران قم فانغمسا فيه واستحما
فهل تظن اسمها المرّيا يفوح لا مرّطها المذما
هيأت يا أخت أهل يما غلّطت في الاسم والمسمي
لو كان هذا وقيل سم مات إذا من يقول سما

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٤٢٨

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٤٢٦

قد قلتُ إذ أقبلتُ تهادى كطلعة البدر أو أتما
 لو كنت ممن لكنت مما لكننى قد كبرت مما
 عاتبنى الدهر في عذارى بأحرفٍ فارعويت لما
 قُوس ما كان مستقيماً وبيض ما كان مدلهما
 وكيف تصبو الدمى إلى من كان أخا ثم صار عما
 لى عنك يا أخت أهل يم شغل بما قد دنا وحما
 فلست من وجهك المفسدى ولست من قدك المحما
 أذهلنى عنك خوف يوم يحيا له كل ما أرمأ
 ما كسبته يدي رهينا خيراً وشرأ أصبت ثما
 تحشر فيه الجنان زفا وتحشر النار فيه زما
 تقول هذى لطالبيها هيت ، وهذى لهم هلبا
 نفسى أولى بأن أذما من أمرها كل ما استذما^(١)

ففي هذه القصيدة ظهر تلاعب ابن جدار باللفظ مما أضعف
 المعنى وشوّهه ، كما تظهر لنا وحدة القصيدة في الشعر المصرى ، وعدم
 استقلال المعنى في كل بيت كما ظن القدماء في الشعر العربى .

منصور الفقيه

هو منصور بن اسماعيل بن عمر أبو الحسن النيمى المصرى الضرير ،
 كان إماماً فى الفقه ، وفقه الشافعى على الأخص^(٢) ، ووضع مؤلفات
 فى المذهب الشافعى منها « الواجب والمستعمل » والمسافر والهداية

(١) هذه القصيدة بأكملها فى العقد الفرید ج ٣ ص ٤٢٦

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ٣١٧

وغير ذلك^(١). اتفق ابن خلسكان وياقوت^(٢) على أن الشاعر ولد في رأس العين بالجزيرة وأنه قدم مصر صغيراً ، وأخذ فيها جميع علومه كما أنه أنشد بها جل أشعاره ، وصار له منزلة رفيعة عند القاضي أبي عبيد ، بل صار من خواصه الذين كان يخلو بهم للبداكرة والمحادثة ، ولكن حل البغض محل هذا الود ، وانقطع الإخاء بسبب المناقشات الفقهية ، فقد قيل إن أبا عبيد كان له كل عشية مجلس يذاكر فيه رجلاً من أهل العلم ، وفي عشية منصور حدث بينهما مجادلات ، انتهت بخصام العالمين ، فتعصب الأمير « ذكا » وجماعة من الجند لمنصور ، وتعصب جماعة من العلماء على رأسهم ابن الربيع الجيزي للقاضي ، ثم حدث أن شهد ابن الربيع الجيزي على منصور بكلام زعم أنه سمعه منه ، فقال القاضي إن شهد عليه آخر بمثل ما شهد به ابن الربيع ضربت عنقه ، فخاف منصور خوفاً شديداً حتى اعتل ومات سنة ست وثلاثمائة^(٣) وقيل إنه كان حول نعشه آلاف من الجند ، أظهروا سب القاضي ، وقذفوه ، وندم القاضي نفسه على ما كان منه وتأسف على ما فاتته من منصور . رحل منصور إلى العراق حيث اتصل بالخليفة المعتز العباسي ومدحه بقوله :

ما وواحد من واحد أولى بمجد أو مروة
 بمن أبوه وجده بين الخلافة والنبوة^(٤)

(١) ابن خلسكان ج ٧ ص ١٢٥

(٢) معجم الادباء ج ٧ ص ١٨٥

(٣) ابن خلسكان ج ٢ ص ١٢٦

(٤) المغرب ص ٩٤

وكل الرواة مجمعون على جزالة شعره وجودته، وأنه لم ينشد قصائد مطولة، بل كل شعره مقطعات، روى الحصرى عن شعره «وهو على المقطعات، لا تزال تندر له الأبيات مما يستظرف معناه، ويستحلى مغزاه، ويبقى سناه» (١)، وأورد له الثعالبي كثيراً من الأبيات جرت بجرى الأمثال لدقة معانيها كقوله:

شاهد ما في مضمري من صدق وُدِّي مضمرك
فما أريد وصفه قلبك عنى يخبرك (٢)
وكقوله:

مَنْ قال لا في حاجة مطلوبة فما ظلم
وإنما الظالم من يقول لا بعد نعم (٣)
وعاب عليه بعض المصريين التفقه فأجابهم بقوله:
عاب التفقه قومٌ لا عقول لهم
وما عليه إذا عابوه من ضرر
ما ضرَّ شمس الضحى والشمس طالعة
أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر (٤)

ويخيل إلى أن الشاعر كان يكذب التنجيم الذي كان منتشرًا بين طبقات الناس وظهر ذلك في شعره

(١) زهر الآداب ج ٣ س ٢٢١

(٢) لطائف المعارف نسخة خطية بمكتب الأزهر رقم ٥٦٢

(٣) شرحه

(٤) طبقات الشافعية ج ٢ س ٣١٧

مَنْ كَانَ يَخْشَى زُحْلًا أَوْ كَانَ يَرْجُو الْمُشْتَرَى
فَأَيْ مَنَّهُ وَإِنْ كَانَ أَبِي مِنْهُ بَرِي (١)
وَقَوْلُهُ:

إِذَا كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ النُّجُومَ تَضُرُّهُ وَتَنْفَعُ مَنْ تَحْتَهَا
فَلَا تَنْكُرَنَّ عَلَيَّ مِنْ يَقُولُ بِأَنَّكَ بِاللَّهِ أَشْرَكَتَهَا (٢)

من ذلك يظهر شدة حرصه على دينه، وعلومه الإسلامية الخالصة التي تنكر مثل هذه الأقوال التي انتشرت بين الناس، ولا شك أن مثل هذا الرجل كان بعيدا كل البعد عن حياة اللهو التي جرفت أكثر شعراء مصر، فكان هذا الشاعر يمثل طبقة الشعراء العلماء الذين لم يأخذوا بنصيب من تطور الحياة في عصره.

ابن طباطبا:

كان بمصر بعض سلالة علي بن أبي طالب، وأقاموا بها مكرمين معززين، وكانوا على اتصال حسن بالولاة والأمراء، لا يعنهم من أمر البلد السياسي شيء، فركنوا إلى الآداب والعلوم، وأخذوا من هذه وتلك، وأنشدوا الشعر ورووه، فمن أعظمهم شأنًا في ذلك أبو القاسم أحمد بن محمد بن اسماعيل بن إبراهيم طباطبا بن اسماعيل ابن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٣) كان عالما فاضلا، وإليه كانت نقابة الطالبين بمصر (٤)، كما كان شاعرا، وكان

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٥

(٢) شرحه

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٣٩

(٤) المغرب ص ٤٩

ابناه أبو محمد القاسم بن أحمد وأبو اسماعيل إبراهيم بن أحمد شاعرين (١) وكان ابن ابنه الحسين بن إبراهيم شاعرا، وقد روى لهم صاحب يتيمة الدهر بعض أشعارهم. وإذن نستطيع أن نعد أسرة بني طباطبا في مصر من أسرات الشعر، ولكن أكثر شعراء هذه الأسرة لم يكونوا في عصرنا هذا الذي نؤرخه، — وستعرض للحديث عنهم في بحثنا عن الأدب المصري في عهد الفاطميين — ويكفي أن نتحدث عن أبي القاسم أحمد ابن محمد. درس هذا الشاعر الآداب وأكثر من إنشاء الشعر، وظهر أثر دراساته في شعره، فكان يميل إلى الأخذ بمذهب مسلم وأبي تمام في الإكثار من الزينة البديعية، والتشبيهات وما إلى ذلك من ألوان الصنعة البيانية، وأكثر شعره الذي وصلنا في الغزل، والغزل المبني على القصص حتى يخيل إلينا أن الشاعر كان متأثرا بمذهب عمر بن أبي ربيعة، ولكنه يختلف عن عمر، فقد كان عفيفاً في شعره، وهذا أمر طبيعي لمن كان في مثل مكاتته الأدبية والدينية، فغزله يقوم على الوصف والحوار دائماً كقوله:

عَيَّرْتَنِي بالنوم جوراً وظُلماً قلت: زِدْتِ الفؤاد همماً وغمماً
لم أُنم لذة، ولا نمتُ إلا طمعاً في خيالكم أن يلبا (٢)

وكقوله: أيضاً

قالت: أَرَاكَ خَصَبَتَ الشَّيْبِ . قلت لها:

سَتَّرْتَهُ عَنْكَ يَا سَمْعِي وَيَا بَصْرِي

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٣٠

(٢) شرحه ج ١ ص ٣٢٩

فاسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ مِنْ تَعَجُّبِهَا

تَكَثَّرَ الْغَشُّ حَتَّى صَارَ فِي الشَّعْرِ (١)

ويخيل إلى أن ابن طباطبا أصيب بفقد حبيب عزيز لديه ، إذ ظل يذكره حيناً بعد حين ، ويكثر من الحديث عنه في شعره ، فقال مرة :

خَلِيلِي إِنِّي لِلثَّرِيَا لِحَاسِدٍ وَإِنِّي عَلَى صَرْفِ الزَّمَانِ لَوَاجِدٍ

أَيَسْبِقُنِي جَمِيعًا شَمَلَهَا وَهِيَ سَبْعَةٌ وَأَفْقَدُ مِنْ أَحِبَّتِهِ وَهُوَ وَاحِدٌ

كَذَلِكَ مِنْ لَمْ تَخْتَرِمَهُ مَمِيَّةٌ يَرَى عَجَبًا فِيمَا يَرَى وَيَشَاهِدُ (٢)

وقال مرة أخرى :

لَا وَالَّتِي تَرَ كَتَنِي يَوْمَ فَرَقْتَهَا كَأَنَّمَا الرَّمْلُ فِي عَيْنِي مَشُورٌ (٣)

وقال مرة ثالثة :

مَا اخْتَرْتُ تَبْدِيلَ الْمَوَدَّةِ سَاعَةً بَعْدَ الَّذِي هَجَرَ الْحَاوِجِفَانِي (٤)

ومن يدري لعل هذه الأشعار قيلت في زوجه التي تكون قد توفيت

وتركته ينشد مثل هذه الأشعار فيها .

ولابن طباطبا بعض المقطعات في الخمر كقوله فيها :

يَا بَدْرُ بَادِرٍ إِلَيَّ بِالسُّكَّاسِ فَرُبَّ خَيْرٍ أَتَى عَلَى يَأْسِ

وَلَا تَقْبَلْ يَدِي فَإِنِّي فِي أَوْلَى بِهَا مِنْ يَدِي وَمِنْ رَأْسِي

لِأَعَاشٍ فِي النَّاسِ مِنْ يَلُومُ عَلَى حَبِي وَعَشَقِي لِأَحْسَنِ النَّاسِ (٥)

(١) شرحه

(٢) المغرب ص ٤٩

(٣) المغرب ص ٤٩

(٤) شرحه ص ٥١

(٥) بقيمة الدهر ج ١ ص ٣٢٩

وكقوله :

قل للذي حسنت منه خلائقه
باكر صُوحك واسبق من تسابقه
أما ترى الغيم مجموعاً ومفترقاً
يسير هذا إلى هذا يعانقه
كعاشق زار معشوقاً يودعه

قبل الفراق فآلى لا يفارقه (١)

وقد ذكرنا أن ابن طباطبا يعد من أقدر شعراء مصر في هذا العصر
في وصف الطبيعة ومحاكاتها، ولعل ما قاساه من فراق من أحب جعله
يهيم إلى أحضان الطبيعة يناجي من غاب عنه، ليأخذ من الطبيعة سلوة ،
أنظر إلى قوله :

رب ليل صحبته كاسف البيا ل كئيبا حليف هم شتيت
تحت سقف من الزمر د قد رصع بالدر والياقوت

اختلف المؤرخون في وفاة ابن طباطبا فذكر ابن سعيد عن القرطبي
أنه توفي سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة (٢) ونقل ابن خلكان عن المسبجي
أنه توفي سنة خمس وأربعين وثلثمائة (٣) وقال صاحب «مطالع البدور
في منازل السرور» أنه توفي سنة ثمان وأربعين وثلثمائة (٤).

(١) شرحه

(٢) المغرب ص ٥١

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٤٠

(٤) ج ١ ص ٣٦

خاتمة

لعلك أدركت الآن كيف تطورت مصر في هذا العصر منذ دخلها العرب فاتحين ، ثم استقروا بها ، حتى دخلها جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة من الهجرة ، وانتزع مصر من الأخشيديين ، فقد كان أثر العرب في مصر كبيراً جداً ، تدركه في تحول المصريين عن دينهم واعتناقهم الدين الإسلامي ، وتدركه في تحول المصريين عن لغتهم اليونانية والقبطية واتخاذهم اللغة العربية لغة للتخاطب ولغة لأدبهم ، ثم تدركه في هذه الدراسات الإسلامية والعربية وازدهار هذه الدراسات في مصر ، حتى صارت مركزاً من مراكز الحياة العقلية في الأقطار الإسلامية .

ومع ذلك كله فقد استطاعت مصر أن تحتفظ بشخصيتها ، فقد اضطرت العرب إلى أن يندمجوا في المصريين ، وأن يكون الجميع شعباً واحداً هو الشعب المصري الإسلامي .

وقد تلقت مصر جل المدنيات القديمة ، وأخذت منها بحظوظ تختلف قوة وضعفاً ، ولكن مصر استطاعت أن تمصر هذه المدنيات جميعاً ، فلما أن جاءها العرب والمسلمون يحملون الثقافة الإسلامية العربية ، التقت هذه الثقافة بالثقافات التي كانت في مصر قديماً ، وامتزجت هذه الثقافات جميعاً ، فكان ثمرة هذا المزج هي الثقافة

المصرية الإسلامية التي ظهرت بعد ذلك العصر الذي أرتخناه في هذا الكتاب .

ولعلك أدركت أيضا أثر مصر في الشعر الذي أوردنا لك صوراً منه ، فإنك لم تر المعاني البدوية القديمة ، ولا تشبيهات الجاهليين أو شعراء الأمويين ، وظهر في شعر المصريين الآراء المصرية والحوادث المصرية ، التي لا تصدر إلا عن قوم عاشوا في مصر . وإذن فقد كان أثر مصر في الشعر كبيرا كما كان أثرها في العلم كبيرا .

(وبعد) فهذا البحث الذي تحدثت فيه عن مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ما هو إلا مقدمة لبحث آخر ، أرجو أن أقدمه للطبع قريبا وهو بحث — الأدب في مصر الفاطمية — وهو تاريخ الأدب في العصر الذي أصبحت فيه مصر زعيمة الأقطار الإسلامية في الآداب والعلوم ؟

ثبت بالمراجع والمصادر

- آثار البلاد للقرظوبى
طبع جوتنجن ١٨٤٨ م
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء المبريزى
د ليبسك ١٩٠٩ م
- أحسن ما سمعت للتمالي
د مطبعة الجمهور بمصر ١٣٣٤ هـ
- أخبار سيوبه المصرى لابن زولاق
نسخة خطية بدارالكتب المصرية
رقم ١٢٠ ع تاريخ
- أخبار قبط مصر للمبريزى
طبع جوتنجن ١٨٤٥ م
- أخبار مصر لعبد اللطيف البغدادى
د أكسفورد ١٨٠٠ م
- أدب التديم لكشاجم
د بولاق ١٢٩٨ هـ
- الأغانى للأصفهاني
د مطبعة الجمهور ١٣٢٣ هـ
- أبناء الرواة على أبناء النحاة للقفطى
نسخة فتوغرافية بدار الكتب
المصرية رقم ٢٥٧٩ تاريخ
- الاتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق
ج ٤ و ٥ طبع بولاق ١٣٠٩ هـ
- الأنساب للسمعاني
طبع ليدن ١٩١٢ م
- بدائع البداية لابن ظافر المصرى
د بولاق ١٢٧٨ هـ
- بدائع الزهور لابن إياس
د د ١٣١١ هـ
- بغية الوعاة للسيوطى
مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٦ هـ
- البيان والاعراب عن نزل من الأعراب
للمبريزى
مطبعة المعارف ١٣٣٤ هـ
- تاريخ ابن الأثير
طبع بولاق ١٢٩٠ هـ
- د ابن خلدون
د د ١٢٨٤ هـ
- د ابن الراهب
د بيروت ١٩٠٣ م

- | | |
|--|--|
| طبع أكسفورد ١٨٩٤ م | تاريخ أبي صالح الأرمي |
| المطبعة الحسينية بمصر | الطبري |
| نسخة خطية بدارالكتب المصرية | الإسلام للذهبي |
| رقم ٤٢ تاريخ | |
| طبع مطبعة التوفيق ١٩٢١ م | الأمة القبطية |
| الهلال | التمدن الإسلامي |
| بيروت ١٩٠٥ م | يحيى بن سعيد |
| ليدن ١٨٨٣ م | اليعقوبي |
| دار الكتب ١٩٢٧ م | ووصف الجامع الطولوني للاستاذ
عكوش |
| نسخة خطية بدارالكتب المصرية | تراجم رجال صحيح البخاري |
| رقم ٣١٤ (حديث) | |
| طبع دار السعادة ١٣٢٦ هـ | تحفة المجالس للسيوطي |
| القاهرة ١٣٤٥ هـ | تهذيب الأسماء للنووي |
| على هامش محاضرة الأدباء | ثمرات الأوراق لابن حجره |
| نسخة فتوغرافية بمكتبة الجامعة
المصرية | الجامع في الحديث لعبد الله بن وهب |
| طبع مطبعة النيل ١٣٢١ هـ | الجوهر النفيس في أشعار الامام ابن ادريس |
| الطبعة الأولى ١٣٤٤ هـ | حديث الأربعماء للاستاذ الدكتور طه
حسين بك |
| نسخة فتوغرافية بالمكتبة الأميرية | حسن الجمع فيما قيل في قصر الشمع |
| رقم ٢٥٤٤ | |
| طبع دار الوطن ١٢٩٩ هـ | حسن المحاضرة للسيوطي |
| د د د ١٢٩٩ هـ | حلبة الكميث للتواجي |

- الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة
در السحابة فيمن نزل مصر من الصحابة
للسيوطي
الدر المنظوم فيما ورد في مصر من
موجود ومعدوم للجوهري
دمية القصر للباخرزي
الديارات للشابشتي
- الطبعة الثالثة ١٩٢٣
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ٢٣٩
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ٨٦٣
طبع حلب ١٩٣٠
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ١٧٥٦
طبعة محي الدين الخياط
طبع فينا ١٩٠٢
» بيروت ١٣١٣ هـ
» مصطفي محمد
» مصر ١٢٧٧ هـ
» ١٨٢٨ م
» جوتنجن ١٧٧٦ م
» بولاق ١٣٠١ م
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ١٠٥
المطبعة الرحمانية ١٣٤٥ هـ
طبع بيروت ١٩٠٧
» برلين ١٨٩٤
» دار الكتب المصرية
مطبعة الاعتماد
- ديوان أبي تمام
» ابن قيس الرقيات
» كشاجم
» المتنبى
» أبي نواس
ذكر دخول قبط مصر في دين النصرانية
للمقريري
ذكر ديار مصر
الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية لابن حجر
رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر
زهر الآداب للحصرى
سيرة الآباء البطارقة لابن المقفع
سيرة ابن طولون لابن الداية
صبح الأعشى للقلقشندي
ضحى الاسلام للاستاذ أحمد أمين

- طبقات الشافعية الكبرى
الطبقات الكبرى لابن سعد
العقد الفريد لابن عبد ربه
العمدة لابن رشيق
فتوح مصر للواقدي
فتوح مصر لابن اسحق الاموي
فتوح مصر لابن عبد الحكيم
فجر الاسلام للاستاذ احمد امين
الفخرى لابن الطقطقي
الفهرست لابن النديم
فضائل مصر للكندي
فضائل مصر لابن زولاق
فوات الوفيات لابن شاكر
كتاب الولاية والقضاء للكندي
بجاس ابى مسلم
محاضرات الادباء
مختصر تاريخ الدول لابن العبري
مروج الذهب للمسعودي
مسالك الابصار لابن فضل الله العمري
معجم الادباء لياقوت
معجم البلدان
- المطبعة الحسينية ١٣٢٤ هـ
طبع ليدن ١٣٢٢ هـ
» مصر ١٩٢٨
» » ١٩٢٥
ليدن ١٨٢٥
مصر ١٢٧٥ هـ
طبع نيوهافن ١٩٢١
الطبعة الاولى
مصر ١٣١٧ هـ
طبع مصطفى محمد
نسخة خطية بدارالكتب المصرية
رقم ٤٢٢
نسخة خطية بمكتبة الازهر رقم ٦٦٩
بولاق ١٢٨٣
طبع ليبسك ١٩٢٥
نسخة خطية بدارالكتب المصرية
رقم ٧٧ ش
طبع مصر ١٢٨٧ هـ
اكسفورد ١٦٦٣
بولاق ١٢٨٣
ج١ طبع دارالكتب ١٩٢٤ والباقي
نسخ خطية بدارالكتب
المصرية رقم ٣٣٦

- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد
نسخة خطية بدارالكتب المصرية
رقم ١٠٣ الجزء الرابع
طبع ليدن ١٨٩٨ م
المكافأة لابن الداية
النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى
نهاية الأرب للنويرى
الوفى بالوفيات للصفدى
وفيات الأعيان لابن خلكان
يتيمة الدهر للثعالجى
طبع مصر ١٩٢٤ م
دار الكتب المصرية
دار الكتب المصرية
نسخة خطية بالمكتبة التيمورية
مصر ١٣١٠ هـ
طبع بيروت
-

مراجع افرنجية

- Butcher : The Story of the Church of Egypt (London 1897).
- Butler : The Arab Conquest of Egypt (Oxford 1902).
- : The Ancient Coptic churches of Egypt(Oxford1884).
- Corbett : The Life & Works of Ahmed Ibn Tulun
(J. R. A. S. 1891).
- Encycloepedia Britannica.
- Encycloepedia of Islam.
- Galtier : Contribution à l'Etude de la Litterature Arabe, Copte
(Cairo, 1905).
- Grohman : Arabic Papyri in the Egyptian Library.
- Hugh : The Monastries of the Wadi'n Natrûn (V.I. New York.)
- Lane-Poole : Mohammedan Dynaties (London 1849).
- : History of Egypt in the Middle ages (London 1925).
- The Arts of the Saracens in Egypt (London 1868).
- Marcel : L'histoire d'Egypte (Paris 1848).
- Milne : A History of Egypt under Roman Rule.
- Nicholson : A Literary history of the Arabs.
- Quatremère : Mémoires Geographiques et Historiques sur
l'Egypte et sur quelques contrées voisines
(Paris 1811).
- Recherches sur la langue et la litterature de
l'Egypte (Paris 1808).

فهرس الأعلام

أحمد بن طولون ١٤ ، ٦٢ ، ٦٣ ،
 ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩١ ،
 ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
 ، ١١٦ ، ١٦٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ،
 ، ٢٠٨ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ،
 ٢٢٥ ، ٢٢٣ ، ٢٣٩
 أحمد بن عبد الله بن سلة ٦٩
 أحمد بن محمد بن اسماعيل ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩
 أحمد بن محمد الحيشي ٢١٥ ، ٢١٧
 أحمد بن محمد بن ولاد ٦٦
 أحمد بن المدبر ٧٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
 ٢٠١
 أحمد بن المؤمل ١٠٤
 أحمد بن وصيف ٨١
 أحمد بن يوسف ١٨٦
 أحمد بن يوسف «انظر ابن الداية»
 أحمد بن يونس بن عبد الأعلى ٥٧ ،
 ٦٨ ، ٧٧ ، ٢٠١
 الأخشيد ٢٥ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ١٠٦ ،
 ، ١١٤ ، ١١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ،
 ٢٣٨

(١)

ابن أبحر الطيب ١٤
 الأبحر المعنى ١٣٤
 ابراهيم «الخليل» ١٠٩
 ابراهيم بن اسماعيل ٥١ ، ٥٣
 ابراهيم بن خمارويه ٢١٣
 ابراهيم بن رسول الله ١٧
 ابراهيم بن عبد الله النجيري ١٠٦ ،
 ١١٣ ، ١١٤
 ابراهيم بن المهدي ٧٩ ، ١٤٢
 أناس بطريق قوص ٢٧
 أحمد بن أيمن ١٠٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦
 أحمد بن جعفر الدينوري ٦٥ ، ٦٦
 أحمد بن حنبل ٤٦ ، ٥٧
 أحمد بن حوى العذري ١٧٨ ، ١٨٣ ،
 ١٨٤
 أحمد بن خاقان ١٠٣
 أحمد بن أبي دؤاد الأيادي ٧٣ ، ١٥٧
 أحمد بن صالح ١٥٨

اصبغ بن فرج الفقيه ١٩٧	أخيلوس تاتيوس ٨
اصطفتن الاسكندراني ١٤	أرجانوس القس ٢٦
ابن أبي اصيبعه ١٤	ابن اسحق « انظر محمد بن اسحق »
الأعشى ١٩٩	ابن اسحق الأموي ٧١
أفرام « قم الذهب » ٢٧	اسحق بن ابراهيم ١٠٩
الأفشين القرطبي « انظر محمد بن موسى	اسحق بن ابراهيم المنجنيق ٢٤٦
ابن هاشم »	اسحق بن بكر بن مضر ٥١
الأكدر بن حمام ١٣٢	اسحق بن الفرات ٥١، ٥٥
المانوس ١٠٦	اسحق بن كنداج ٢٠٦، ٢٠٥
امرؤ القيس ١٩٩	اسحق بن معاذ بن مجاهد ١٦٤
أبو أمية عبيد بن نجر المغافري ٣٦	اسحق بن نصير العبادي ١٠٥، ١٠٤
انطونيوس القديس ٢٧	أسعد بن سعد ٤٠
أهرن القس ١٠	اسماعيل بن ابراهيم الخليل ١٧
الأوزاعي ٣٩، ٦٠	أبو اسماعيل ابراهيم بن احمد ٢٦١
ايدوشيا ٩	اسماعيل بن اليسع ٦١
أيمن بن خريم الأزدي ١٢٠، ١٢١	اسماعيل بن عبد الواحد المقدسي ٦٤
(ب)	اسماعيل بن أبي هاشم ٢١٢، ٢١٤،
بتلر ١٦٠، ١٣، ١١	٢٢٢
بشينة ١٢٧	اشناس ٢٩
البخاري ٣٨، ٤٧، ٤٦، ١٩٦	أشهب بن عبد العزيز ٤١، ٤٣،
بدر الحمصي ٢١٤	٧٢، ٤٦، ٤٤
أبو بشر الدولابي ٦٠	الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان
بشر بن مروان ١٢١	١٢٨، ٣٠، ٢٤

٩ ثيودوسيوس الثاني	أبو بشر الأنصاري ١٩٨
(ث)	بشوا «الأنبا» ٢٧
٦٥، ١٠٥ ثعلب	بكار بن قتيبة ٦٢، ٦٣
٥٨، ٦٠ أبو ثور	أبو بكر بن الحداد ٥٣، ٦٤، ٢٢٤
٧ ثيوفيلس	٢٢٩، ٢٤٠، ٢٤٦
(ج)	أبو بكر بن صالح ٢٤٣
الجاحظ ٦٨، ٧٥، ٨٢، ٩٥	بكر بن محمد ٥٣
جبر بن عبد الله القبطي ١٧	ابن البطريق ١٣
ابن جرير الطبري ٦٩، ٧٠، ٧١	البطين الحمصي ١٧٥
٧٥، ٧٨	بليطان بطريق الاسكندرية ١٤
جروهمان ٣١	بنيامين « القس » ٣٠
أبو جعفر التل ٦٣	بوتشر ٨
جعفر بن جدار ١٠٤، ٢٢٣، ٢٥٤	بولس الايجي ١٤
٢٥٥، ٢٥٦	بولس « القديس » ٢٦
جعفر بن ربيعة ٤٢، ٤٥	بولس « أسقف بلا » ٩
جعفر بن أبي طالب ٢٢	البويطي ٥٦، ٥٨، ٧٣
أبو جعفر الطحاوي ٦٣، ٢٤٦	بيرس ١٧١
جعفر بن عبد الغفار المصري ١٠٣	(ت)
جعفر بن الفضل بن الفرات ٢٤٢	تسكين ٦٤
٢٤٣، ٢٤٦، ٢٤٧	أبو تمام ١٣٧، ١٣٨، ١٩٠، ١٩١
أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود	١٩٣، ٢٠٠، ٢١٥، ٢١٦
٩١، ٩٢، ٩٥، ١٠٤، ١٠٥	٢٣٨
أبو جعفر المنصور ٤٠، ٤٧، ١٨٢	توري ٧٢

- أبو جعفر النحاس « انظر أحمد بن محمد بن علي بن سلمي ٢٥٣
 محمد بن اسماعيل «
 جمال الدين القفطي ١٥
 الجمل الأكبر « انظر الحسين بن عبد السلام «
 جميل بن معمر ١٢٧
 جناده اللغوي ١٠٦
 جورجى زيدان ١٥ ، ٨٤
 جورجى صبحى بك ٣٣
 جوست ١٩٨ ، ١٩٩
 جيون ١٦
- (ح)
- الحارث بن زرعة ١٤٣
 الحارث بن مسكين ٦٤
 حاطب بن أبي بلتعة ١٧
 الحاكم الفاطمى ١٧٢ ، ٢٢٧
 ابن حجر العسقلانى ٣٣ ، ٦٢ ، ١٩٧ ، ٦٤
 حرمله بن يحيى ٥٨
 ابو الحسن الاسدى ١٩٤ ، ٢٢٤
 ابو الحسن الاشعري ٢٥٠
 ابو الحسن الدارقطنى ٢٤٢
 الحسن بن رافع ١٠٣
- أبو الحسن بن محمد بن محمد بن سلمي ٢٥٣
 الحسن بن عمر الاجهرى ١٨٥
 الحسين بن ابراهيم ٢٦١
 الحسين بن جميل ١٤٠ ، ١٦٥
 الحسن بن عبد السلام ٦٤ ، ١٣٦
 ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ،
 ١٦٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٢
 الحسين بن أبي الشوارب ٢٣٩
 الحسين بن محمد المادرائى ٢٤٦
 الحسين بن مهاجر ١٠٣
 الحزين السكتانى ١٢٩
 حطان بن المعلى ٢٠٠
 أبو حفص عمر بن أيوب ٢٥٤
 حفص بن الوليد ١٣٣
 حمدويه الشاعر ٢٠٢
 أبو حنيفه النعمان ٥٢ ، ٥٦ ، ٦٠ ،
 ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣
 حوثره الباهلى ٢١
 حوى بن حوى العذرى ١٥١
- (خ)
- خالد بن سعيد ٣٣
 خالد بن يزيد بن مزيد ١٤٥
 خالد بن يزيد بن معاوية ١٢ ، ١٤ ، ١٥٠

ديسقوريدس ٩	خشنام الفقيه ١٥٧
ديك الجن ١٨٥	ابن خزيمة ٦٢
(ذ)	الحصيب ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩،
ذكا ٢٥٨	١٨٠، ١٨١، ١٨٧
(ر)	ابن خلدون ٦٢
الربيع بن سليمان الجيزي ٥٤، ٥٦،	ابن خلكان ٤٠، ٤٣، ٤٦، ٥١،
٦٩	٦٧، ٧٢
الربيع بن سليمان المرادي ٥٩	خليفة بن المبارك (أبو الأغر) ٢١٤
ربيعة بن ثابت الرقي ١٧٤	الخليل بن احمد ٦٥، ٦٨
رجاء بن أشيم ١٣٣	نخارويه ٨٠، ١٠٤، ١٠٥، ١١٢،
أبو رجب العلاء بن عاصم الخولاني	٢٠٦، ٢٠٧، ٢١١، ٢٢٦،
١٥٣	٢٣٣
الرقاشي ١٣٨	خير بن نعيم ٣٣، ٤٥
(ز)	(د)
الزيدي ٦٩	داود (نبي الله) ١٠٩
الزبير بن العوام ١٧	داود بن علي الأصماني ٥٤
الزجاج ٦٦، ٦٧، ١٠٦	أبو داود السجستاني ٣٨، ٦٢
زرعه بن سعد بن أبي زمزمه ١٣٠	ابن الداية ٣٣، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠،
أبو زرعة المؤذن ٦٥، ٦٧	٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ١٠٣،
أبو زرعه محمد بن عثمان الثقفي	١٨٦، ٢٢٤، ٢٢٥
٦٠، ٥٩	دحية الأموي ١٤٧
زهير بن أبي سلى ١٦٠، ١٩٩	دعبل الخزاعي ١٤١، ١٨٧، ١٨٨،
	الدلال المغني ١٧٢

- سعيد القاص ٢٠٧، ٢١٤، ٢٢٣
سقلاب بن شنيه ٣٦
ابن سكرة الشاعر ٢٣٩
سلام النوى ١٤٠
سلامه الطحاوى ١٤٣، ١٤٤
ابو سلمه التجيبي ٧٤
سليم بن عتر التجيبي ٧٠
سليمان بن داود ١٠٩
سليمان بن أبي سهل ١٧٦
سليمان بن غالب ١٤٢
سليمان بن وهب ٢٠٢
السمعاني ٤٥
السموأل بن عاديا ١٦٠
ابن سندر ٢٤
سویرس بن المقفع ١٢، ١٣
سيبويه ٦٦
سيبويه المصرى ١٥٩، ٢٤٤، ٢٤٥
٢٤٦
سيروس الاخيمني ٨
السيوطي ١٧، ٣٧، ٣٨، ٤١
٤٤، ٤٥، ٤٦، ٥٤، ٦٦
١٩٧
- زهير بن قيس البلوى ١٣٠
ابن زولاق ٨٠، ١٠٤، ٢٣٩
زياد بن أبيه ٢٠
زياد بن حناطه التجيبي ١١٨
زياد بن قائد اللخمي ١٣٢
(س)
سرج الغول ٥٤
سرجيوس ١٠
السرى بن الحكم ١٤١، ١٤٢،
١٤٣، ١٤٤، ١٦٧، ١٨٨
ابن سريج المغنى ١٧٢
ابن سعد ٤٣
سعد بن عبد الله بن عبد الحكم ٧٣
سعيد بن أيوب ٤٦
سعيد بن تليد ١٥٤
سعيد بن توفيل ١٤
سعيد بن زياد ١٥٥، ١٥٦
سعيد بن عفير ١٧، ٣٨، ٤٦
١٣٦، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤
١٤٦، ١٦٠، ١٦١، ١٦٥
١٦٦، ١٦٧، ١٩٦، ١٩٧
١٩٩، ١٩٨
سعيد بن فاخر ٢٢٥، ٢٣١، ٢٣٢
سعيد الفيومي ٨٤

الطرماح بن حكيم ٩٢

طه حسين بك ٩٤ ، ٢٤٧

(ع)

عابد بن هشام الأزدي ١١٩

عائذ بن ثعلبه البلوي ١١٨

العباس بن احمد بن طولون ٩٥ ،

١٠٤ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥

العباس بن البصري ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،

٢٣١ ، ٢٣٩

العباس بن خالد البرمكي ١٠٣

أبو العباس بن عمار ١٩٤

العباس بن موسى ١٨٩

أبو العباس بن محمد الناشيء الأكبر

٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ٦٨

عبد الحكم بن عبد الله بن عبد الحكم

٧٤ ، ٧٣ ، ٤١

عبد الحميد الكاتب ٥٥

عبد الحميد بن الوليد المصري ١٣٦

ابن عبد ربه ٨٩

عبد الرحمن بن الحكم ١٣١

عبد الرحمن بن جحدم ١٢٩

عبد الرحمن بن خالد الفهمي ٤٥

(ش)

الشافعي ٤١ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ،

٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،

٦٨ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ١٣٦ ،

١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٠١ ، ٢٤٦ ،

٢٥٧

أبو شبيب أنيس بن دارم ١٥٤

ابن شعوه ٢٠٢

شنوده (القديس) ٣١

(س)

صاعد بن مخلد ٢٠٦

صالح بن رشد بن ٢٤٦

صالح بن أبي صالح ٥٤

صالح بن علي ١٣٥

صالح بن موسى ٢٣٧

صالح بن مؤنس ٢٣٩ ، ٢٥٣

ابن صديح ١٥٩

(ط)

ابن طباطبا ٢٢٤ ، ٢٣٥ ، ٢٦٠ ،

٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣

طبطب المحرر ٩٢

- عبد الرحمن بن عبد الحكيم ٣٨ ،
٤٢ ، ٤٣ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ،
٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧
عبد الرحمن العمري ١٤٩ ، ١٥٠ ،
١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٣ ، ١٧٢
عبد الرحمن بن القاسم ٤٣ ، ٤٤
عبد الرحمن بن قيسية ١١٨ ، ١١٩
ابن عبد كان « انظر أبو جعفر محمد
ابن أحمد بن مودود »
عبد الرحمن بن معاوية بن حديج
١٨١
عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم
٣٧
عبد العزيز بن الجروي ٢١ ، ٧٣ ،
٧٤ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤
عبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدي
١٤٣
عبد العزيز بن مروان ٣٠ ، ١٢٠ ،
١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
١٣٠
عبد الله بن بختيار ١٤٩
عبد الله بن أبي جعفر ٤٢
عبد الله بن الحبحاب ٢١
عبد الله بن الحجاج ١٢٤ ، ١٢٥
أبو عبد الله الحسن بن محمد الزعفراني
٥٩
أبو عبد الله الرباعي الأندلسي ٦٦
عبد الله بن أبي سرح ٧٦
عبد الله بن صالح ٣٨ ، ٤٧
عبد الله بن طاهر ١٧٤ ، ١٧٥ ،
١٩١ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ،
٢٠١
عبد الله بن عبد الحكيم ٤٣ ، ٥١ ،
٧٢ ، ٧٤
عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية
١٨٢
عبد الله بن عبد الملك بن مروان ٢٩ ،
١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١
عبد الله بن عمر ٤٥
عبد الله بن عمرو بن العاص ١٧ ،
٣٧ ، ٣٨
عبد الله بن لهيعة ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،
٤٣ ، ٦٨ ، ١٩٦
عبد الله بن المبارك ٤٦

- | | |
|------------------------------------|------------------------------------|
| عثمان بن الحكيم الجذامي ٤٤ | عبد الله بن محمد بن أبي الجوع ٢٣٣ |
| أبو عثمان السكري ١٤٠ | ٢٤٦ ، ٢٣٩ |
| عثمان بن سعيد المعروف بورش | عبد الله بن محمد ١٧٧ ، ١٨٢ |
| ٣٧ ، ٣٦ | عبد الله بن محمد بن الحصيب ٢٥٢ |
| عثمان بن سويد الأنخيمي ١٥ | أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي |
| عثمان بن صالح ٧٤ | ٧٥ |
| عثمان بن عفان ٢٠ | عبد الله بن هشام ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ |
| الغريان البصري ١٩٥ | ١٨٩ |
| عزة ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ | عبد الله بن الوليد ٥٣ |
| عز الدين أيبك التركاني ٢٣ | الدكتور عبد الوهاب عزام ٢٤٧ |
| علقمة القطيفي ٢٠ | عبد الله بن وهب ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، |
| علي بن أحمد المادرائي ١٠٤ ، ١٠٥ | ٤١ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٦٨ ، ١٣٦ |
| علي بن سراج المصري ٦٩ | عبد الله بن يونس التنبسي ٤٧ |
| علي بن سليمان ١٧٢ | عبد الملك بن مروان ١٢٠ ، ١٢٤ |
| علي بن عبد العزيز الجروي ١٤٤ ، | عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية |
| ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ | ١٣١ |
| علي بن عبد الله بن وصيف الناشي | ابن عبدون الأندلسي ٢٢١ |
| الأصغر ٢٥٠ | ابن العبري ٢٥ |
| ابن عليه (أنظر ابراهيم بن اسماعيل) | أبو عبيد الله أحمد بن صالح ٨١ |
| ابن أبي عمران الحنفي ٦٠ | عبيد الله بن السري ١٤٤ ، ١٤٥ ، |
| إمران بن عبد الرحمن ١٣٠ ، ١٣١ | ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٩١ ، ٢٠٠ |
| أبو عمران موسى بن رباح ١٥٩ | أبو عبيده علي بن الحسين حربوية |
| | ٦١ ، ٦٠ |

فتيان ٥٢	عمر بن الخطاب ١٦ ، ١٩ ، ٢٣ ،
أبو الفرج الأصفهاني ٢٠١	٨٩ ، ٨٨ ، ٨٧ ، ٢٤
الفرزدق ١٢٨ ، ٢٣٩	عمر بن عبد العزيز ١٠ ، ١٤ ، ٤٢ ،
الفضل بن صالح ١٧٣	أبو عمر محمد بن يوسف الكندي
الفضل بن العباس ١١٣	٢٩ ، ٣٣ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٢ ،
الفضيل بن عياض ٤٤	٦٤ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ،
أبو الفيض سوار بن شراعه ٢٥٣ ، ٨١	عمر بن العاص ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ،
فيلون ٧	١٩ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٧٦ ، ٨٧ ،
(ق)	١١٩ ، ٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨
أبو القاسم أحمد بن محمد (انظر : ابن	أبو عمرو عثمان النابلسي ٢٠٤
طباطبا)	عمر بن قحزم ١١٨
القاسم بن حبيش ٧٤	عمار بن وسيمه المصري ٧٧
أبو القاسم الطبراني ٦٨	ابن العميد ٢٤٣
أبو القاسم بن أبي العفير ٢٤٣	عمير بن الوليد ١٦٧ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
القاسم بن يحيى المريبي ٢٠٦ ، ٢٠٧	عنبسة بن اسحق الضبي ١٦٤
أبو قبان بن نعيم بن بدر ١١٩	أبو عوانة ٦٢
قتادة ٤٥	عيسى بن أبان ٥٤ ، ٦٢ ،
ابن قتيبة ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٥	عيسى بن حكم ٧٩
قتيبة بن سعد ٤٧	عيسى بن شافع ١٣٣
ابن قديد ٧٤	عيسى بن المنكدر ٥٢
قرة بن شريك ١٣٢ ، ١٣٤	عيسى النوشري ٢١٣
قزمان ١٦	د ف ،
ابن القطاس (انظر سعيد بن زياد)	الفارابي ٧٥

الليث بن سعيد ٤٢، ٤٣، ٤٤

٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥١

٥٤، ٦١، ٧٤، ٧٧، ١٣٦، ١٩٦

ليث بن فضل ١٤٩

« م »

مارية القبطية ١٧

المازني ٦٦

ماسرجويه ١٠

مالك بن أنس ٣٩، ٤٠، ٤٤، ٤٦

٤٧، ٥٠، ٥١، ٦٤، ٧٢، ١٩٦

المأمون ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٣

١٥٤، ١٥٦، ١٧٤، ١٩٦

٢٠١

ماني الموسوس (أنظر محمد بن القاسم)

المبرد ٦٥، ٦٦، ٧٥، ١٠٥

المتنبي ١٧٩، ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٤٣

٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧

٢٥٠

المتوكل العباسي ٢٢، ٧٣

محمد (رسول الله) ١٧، ١٨، ٣٨

٤٣، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٦١

٧٦، ٧٧، ٩٦

محمد بن احمد بن الربيع الاسواني ٢٢٤

قعدان بن عمرو ٢٠٤

القلقشندي ٩١، ٩٢

القنبي ٦٥

قيس بن سلمه ١١٧، ١١٨

قيس بن كليب ١١٨

ابن قيم الجوزية ٤٨

(ك)

كاترمير ٢٧

كافور الاخشيدي ١١٣، ١٧٩

١٨٠، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٠

٢٥٢

كامل الهنائي ١٦٦

ابن كثير ١٧

كثير عزة ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧

كريب بن أبرهه ١١٨، ١٣٢

كشاجم ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣

كنانة بن خزيمه ٢٣

الكندي (أنظر أبو عمر محمد بن

يوسف)

كينز المغتي ٢٢٥

« ل »

لهيعه بن عيسى الحضرمي ٤١، ١٥٠

١٥٤، ١٥٥

- محمد بن أحمد بن علي المهلبى ٦٥ ، ٦٩ ، ١٠٦
محمد بن اسحق ٣٩ ، ٦٣ ، ٧٠
محمد بن اسحق بن أسباط السكندى ٦٧
محمد بن أبى بكر ١٨١ ، ١٨٢
محمد بن حسان ٦٧
محمد بن الحسن بن زكريا ٢٣٨
محمد بن الحسن الشيبانى ٥٣ ، ٥٦
محمد بن أبى حذيفة ١٨١
محمد بن أبى داؤد ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٣٩
محمد بن رائق ١١٤
محمد بن الربيع الجيزى ٢٥٨
محمد بن زيد بن يضحويه ٦٨
محمد بن سالم القطان ١٥٨
محمد بن سليمان ٨١ ، ٢١٥ ، ٢١٦
محمد بن سهل المنتوف ١٠٤
محمد بن طشويه ٢٢١
محمد بن عاصم ٢٢٥
محمد بن عبد الله بن ظاهر ١٩٤
محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ٤٤ ،
٥١ ، ٥٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٥٧ ،
١٩٦
محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلم ٦٧
محمد بن علي الخليلجى ٢١٣ ، ٢١٤ ،
٢١٧
محمد بن علي الفقيه ٢٥
محمد بن عمرو بن الوليد ١٢٨
محمد فريد ابو حديد ١٦
محمد بن القاسم ١٩٤ ، ١٩٥
محمد بن كلا ١١٤
محمد بن أبى الليث ٦٤ ، ٧٠ ، ١٥٥
١٥٧ ، ١٦٢ ، ٢٠١
محمد بن موسى : انظر سيبويه المصرى
محمد بن موسى بن هاشم ٦٦
محمد بن موسى الواسطى ٦٨
محمد بن ولاد التميمى ٦٥
مرسل بن حمير ١٣٣
مروان بن أبى حفصة ١٦٢ ، ١٩٩
مروان بن الحكم ١٢٩ ، ١٣٠ ،
١٣٢
مروان بن محمد ٢١ ، ١٣٣ ، ١٣٥
مزاحم بن خاقان ٧٩
المزنى ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٣
المسعودى ٣٢ ، ٧٠ ، ٧٨
مسلم بن الوليد ١٣٧ ، ١٣٨ ، ٢٣٨
مسلمة بن مخلد ١١٩
المسهر التميمى ١٧٥

الملطى (انظر محمد بن عبد الله بن محمد	المسيح ١٠٩
ابن مسلم)	ابو المصعب البلوى (انظر قيس
المنذر بن عابس ١٤٠	ابن سلمة)
منصف بن خليفة الهذلى ٢٠٥	المطلب بن عبد الله الخزاعى ١٤١ ،
منصور الفقيه ٢٢٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،	١٦٠ ، ١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠
٢٥٩	المظفر بن أحمد ٦٩
المهدى العباسى ١٤٧	معاوية بن حديج ٣٣ ، ١٨١
المهلب بن أبى صفره ٦٩	معاوية بن أبى سفيان ٢٠
المهلبى (انظر محمد بن أحمد بن على)	معاوية بن سرد الباهلى ١٦٦
مهلب بن يموت ٢٣٨	المعتز العباسى ٢٥٨
موسى (نبى الله) ١٠٩	المعتصم العباسى ٧٩ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ،
موسى بن طولون ١٠٣	٢١٦
موسى بن مصعب ١٣٩ ، ١٤٠	المعلى الطائى ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،
الموفق العباسى ٦٣ ، ٢٠٤	١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٢ ، ١٦١ ،
ابو ميسرة عبد الرحمن بن ميسرة ٣٦	١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،
ميمون بن السرى بن الحكم ١٤٢ ،	٢٠١
١٤٣	معن بن زائدة ١٦٢
(ن)	المغنم المصرى : انظر ابا الحسن محمد
الناشى. الاكبر (انظر ابو العباس	ابن سلى
ابن محمد)	المفضل بن فضاله ١٦٤ ، ١٦٥ ،
الناشى. الاصغر (انظر على بن عبد الله	المقريزى ٢٢ ، ٧٥ ، ٢٢٧ ،
ابن وصيف)	المقوقس ١٧ ، ٧٦٠
نافع ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٥	الملامس الحضرمى ٣٦

هيرة بن هاشم ١٦٠، ١٦٧، ١٦٨،	أبو نجاد الحارثي ١٤٣
١٩٨	أبو الندى البلوي ١٤٠، ١٦٣، ١٦٤
هرون الرشيد ١٤، ١٣٥، ٥٥،	ابن النديم ١٢، ١٤٠
١٥١، ١٤٠	النسائي ٦٠، ١٩٦، ٢٤٦
هرون بن سعيد الايلي ١٥٧	نصر بن عبد الله كيدر ١٥٦
أبو هريرة ابن أبي العصام ٢٢٥،	نصر بن معاوية ٢٣
٢٣٢، ٢٢٧	نصيب بن رباح ١٢٠، ١٢١، ١٢٢
هشام بن عبد الملك ٢١، ١٣٥،	١٢٣، ١٢٤
هشام بن عروة ٤٥	النصر بن أمية الحمصي ١٧٦
هلال بن يحيى ٦٢	أبو النصر هاشم بن القاسم ٤٦
هوميروس ٨	نعم (أم ولد دحية) ١٤٧
« و »	ذو النون المصري ١٥، ١٥٨
الواثق العباسي ٧٣، ١٥٧	أبو نواس ١٣٨، ١٧٥، ١٧٦
الواقدي ٧٠، ٧١	١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠
ورش (انظر عثمان بن سعيد)	١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤
ابن الوزير التجيبي ١٣٦	١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ٢٠٠، ٢٢٥
وصف (جارية المعلى) ١٦٩	« ه »
ولاد (انظر الوليد بن محمد التميمي)	هاجر ١٧
بنو ولاد ٦٥	الهادي العباسي ١٤٧
الوليد بن رفاعة ٢٠	هاشم بن ابي بكر البكري ١٤٩،
الوليد بن عبد الملك ٢٩، ١٣٠، ١٣٢	١٥٢، ١٥٣
١٨١،	هاشم بن حديج ١٧٨، ١٨١، ١٨٢،
الوليد بن محمد التميمي ٦٥	١٨٣، ١٨٤

- | | |
|--|-------------------------------|
| يزيد بن مقسم الصدقي ١٥٠ | الوليد بن يزيد ١٣٤ |
| يعقوب (نبي الله) ١٠٩ | (ي) |
| أبو يعقوب الأزرق ٣٧ | اليازوري ٢٣ |
| يعقوب بن اسحق ١٠٣ | ياقوت ١٠٤ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٥٢ |
| يعقوب الرهاوي ١٣ | يحيى بن بكير ٧٤ ، ٣٨ |
| يموت بن المزرع ٦٨ | يحيى بن يحيى التميمي ٣٨ |
| يوحنا النيقوسى ١١ ، ٣٠ | يحيى الخولاني ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ |
| يوسف (الصديق) ١٠٩ | ١٧٣ ، ١٦٣ ، ١٥٣ |
| يوسف بن ابراهيم ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٤ | يحيى بن الفضيل ١٦٤ |
| يوسف بن أبي طيبة ١٥٨ | يحيى بن معاذ ١٤٠ |
| ابن يونس المؤرخ (انظر أحمد بن
يونس) | يربوع الفزارى ٢٩ |
| يونس بن عبد الأعلى الصدقي ٥٧ | يزيد بن حاتم ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ |
| يونس بن محمد المؤدب ٤٦ | يزيد بن أبي حبيب ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ |
| | يزيد بن شرحبيل ١١٨ |

فهرس الموضوعات

صحيفة	
٣	مقدمة

الباب الأول : تطور الآداب واللغة في مصر

٦	الآداب بمصر قبيل الفتح الإسلامي
١٦	قبائل العرب بمصر
٢٦	الصراع بين اللغات : اليونانية ، القبطية ، العربية

الباب الثاني : في الحياة العقلية

٣٥	١ — المدارس الدينية
٣٧	الحديث
٣٨	عبد الله بن وهب والمدرسة المالكية
٤٥	الليث بن سعد
٥١	المدرسة الشافعية
٦١	المدرسة الحنفية
	٢ — اللغة والتاريخ
٦٥	النحاة واللغويون
٧٠	المؤرخون
٧١	كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم
٧٧	ابن الداية وكتاب المكافأة

الباب الثالث : كتاب الرسائل والانشاء

صحيفة

- ٨٦ ٤ — قبل عهد الطولونيين
٨٩ الشك في خطاب عمرو في وصف مصر
٩١ ٣ — ديوان الإيـنشاء في العصر الطولوني والأخشيدي
٩١ ابن عبد كان . خطابه إلى العباس بن أحمد
١٠١ تموع موضوعات الرسائل في مصر
١٠٣ بعض كتاب الطولونيين
١٠٦ النجيري كاتب الأخشيد . صورة خطابه إلى ملك الروم
١١٤ ابن كلا كاتب الأخشيد

الباب الرابع : في الشعر

- ١١٦ ١ — من الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة الأموية
١٢٠ الشعراء الوافدون
١٢٠ أيمن بن خريم
١٢١ نصيب بن رباح
١٢٤ عبد الله بن الحجاج
١٢٥ كثير عزة
١٢٧ جميل بن معمر
١٢٧ عبيد الله بن قيس الرقيات
١٢٩ الحزين الكنتاني

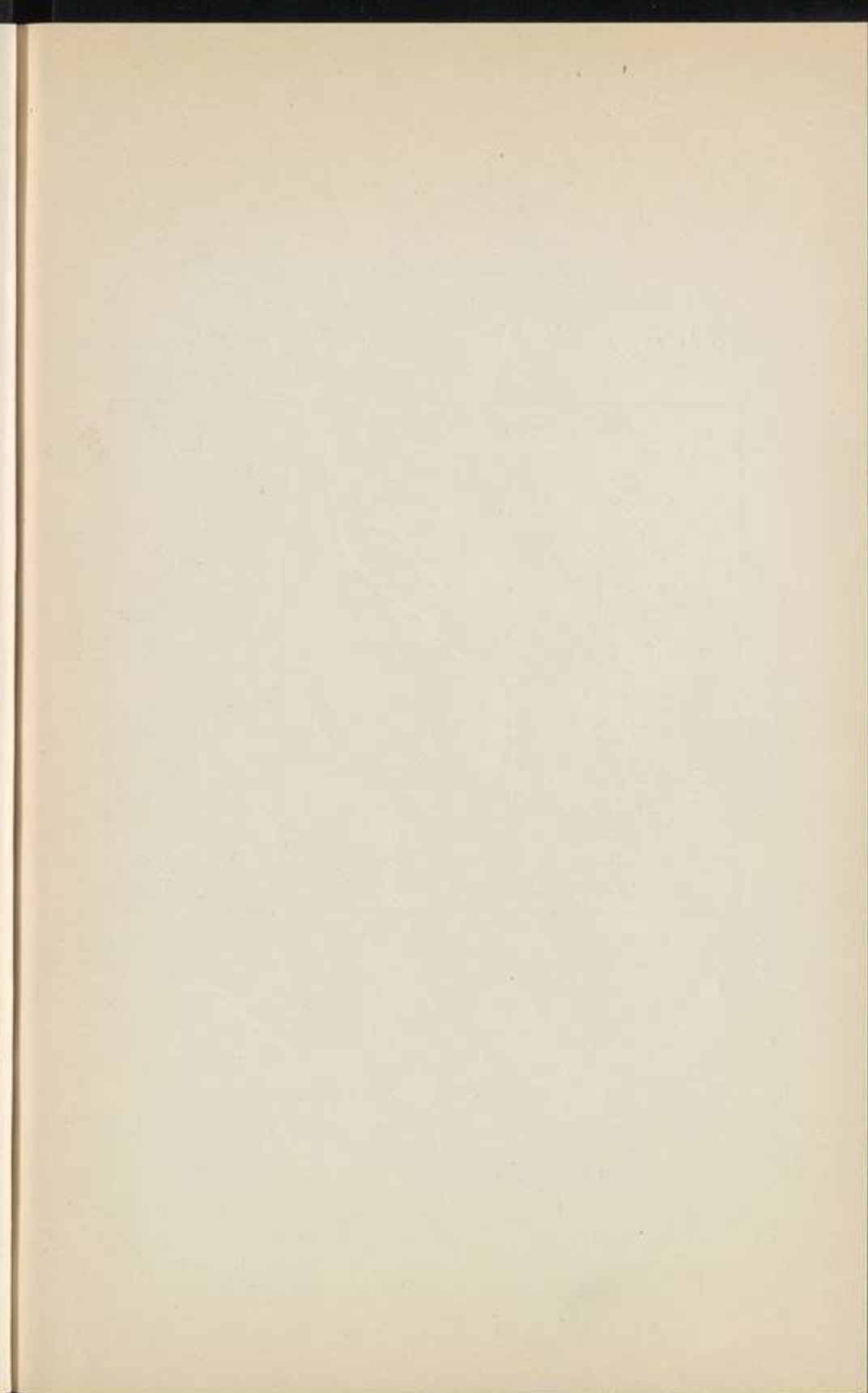
صحيفة	
١٢٩	الشعر المصرى فى فتنه الزبير
١٣٥	٢ — من قيام العباسيين الى دخول ابن طولون
١٣٩	أثر الفتن فى الشعر
١٤٨	فتنة العصية العربية
١٥٠	الفتن بين العرب والمصريين
١٥٦	أثر محنة خلق القرآن
١٥٩	بعض أغراض الشعر المصرى
١٧٣	الشعراء الوافدون
١٧٤	ربيعة بن ثابت الرقى
١٧٥	ابن المولى
	أبونواس فى مصر ، مدحه للنصيب ثم هجاؤه له
١٧٥	علاقته بنى حديج ، صلته بالمصريين
١٨٧	دعبل الخزاعى
١٩٠	شعراء مصريون راحلون
	أبو تمام
١٩٤	مانى الموسوس
	لمحة عن أشهر الشعراء فى ذلك العصر
١٩٦	سعيد بن عفير
١٩٩	المعلى الطائى
٢٠١	الجل الأكبر

صفحة	
٢٠٣	٣ — الشعر في عهد الطولونيين والأخشيديين
٢٠٤	التكسب بالشعر
٢٠٢	رثاء الدور
٢٢٥	أثر اللهب في الشعر
٢٣٥	الطبيعة في الشعر المصري
٢٣٨	أغراض أخرى للشعر
٢٤١	الشعراء الوافدون
٢٤٢	المتنبي في مصر
٢٤٧	الناشئان
٢٥٠	كشاجم
٢٥٣	أبو الفيض سوار بن شراعة
٢٥٤	لمحة عن أشهر شعراء ذلك العصر
٢٥٤	ابن جدار
٢٥٧	منصور الفقيه
٢٦٠	ابن طباطبا
٢٦٤	حاتمة

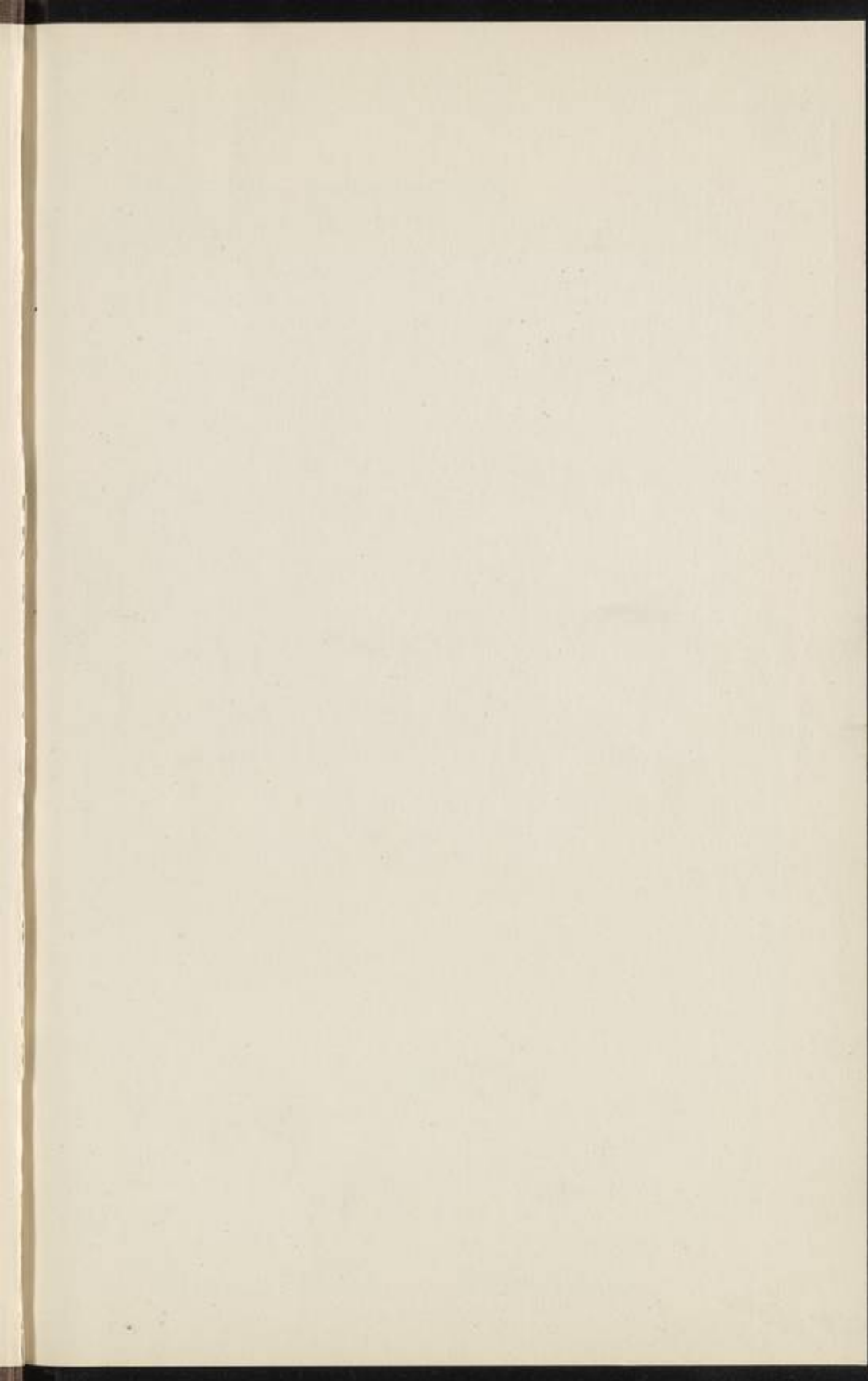
أخطاء مطبعية

وقمت أثناء الطبع ببعض أخطاء مطبعية نأسف أشد الأسف لوجودها ونرجو
التفضل بتصحيحها .

صواب	خطأ	س	م
المزج	لمزج	١٠	٧
Conquest of	Conquest a.	٢٠	١٦
عيسى ابن	عيسى بن	١٦	٥٤
لابن الزيات	لابن الزايت	١٣	٥٧
أبو يعقوب	بو يعقوب	١٣	٥٨
انساع	انساع	١٢	٦٢
وسألاه	وسالاه	١٦	
المبالغات	المبالفت	٩	٧٦
بالقدر	القدر	١٠	٨٤
والعدات	واله ات	٤	٩٨
تخرش	تخرس	٦	١٥١
أبي نواس	أبي نواص	٢١	١٧٧
المقریزی	المقریزی	٢٢	
جدیر	جدر	٣	١٧٩
خراسان	خراسان°	١١	١٩٢
وجا	وجا	٦	٢٥٧







893.79
H9561

EDDNE
FEB 17 1960

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58869930

893.79 H9561

Fi al-adab al-Misri.